

أنيك كوجان

الطرائد

جرائم القذف في الجنسية

الدار المتوسطية للنشر
MEDITERRANEAN PUBLISHER



بسم الله الرحمن الرحيم

الكتاب ، الطرائد - جرائم القذافي الجنسية -

الكاتب ، أنيك كوجان

مدير النشر ، عماد العزالي

تصميم الكتاب والغلاف ، نجلاء العياري

الترقيم الدولي للكتاب ، 1_02_864_9938_978

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى: 2013 م - 1434 هـ

يحظر نشر أو تصوير أو ترجمة أو إعادة تنسيق أو جلف الكتاب كاملاً أو مجزأً أو تسجيله على أشرطة
كاسيت، أو إدخاله على الحاسوب أو برمجته على إسطوانات مضمومة إلا بموافقة خطية من الناشر.

الناشر المتوسطية للنشر
MEDITERRANEAN PUBLISHER

شارع شطراة 2073 برج الوزير أريانة 5

الهاتف : 216 70 698 880

الفاكس : 216 70 698 633

الموقع الإلكتروني: www.mediterraneanpub.com

البريد الإلكتروني: medi.publishers@gnet.tn

الفيسبوك : قضاء القارئ

التقديم

على غير المعتاد كان بالضرورة أن تكون للنسخة العربية من هذا الكتاب تقديمًا بذاته، تشرح الخلفية الأصعب للعمل، وتبرر توظيف بعض المفردات «المربعة» : التي تنفر منها اللغة، ويرفضها القلب والعقل. لكنها للأسف تفرض نفسها على النص كمصيبة لا بد منها : لان إزالتها أو استبدالها بمفردات أخف : يؤسس لخطيئة بحق الضحايا، بالقياس إلى ما يمثله ذلك من تسامح مع المجرم.

فنحن هنا أمام نموذج استثنائي من البحوث الميدانية: الذي جهدت خلاله الكاتبة الفرنسية الكبيرة انيك كوجان لرفع الستار عن أبشع الجرائم الجنسية التي ارتكبتها طاغية عبر القرون، استغرق منها عدة أشهر من التنقيب في ليبيا ما بعد الحرب : حول الجرائم الجنسية للمقبور القذافي. اليد في اليد مع ثائرة ليبيا، في تحدي كبير لكافة الصعوبات التي كانت تقف أمام الخوض في موضوع يحمل في طياته أكثر من تهديد.

التقديم

حيث تنقل الكاتبة في هذا الكتاب، شهادات على درجة من الاهمية لعدد من الضحايا، اختارت أن تضع إحداها كوثيقة أساسية، ترفدها بقية الشهادات، تجنباً لأي تكرار قد يؤدي إلى الخروج بالموضوع عن هدفه، حيث أن الغوص أكثر في تفاصيل «فجور» الطاغية : والذي يرسم لسيتاريو غير مسبوق في تاريخ البشرية : ورغم أهمية ذلك لرصد الحقائق من أجل التاريخ، كان سيجعل الكتاب اقرب إلى كتب الروايات الوردية.

وفق ذلك، يجدر أن نشدد هنا، ان ما يرد بالمتن من مفردات «قاسية» : إنما يعود إلى خيار موضوعي، وفكري بذاته، لأنها هكذا وردت على لسان الطاغية، وان أي محاولة للقفز على دناءة تعابيره القميئة : تتدخل سلباً على مجريات البحث، وعلى موضوعه، حيث أن ذلك يؤسس بالأحرى إلى هدية ليست من حق الطغاة، فان نجعل على قم معمر القذافي كلمات اقل براءة وسوقية لا يخدم البحث : بل هو يشوه رسالته.

لذلك : وفي الوقت الذي نعتذر فيه للقاريء على قسوة سياق الكتاب في عمومته، نؤكد في الختام أن خيار التزام «الحرفية» لم يكن بالضرورة سهلاً، كما أن شهادات الضحايا لم تكن سهلة.

صفحات من «حياة متجبر مهووس بالجنس» تعرضها دون موارد : رغم ارتفاع فرائض الحروف : لنقدم للعالم كشفاً بجرائم الطغاة، وليعروءا ان التاريخ يترصدهم. وان كل من يحاول أن يتمادى سيكون التاريخ له بالمرصاد...

وحتى لا يتكرر ذلك أبداً !

المقدمة

في البداية، كانت ثريا.

ثريا: بعينيها الفسفيتين وشفتيها المتجهمتين وضحكاتها الطويلة الرنانة. ثريا التي تنتقل، بحرفة كبيرة، من الضحك إلى الدموع، من البشر إلى الكآبة، من الرقة الحميمة، إلى عنف تمثال جامد. ثريا وسرّها وألمها وثورتها. ثريا والقصة العجيبة لفتاة صغيرة وسعيدة، أقيت بين مخالف الغول.

إنها هي التي حقّزت على إنجاز هذا الكتاب...

التقيت بها في أحد أيام الفرح، والهرج والمرج، التي تلت اعتقال الديكتاتور معمر القذافي، ومصرعه في أكتوبر 2011. كنت في طرابلس مرسلّة من قبل جريدة اللوموند (الفرنسية). للتحقيق حول دور المرأة الليبية في الثورة، كانت المرحلة ضاحجة، وكان موضوع المرأة في الثورة يستهويني.

لم أكن متخصصة في شؤون ليبيا. بل إنها المرة الأولى التي أشد فيها الرحال إليها، كنت مفتونة بالشجاعة

المذهلة التي أبدتها الثوار للإطاحة بالطاغية الجائئ على رقابهم اثنتين وأربعين عاما. ولكني كنت مشغولة، بشكل أعمق، بشأن الغياب التام للمرأة في الأفلام، والصور والتقارير المنشورة في الأشهر الأخيرة. ففى الوقت الذي كشفت فيه انتفاضات الربيع العربي الأخرى، ونسائم الأمل التي هبت على هذه المنطقة من العالم، عن قوة المرأة التونسية : التي كانت حاضرة بشكل واضح فى النقاشات العامة، وعن عنفوان جموع النساء المصريات المتظاهرات، والمتحديات لكل المخاطر بساحة التحرير بالقاهرة. نجد إن المرأة الليبية قد غابت عن المشهد، الأمر الذي كان يطرح بالنسبة لى أكثر من سؤال : أين كانت النساء الليبيات؟ ماذا كانت تفعلن أثناء الثورة ؟ هل كن تأملن حدوثها، هل فجرنها، هل ساندنها ؟ ولماذا اختفين الآن؟ أو على نحو أوضح، لماذا يتم إخفاؤهن، فى هذا البلد الذي ما أنفك مجهولا بالنسبة للعالم، وقد أستحوذ «زعيمه المهرج» على كامل المشهد، والذي جعل حارسائه «الأمازونيات» الشهيرات، واجهة لثورته الخاصة ؟

أسرّ لى بعض الزملاء الذكور الذين تابعوا حراك الثورة من بنغازي إلى سرت، أنهم لم يتمكنوا من مقابلة أي امرأة. إلا بعض ظلال أشباح ملتحفة بعبايات سوداء، حيث رفض الثوار الليبيون بشكل قاطع، ربطهم بأمهاتهم أو زوجاتهم أو أخواتهم، وقالوا لى فى شيء من المزح : «قد تكونين أكثر حظا منا» مقتنعين بأن التاريخ فى هذا البلد، لم يكتب على كل حال، على أيدي النساء، هم لم يجانبوا الصواب فى النقطة الأولى، أن تكون الصحافية امرأة، فى هذا البلد

المحافظ، يمثل أفضل فرصة لامتلاك مفتاح الوصول إلى المجتمع كله، وليس لمجتمع الذكور فقط، ولكنهم جانبوا الصواب في النقطة الأخيرة : فقد كان يكفيني بضعة أيام، وعدد من المقابلات لأفهم أن دور النساء في الثورة الليبية، لم يكن مهما فقط، بل كان حاسما. فقد كنّ يمثلن «السلاح السري للثورة» كما أكد لي أحد زعماء الثوار. فهن من قام بتشجيع المقاتلين، وإطعامهم، وإخفائهم، وتيسير تنقلهم، وعلاجهم، وتموينهم، وتزويدهم بالمعلومات، وقمن بجمع المال لشراء السلاح، والتجنس على قوات القذافي لصالح «النيثو» وبتحويل وجهة أطنان من الأدوية، بما في ذلك من المستشفى الذي تديره ابنة معمر القذافي بالتبني (نعم تلك التي أشاع - كذبا - موتها إثر القصف الأمريكي لمقر إقامته سنة 1986). لقد تحملت النساء مخاطر خرافية، حيث كان يتهددهن في كل لحظة خطر الاعتقال والتعذيب والاغتصاب. حيث وظفت ككنايب القذافي الاغتصاب : والذي يُعتبر في ليبيا جريمة الجرائم بشكل واسع كسلاح «رهيب» من أسلحة الحرب. لقد خاضت المرأة الليبية الثورة بكل قواها، ونهضت بعنفوان غضبها لتطيح بالطاغية، وكانت عملاقة وخرافية الإرادة، كن «أبطال» الثورة، قالت لي إحداهن : «في الحقيقة، كان للنساء ثأر خاص مع القذافي، كان يجب أن تسويه».

ثأر خاص بالمرأة... لم أفهم بسرعة ما يمكن أن تعنيه هذه الكلمات. أليس للشعب الليبي الذي عانى أربعة عقود كاملة من الاستبداد والديكتاتورية ثأرا مشتركا مع القذافي؟ أليس القذافي هو من صادر الحقوق والحريات الفردية،

وقمع المعارضين وأذاقهم القهر والهوان. أليس القذافي هو من دمر المنظومة الصحية والتربوية، وتسبب في الوضعية الكارثية للبنية التحتية الليبية، أليس القذافي هو من تسبب في الانهيار التام للثقافة، أليس هو من احتكر عائدات النفط لنفسه وأذاق شعبه الفقر والحرمان. أليس هو من قام بعزل ليبيا عن بقية العالم... فلماذا هذا الثأر الخاص بالنساء؟ ألم يدع. صاحب الكتاب الأخضر. أنه حقق المساواة بين المرأة والرجل؟ ألم يقدم نفسه المدافع عن حقوق المرأة؟ ألم يتم بتحديد السن القانونية للزواج بالنسبة للفئة بسن العشرين. ومنع تعدد الزوجات والانتهاكات الذكورية في المجتمع؟ ألم يمنح المطلقات حقوقاً لا تتمتع بها المرأة في بقية البلدان الإسلامية؟ ألم يتم بتأسيس أكاديمية عسكرية خاصة بالنساء؟

«هراء، نفاق، وتهريج! كل واحدة منا كانت ضحية محتملة للقذافي». هكذا أجابني إحدى الحقوقيات الليبيات. وعلى حين غرة التقيت بثريا. لقد وضعها القدر في طريقي صبيحة يوم 29 أكتوبر: بينما كنت بصدد وضع اللمسات الأخيرة على التحقيق الصحفي الذي أتيت من أجله إلى ليبيا. وكنت أنوي العودة لباريس في الغد. عن طريق تونس. وذلك بعد أن تحصلت على أجوبة مفصلة، ودقيقة فيما يتعلق بسؤالي عن طبيعة مشاركة المرأة الليبية في الثورة.

ولكن وللأسف أسئلة كثيرة بقيت معلقة! أهمها: قضية الاغتصاب الجماعي، وهتك الأعراض التي نفّذها مرتزقة القذافي، وهو الموضوع الذي كان من «التابوهات» الكبرى.

والذي لا تفضل الأسر الليبية. ولا ناشطات المجتمع المدني. أو المنظمات النسائية أن تتطرق له.

لهذا السبب وقفت الكثير من الصعوبات أمام عمل محكمة الجنايات الدولية. لصعوبة اللقاء بالضحايا والتحقيق معهم حول تلك الجرائم. أما الآلام التي كانت تعصف بالمرأة الليبية قبل الثورة : فلم تكن تظهر إلا في سياق أحاديث السر. نصحبها تنهيدة طويلة ونظرة زائغة. وكثيرا ما نسمعهن يرددن : «ما الفائدة من إثارة موضوع هذه الممارسات المهيئة. والجرائم التي لا تفتقر؟» حتى أنني لم أتمكن من الحصول على أي شهادة أنقلها بشكل مباشر من إحدى الضحايا. ولا أي قصة من شأنها إدانة القذافي.

في هذه الأثناء. ظهرت ثريا. كانت ترتدي وشاحا أسود اللون. يغطي شعرها الكثيف والمصفف بعناية. وكانت تضع نظارة شمسية سوداء تخفي أغلب وجهها. شفتاها العريضتان التي تذكر بـ«أنجلينا جولي» تعكس الكثير من الجدية : لكنها عندما تبتسم. سرعان ما يضيء برق من طفولة عذبة وجهها الجميل : الدافق بالحياة. ترعت نظارتها وسألتنني : «كم هو عمري حسب رأيك؟» : وانتظرت إجابتي في شيء من التوتر. ثم استرسلت : «لدي إحساس بأنني أبدو في الأربعين من عمري!». تقول هذا وكأن سن الأربعين تأتي في قمة هرم العمر. ثريا كانت في الثانية والعشرين من عمرها.

كان ذلك في يوم مشرق أغلق أهدابه بود على طرابلس
الصاخبة. وكان معمر القذافي قد مات منذ أكثر من أسبوع؛
وأعلن المجلس الوطني الانتقالي بشكل رسمي تحرير
كامل البلاد : جمعت الساحة الخضراء : التي أصبحت
تسمى ساحة الشهداء، مرة أخرى مساء الأمس جمهرة
من سكان طرابلس وهم في فرح ظاهر، مكبرين وهاتقين
لليبيا في سنفونية من الأناشيد الثورية. تحت وابل طلقات
الكلاشنكوفات، اشترى سكان كل حي جملاً ونحروه
أمام المساجد لتوزيع لحمه على اللاجئين الذين دمرت
الحرب مدنهم. كان الناس يقولون أنهم صاروا «مَوْحَدِينَ»
و«متضامنين» وأنهم «سعداء كما لم يعرفوا السعادة
من قبل»، ولكنهم أيضا مترنحون. وقد فقدوا البوصلة.
ويستحيل عليهم العودة إلى أعمالهم. وإلى حياتهم اليومية.
ليبيا بدون قذافي ؟... يستحيل تخيل ذلك.

السيارات العسكرية المبرقعة كانت تجوب شوارع
المدينة، مملوءة بالثوار الجالسين على مقدمتها. وعلى
الأسقف، أو على الأبواب، وهم يلوحون بالأعلام. ويزمرون
بأبواق السيارات. كان كل منهم يحضن سلاحه. كحبيبة
يرافقها إلى حفلة، ويفتخر بها. أصوات الثوار تعلو بالتكبير.
راسمين شعارات النصر، بمناديل حمراء وخضراء وسوداء.
رمز علم الاستقلال. ولا يهم إن لم يكن جميعهم من محاربي
الساعة الصفر. أو كانوا من الشجعان حتى. فمنذ سقوط
مدينة سرت آخر معاقل القذافي. وقتله بتلك الطريقة
العاصفة. أعلن الجميع أنه من الثوار.

كانت ثريا تتأمل من بعيد، كانت منزوعة. هل هي أجواء
الاحتفالات الصاخبة التي تجعل ذلك الضيق الذي تشعر
به منذ موت القذافي أكثر مرارة؟ أم هو تمجيد «الشهداء»
و «أبطال» الثورة ما يحيلها إلى حقيقتها المؤلمة كضحية
مستترة. غير مرغوب فيها، مخزية؟ هل استوعبت ثريا
فجأة مدى الكارثة التي حلت بحياتها؟ لم تكن تملك
الكلمات. ولا قدرة لها على التفسير. هي فقط تشعر
بالحرقة لإحساسها بالظلم المطبق. هو الحرج من عدم
إمكانية الإفصاح عن ألمها والتصريح بثورتها. الرعب من
أن يذهب ألمها. وهو ألم صامت وبالتالي غير قابل للحكي.
هباء منثور. ذلك غير معقول. وهو ليس أخلاقيا.

كانت ثريا تعض على وشاحها. وهي تُحكّم بتوتر تغطية
النصف الأسفل من وجهها به. تدحرجت بعض الدموع من
مقلتيها : فسارعت بمسحها. وقالت : «معمّر القذافي دمر
حياتي». كان عليها أن تتكلم : فثمة الكثير من الذكريات
الثقيلة التي تتزاحم في مخيلتها. الكثير من «الذنس» الذي
حول حياتها إلى كوابيس. كما تشرح : «وحتى إن قصصت
حكايتي. فلا أحد سيفهم من أين أتيت. ولا ما عانيت. لا
أحد على الإطلاق يمكن أن يتصور». كانت نهز رأسها
بأس.

وأضافت : «عندما شاهدت جثة القذافي معروضة
للعوم. شعرت لبرهة بسعادة غامرة. لكن إحساسا جارفا
بالمرارة سرعان ما اجتاحتني. فقد وددت لو بقي على قيد
الحياة. كان يجب أن يُعقل. ويحاكم أمام محكمة دولية.
كنت أريد أن أحاسبه».

أرادت ذلك لأنها ضحية : وهي واحدة من بين أولئك الضحايا الذين لا يريد المجتمع الليبي الحديث عنهم. الضحايا الذين تطال لعنة إهانتهم وتدنيهم مجمل العائلة. والأمة برمتها. ذلك النوع من الضحايا المزعج أمرها. والمثيرة للقلق. على النحو الذي يفضل معه الجميع تحويلهم إلى مذنبين.

ترفض ثريا ابنة الاثنين والعشرين ربيعا ذلك بقوة. فهي تحلم بالعدالة : وتريد أن تدلي بشهادتها. فإن ما فعلوه بها. وبالأخريات. ليس شيئا بسيطا. أو قابلا لأن يتغاضى عنه. لذلك هي ستروي قصتها : قصة فتاة دخلت للتو عامها الخامس عشر عاما. عندما لمحها معمر القذافي في زيارة لمدرستها. واختطفها في اليوم التالي. لتتحول - مع غيرها - إلى «جارية» رهن شهواته. حيث بقى مُحْتَجَزة لسنوات عدّة في معسكر باب العزيزية. المكان الذي ستعرض فيه للضرب. والاغتصاب. وإلى شتى أشكال شذوذ طاغية مهووس بالجنس. لقد سرق منها عذريتها وشبابها. وحرمها من أي مستقبل محترم في المجتمع الليبي. كانت تعي ذلك بهرارة. وبعد أن بكتها واحتجّت لغيابها. أصبحت عائلة ثريا تعدها منحرفة. ولم تعد قابلة للإصلاح. فهي تدخن. وهي عصيّة عن كل إطار. ولا تعرف في أي اتجاه تمضي.

قصتها جعلتني في ذهول تام. وقد عدت إلى فرنسا وأنا مصدومة. وكتبت قصة ثريا على صفحات جريدة «اللوموند» دون الكشف عن وجهها أو هويتها. كان ذلك من الخطورة بكان. يكفي ما تعرضت له من معاناة. لكن القصة نُقلت وترجمت في جميع أنحاء العالم. كانت المرة

الأولى التي تقرر فيها امرأة ليبية تقديم شهادة حية من باب العززية، ذاك المكان المليء بالألغاز. بعض المواقع الموالية للقذافي قامت بتكذيب القصة. محتجين على تشويه صورة زعيمهم الذي قدّم الكثير - بزعمهم - من أجل «تحرير» المرأة. أما البعض الآخر. ورغم علمهم بسلوك القذافي. فهم مع ذلك يجدون صعوبة في تصديق هذه القصص المريبة.

لم يراودني الشك لحظة واحدة في ما حدثني به ثريا. فقد بلغتني العديد من القصص المشابهة تؤكد وجود «ثريات» أخرى. علمت أن مئات النساء تعرضن للاختطاف لساعة أو ليلة أو لأسبوع أو لسنة كاملة. وأجبرت بالقوة أو بالابتزاز على الاستسلام لنزوات القذافي ووحشيته الجنسية. كما علمت أن القذافي قد سخر شبكات من الدبلوماسيين والعسكريين والحراس الشخصيين. والموظفين الإداريين أو موظفي البروتوكول. وذلك من أجل مهمة رئيسية هي توفير فتيات - أو فتيان - لسيدهم. لتلبية حاجياته اليومية. كم من الآباء والأزواج كانوا يحرصون على إبقاء بناتهم وزوجاتهم. داخل جدران المنازل حتى لا تقع عليهن عين القائد ونزأوته. واكتشفت إن الطاغية. الذي ولد في عائلة بدوية فقيرة جدا. كان مسكونا بالجنس. وبفكرة امتلاك نساء وبنات الأثرياء والأقوياء. من وزرائه وجنرالاته. أو القادة والحكام. وكيف كان على استعداد دائم لدفع الثمن المطلوب، أي ثمن بدون أي حدود.

لكن للأسف ليبيا الجديدة ليست مستعدة بعد للكلام. فالموضوع لا يزال من المحرمات! فبالرغم من أن لا أحد يتأنى عن تجريم القذافي. والمطالبة بتسليط الضوء على

اثنين وأربعين سنة من القهر والاستبداد والحكم المطلق. حيث يتم التطرق يوميا لتلك العذابات التي تعرض لها المساجين السياسيون، وقمع المعارضين وتعذيب المتمردين وسجنهم. وإن لا يمل من الحديث عن استبداد القذافي وفساده، عن ازدواجيته وجنونه، عن متاوراته وانحرافه... وهم يطالبون بالتعويض للضحايا جميعهم. لكن لا أحد يريد أن يسمع عن مئات الفتيات اللاتي سُبين واغتصبن. واللاتي لم يكن أمامهن من خيار غير الصمت أو الرحيل. والأسهل من ذلك كله موتهن : بل إن بعض الذكور في عائلاتهم مستعد للقيام بالمهمة.

عدت إلى ليبيا للقاء ثريا. وجمعت قصصا أخرى. وحاولت تفكيك الشبكات المتواطئة التي مهّدت للطاغية. كان التحقيق يتم تحت ضغوط قوية. فالضحايا والشهود يعيشون إلى اليوم رعب التطرق للموضوع. فبعضهم تعرض للتهديد والتخويف من قبيل : «لمصلحتك ومصلحة ليبيا. ومن الأفضل التخلي عن متابعة البحث في هذا الموضوع!». هكذا كانت نصيحة العديد ممن اتصلت بهم، قبل أن يقطعوا المكالمة بشكل مفاجئ. وفي زنزانتها بسجن مصراته : حيث يقضي يومه في تلاوة القرآن. التفت شابا ملتجئا شارك في عملية الاتجار بالفتيات. قال لي بغضب : «لقد مات القذافي وانتهى أمره. لماذا تنبشون عن أسرارهِ الفاضحة؟». وفي السياق نفسه يقول وزير الدفاع الليبي السيد أسامة الجويلي : «هذا الموضوع مدعاة للعار والميانة لكل الليبيين. عندما أفكر في هذه الجرائم التي اقترفت في حق العديد من الشباب بها في

ذلك الجنود. أشعر بالاشمئزاز ! أؤكد لكم أنه من الأفضل طي الصفحة. لقد طال هذا الدنس كل الليبيين، ولا أحد يرغب في إثارة الموضوع».

أهكذا الأمر ؟ جرائم نتدد بها. وأخرى نتستر عليها. ونعتبرها أسراراً صغيرة وفذرة ؟ هناك ضحية جميلة ونبيلة وأخرى مخجلة ؟ ضحية نستحق المكافئة والتكريم والتعويض. وأخرى يكون من الأفضل الإسراع «بطي صفحاتها ؟ كلا. هذا غير مقبول. قصة ثريا ليست فريدة من نوعها. الجرائم المرنكة ضد المرأة — وما يحوم حولها من مغالطات وتمييز في جميع أنحاء العالم — لا يمكن معالجتها بهذا الاستخفاف».

تعتبر شهادة ثريا على مستوى كبير من الشجاعة ويجب قراءتها كوثيقة كُتبتْ سطورها تحت إملائها. فهي كانت منحدثة جيدة، وتملك ذاكرة ممتازة. وهي لا تحتل فكرة مؤامرة الصمت، بدون شك لن يكون في الإمكان تقديم الطاغية - وقد لاقى حتفه - أمام المحكمة الحنائية لتنصفها. ربما لن تقبل ليبيا أبدا الاعتراف بمعاناة «ضحايا» معمر القذافي، والنظام القائم على صورته. لكن شهادة ثريا ستكشف للجميع أنه لما كان القذافي يخنل في أروقة الأمم المتحدة على إيقاعات أنه سيد العالم، وبينما كانت الأمم الأخرى تفرش له السجاد الأحمر، وتستقبله وترحب به، وبينما كانت حارساته «الأمازونيات» : محل إعجاب وانبهار، أو تفكه، كانت العديد من الفتيات تقبع في قبو إقامته الشاسعة بباب العزيزية، فتيات لم يكن عند قدمهن قد تجاوزن بعد سن الطفولة.

الفصل الأول

قصة ثريا

طفولة

ولدتُ في مدينة المرج. إحدى مدن الجبل الأخضر الصغيرة. والتي تقع على مسافة من الحدود المصرية. كان ذلك يوم 17 فبراير 1989. نعم 17 فبراير ! هذا اليوم الذي بات من المستحيل على الليبيين أن ينسوه : يوم انطلقت شرارة الثورة التي أطاحت بحكم القذافي. بإمكاننا القول إنه يوم قَدَّر له أن يكون عيداً وطنياً. وهي فكرة تروق لي كثيراً!

ثلاثة إخوة ذكور حلوا قبلي بالبيت. ووُلِدَ بعدي أخوان وأخت صغيرة. ولكنني كنت البنت الأولى. وكان والدي سعيداً جداً بولادتي. لطالما أراد أن تكون له بنت. وكان يريد أن يسميها «ثريا». لقد كان يحلم بهذا الاسم لابنته حتى قبل زواجه. وكثيراً ما حدثني عن شعوره لحظة حملني بين يديه لأول مرة. وما فتئ يردد لي : «لقد كنت جميلة!». جميلة جداً!». كانت سعادته بولادتي تفوق

الوصف. إلى درجة أن الحفل الذي أقامه بمناسبة «أسبوع الولادة» كان بحجم حفل زفاف : وليمة ضخمة، مدعويين بلا عد، فرقة موسيقية...

كان يريد كل شيء لابنته، نفس حظوظ إخوتي الذكور ونفس الحقوق التي يتمتعون بها. وهو لا زال حتى الساعة يعبر عن حلمه القديم في أن أصبح طبيبة. وبالفعل حرص والدي على تعليمي، ودفعني لدراسة العلوم الطبيعية بالثانوية. ولو سلكت حياتي طريقها العادية، لكنت درست الطب. العلم عند الله ؟ أما أن يحدثوني عن مساواتي في الحقوق مع إخوتي الذكور فذاك الذي يصعب على تصديقه! ولا توجد امرأة ليبية واحدة يمكنها تصديق ذلك الوهم. يكفي أن أستعرض تجربة والدتي، تلك المرأة العصرية، التي اضطرت في آخر المطاف للتخلي عن كل أحلامها.

كانت أمي نملك الكثير من الأحلام. تبخرت جميعها. ولدت أمي. عن والدين تونسيين، في المغرب. حيث تقطن جدتها أم والدتها. والتي ارتبطت بها أمي وأحببتها كثيرا. وكانت تتمتع بكثير من الحرية والاستقلالية، حتى أنها تمكنت من السفر لباريس، التي كانت تعيشها كثيرا، للتدريب على مهنة الحلاقة. هناك في باريس تعرفت على والدي خلال مأدبة إفطار في إحدى لبالي رمضان. كان والدي يستغل بالسفارة الليبية، وكان بدوره بعشق باريس حيث أجواء الحرية. والثقافة مقارنة بمناخ الكبت في ليبيا. وكان من الممكن لوالدي أن يتعلم اللغة الفرنسية في المعاهد المختصة في باريس، خاصة وإن السفارة كانت تشجع موظفيها على

ذلك. لكنه كان لا مباليا. وفضل التنزه والنسكع في شوارع باريس. والاستمتاع بفضاءات الحرية والجمال. لكنه اليوم يتحسر على ذلك، فربما لو تعلم أبي الفرنسية لتغيرت حياتنا. لقد اتخذ والدي قراره بسرعة بشأن زواجه من أمي واحتفلا بذلك في مدينة فاس بالمغرب. عند جدة والدتي. وبسرعة. فخورا بها. قرر اصطحابها إلى ليبيا.

إن وصول أمي إلى ليبيا. إلى مدينة المرج مباشرة من باريس. قد سبب لها صدمة ثقافية. فقد بدأ لها الأمر وكأن الزمن عاد لسنوات عديدة للوراء. ففي الوقت الذي كانت فيه والدتي جد عصرية، تتابع آخر صيحات الموضة الفرنسية. وتهتم بتسريحة شعرها وحسن زينتها. وجدت نفسها مجبرة على ارتداء «اللحاف» الأبيض التقليدي. وعلى المكوث في البيت. فأخذت تشعر. وقد صار مستحيلا أن تخرج للشارع بحرية كما كانت تفعل من قبل. وكأنها أسد وُضع في قفص. وأحسّت بأن والدي قد خدعها. وأنها قد وقعت في فخ. فلم تكن تلك مطلقا الحياة التي صورها لها. ولم يكن ذلك الاتفاق بشأن تنقل الأسرة بين ليبيا وفرنسا. والسفر تباعا بين الضفتين. وأنه يمكن لها فتح صالون حلاقة وتطويع مشروع خاص بها بين البلدين... إلا أنها على العكس وجدت نفسها في محيط بدوي لا يفيل بأي حراك للمرأة خارج البيت فأصبحت بالفعل بداء الاكثئاب. الأمر الذي جعل والدي يبذل قصارى جهده لنقل العائلة إلى بنغازي. ثاني أكبر مدن ليبيا. والتي تميزت على نحو ما باعتبارها المدينة المتمردة على السلطة المركزية في طرابلس. ورغم أن والدي لم يكن يستطيع

اصطحابها معه في رحلاته المتكررة إلى باريس للعمل
يبقى عزاؤها الوحيد مع ذلك، أنه أسكنها مدينة كبيرة
حيث صار بإمكانها الخروج دون لحاف، ومزاولة مهنتها
بعد أن فتحت «صالون للحلاقة» في حجرة الاستقبال
بمنزل العائلة. هل كل ذلك خفف عنها، لا أدري ؟

لقد واصلت أمي اجترار الحزن، والتحسر على أيام باريس
وما فتئت تروي لنا، ونحن صغار، ذكرياتها في «الشانزليزيه»
واحتساء الشاي مع أصدقائها في شرفات المقاهي، وعن
الحرية التي تتمتع بها الفرنسيات، والضمان الاجتماعي
الذي يغطي مصاريف علاج أو حاجة أي عامل، وعن
الحقوق النقابية وجرأة الصحافة، باريس، باريس، باريس...
كم كان الموضوع مقلقا ومملا بالنسبة لنا، لكن ذلك كان
بضائع كل مرة إحساس والدي بالذنب.

لقد كان بمقدوره الاستقرار بها في باريس، خاصة وأن
حاول الدخول مع صديق له في مشروع صغير هناك
مطعم بالدائرة الخامسة عشرة، كان من المفترض أن
تقوم أمي بالإشراف على إدارته، لكن لسوء الحظ، اختلف
بسرعة مع شريكه وفشل المشروع. وكاد أبي أن يشتري
شقة في منطقة «لاديانغس»، كان ثمنها في ذلك الوقت
خمسة وعشرين ألف دولار لا غير ؛ لكنه تراجع في لحظة
الدفع، وهو الأمر الذي لا زال نادما عليه.

هكذا تعود ذكرياتي الأولى عن أيام الدراسة إلى بنغازي
ورغم أن الكثير منها محسبب الآن، إلا أنني لازلت أذكر
كانت مرحلة جميلة، أسم مدرستي كان «أشبال الثورة

وكان لدي أربع صديقات: لا تفرق أبدا. كنت مهتجة المجموعة. مختصة في تقليد الأساتذة حال خروجهم من قاعة الدرس، أو التوكم من مدير المدرسة. فقد كنت أملك موهبة تقليد الآخرين: سواء في هيتهم أو تعبيراتهم. وكنا نضحك معا إلى حد البكاء. أما في الدروس فأذكر أنني كنت أحصل على صفر في الرياضيات، لكنني كنت الأفضل في اللغة العربية.

لم يكن راتب والدي كبيرا. فكان من الضروري أن تعمل أمي كذلك. بل إن عملها سرعان ما سيتحول إلى الراقص الحقيقي لحاجات الأسرة. فصارت تعمل ليلا نهارا. وكلها أمل في أن يحدث شيئا ما يأخذنا بعيدا عن ليبيا. كنت أشعر أنها مختلفة عن بقية الأمهات. وكثيرا ما كنت أعامل في المدرسة باحتقار لأنني «ابنة التونسية» وكم كان ذلك يجرح مشاعري. ولأنه عُرف عن التونسيات التحرر والعصرية. صدقوني، لم يكن ذلك في بنغازي شيء إيجابي. وبغناء، كان ذلك يثير حفيظتي. بل كنت أحيانا أشعر بالسمة على والدي لعدم ارتباطه بواحدة من البلد وكنت أقول في نفسي: ما كانت حاجته ليتزوج من أجنبية؟ هل فكر على الأقل في أبنائه؟ يا إلهي كم كنت غبية!

*

في الحادية عشرة من عمري أخبرنا أبي أننا سننتقل للعيش في سرت، مدينة ساحلية بين بنغازي وطرابلس إذ كان يريد الاقتراب من مسقط رأسه: ومن والده — رجل تقليدي جدا متزوج من أربعة نساء — ومن إخوته وأبناء

عمومته. هكذا كان الأمر في ليبيا. جميع العائلات تحاول أن تبقى مجتمعة حول حصن قبلي : يفترض أنه يؤسس لقوة ودعم غير مشروط. في بنغازي لم تكن تلك جذورا. ولا علاقات اجتماعية. كنا في الواقع كالأيتام. أو هكذا برّر لنا أبي الأمر. بالنسبة لي كان الخبر كارثيا ، كيف يمكن أن أترك مدرستي ؟ أن أترك رفيقتي ؟ إنها مأساة !. حتى أنني وقعت طريحة الفراش من هول الصدمة. لقد مرضت بالفعل. ولازمت الفراش لأكثر من أسبوعين. عاجزة عن الوقوف والذهاب إلى المدرسة الجديدة.

غير أنني في النهاية تحاملت على نفسي. وجررت أقدامي إلى هناك. لم يتطلب الأمر كثيرا من الوقت لأفهم أنني لن أكون سعيدة في تلك المدرسة. أول الأسباب. أنها مسقط رأس القذافي. وأنا لم أتطرق للحديث عن هذا الشخص بعد. لأنه لم يكن محور اهتمام أو موضوع حديث داخل عائلتنا. فأبي لم تكن تخفي كرهها له. وكانت تسارع إلى تغيير القناة حالما تظهر صورته على شاشة التلفزيون. كانت تلقبه بـ«الأشعث». وكانت تحرك رأسها أسي وهي تقول : «بصراحة هل يمكن لرجل مثله أن يكون رئيسا؟»

أما أبي فكان يخافه على ما أعتقد. فقد كان يتحفظ عن الخوض في موضوع القذافي. كنا جميعا على وعي بأنه كلما تجنبنا الحديث عن معمر القذافي كان ذلك أفضل من الناحية الأمنية. وأن أي كلام عنه خارج إطار العائلة يمكن أن يتم نقله مما قد يسبب الكثير من المشاكل. كما لم تكن نعلق في البيت أي صورة له على الجدران، ولم يخض

أي منا أي نشاط ثوري... لننتقل إننا بصورة تلقائية فضلنا
التزام الحذر.

على إنه في المدرسة كانت الصورة مختلفة. فالإعجاب
والتمجيد سيد المشهد. وصور القائد في كل مكان. وكنا
نردد النشيد الوطني كل صباح أمام صورة عملاقة توشح
العلم الأخضر. وكنا نهتف : «يا قائد ثورتنا على دربك
طوالي...وبلابلابلا...» : وفي الفصل أو أثناء الاستراحة، لبس
ثمة من حديث بين التلاميذ غير : «ولد عمي معمر...» أو
«خالي معمر...». أما الأساتذة فيتكلمون عنه كنصف إله.
بل إله كامل. عن طبيته. ورعايته لأبنائه. وكيف أنه يملك
زمان كل الأمور بين يديه. وكان علينا أن نسميه جميعنا
«بابا معمر». كانت مكاتته تناطح القمم.

وفي الوقت الذي كنا قد تكبدنا فيه عناء الانتقال إلى
سرت حتى نفترق من العائلة ونندمج في المجتمع. تبين
لنا أن ذلك كان مستحيلا. فأهل سرت. المتواجون بعلاقة
الغربي أو الجوار مع القذافي. كانوا يتصرفون باعتبارهم أسياد
الكون. وأشرف أهل البلاط. في مقابل الرعاع والفلاحين
سكار المدن الأخرى. فكانوا يقولون لنا هل أنتم من زليتن؟
هذا أمر مثير للسخرية !. أنتم قادمون من بنغازي ؟ هذا
أمر سخيف !. أنتم من تونس ؟ هذا مخجل !. في هذا المناخ.
ومهما حاولت أمي تحسين صورتها. يبقى كل ما تفعله
«عييا». فعندما قامت بفتح صالون للحلاقة والتجميل
في وسط المدينة : على مسافة من سكن العائلة. ونحول
إلى نقط جذب لأنيفات سرت وحميلاتها. زاد ازدياء أهل
سرت لها.

في واقع الأمر تتمتع أمي بموهبة استثنائية في مجال الكوافير والمكياج، والجميع في سرت كان يفر بأنها الأكثر كفاءة وقدرة في المدينة على إبداع أجمل النسريجات وأروع المكياج. والأكيد أن الجميع يحسدونها على ذلك غير إن مدينة سرت تعاني من ثقل التقاليد وقيود التزمّت فخرج المرأة إلى الشارع سافرة الرأس يمكن أن يعرضها للإهانة والشتم. وحتى إن خرجت منحجبة فهي محل شك وارتياب. لماذا هي خارج البيت ؟ هل هي بصدور البحث عن مغامرة ؟ أم أن لها علاقة ؟. والسكان في هذا السياق يتجسسون بعضهم على بعض. ويراقب الجيران تحركات بعضهم البعض. كما تفار العائلات بعضهم من البعض. وهم يتسترون على بناتهم. لكنهم لا يترددون في اغتياب الأخريات. ويمكن القول أن مصنع الإشاعات في سرت يشتغل على قدم وساق دون توقف.

أما في المدرسة، فكنت أتعرض لعقاب مضاعف. فلا يكفي أنني «ابنة التونسية» أنا أيضا «ابنة الحلاقة». فكانوا يجلسونني في الفصل بفرادي : في مقعد منزوي. ولم أتمكن من اتخاذ صديقة من بنات البلد. وحتى فترة طويلة، حين تعرّفت - لحسن حظي - على فتاة والدها ليبي وأمها فلسطينية. ثم على أخرى من أصل مغربي. وبعد ذلك على ليبيّة أمها مصرية. أما بنات سرت. فقد استحال الأمر. وحتى عندما كذبت يوما وقلت إن والدتي مغربية، ظلنا مني أن ذلك أهون من القول إنها تونسية، فؤجنت بأن وقع ذلك كان أكثر سوءا لهذا تمحورت حياتي بشكل رئيس حول صالون الحلاقة. وأصبح كوافير ماما كل مملكتي.

كنت أسارع بالانصراف من المدرسة حال انتهاء الدرس، وأركض إلى الصالون. هناك كنت أحيا من جديد، وتغمرني مشاعر عذبة بالسعادة. أولا لأنني كنت أساعد والدتي؛ وكان هذا يمنحني شعورا دافقا بالرضى.... وثانيا لأن مهنة الحلاقة كانت تعجبني وتملئني بالفبطة.

كانت والدتي لا تتوقف عن الحركة في أرجاء الصالون، تنتقل من زبونة إلى أخرى، رغم وجود أربع عاملات بالمحل. كنا نقوم بتصفيف الشعر، ومعالجة البشرة وتجميل الوجه، ويمكن أنؤكد لكم أن نساء سرت، رغم أنهن لا يخرجن إلا محجبات، لهن شروط ومطالب لا تصدق.

كان اختصاصي إزالة شعر الوجه والحاجبين بواسطة خيط حريري لا غير. نعم؛ مجرد خيط ناعم أقوم بشده حول أصابعي وأحركه بسرعة ليلتقط الشعر. وهذه الطريقة أفضل بكثير من استخدام الملقط أو الشمع. كذلك أقوم بتحضير الوجه بكريم الأساس الذي يسبق المكياج. هذا الذي تتولاه أمي، قبل أن تصبح ورائي، «ثريا! إليك باللمسة الأخيرة». عندها أسارع بوضع أحمر الشفاة، وإلقاء نظرة أخيرة، وإضافة بعض العطر.

نحول صالون الوالدة بسرعة كبيرة إلى أهم مراكز جذب أنيقات المدينة، وبالتالي لقريبات الغدافي. وعندما تنعقد النعم الدولية الكبرى في سرت، تأتي النساء المشاركات في مختلف الوفود إلى الصالون لتصفيف شعرهن وللتجميل. من بينهن زوجات رؤساء الدول، سواء من أفريقيا أو أوروبا أو أمريكا. لقد كان الأمر مسليا، أذكر مرة إن زوجة رعيم

في واقع الأمر تتمتع أمي بموهبة استثنائية في مخازن الكوافير والمكياج. والجميع في سرت كان يقر بأنها الأكثر كفاءة وقدرة في المدينة على إبداع أجمل التزيينات وأروع المكياج. والأكيد أن الجميع يحسدونها على ذلك غير إن مدينة سرت تعاني من ثقل التقاليد وقيود التزمّت فخرج المرأة إلى الشارع سافرة الرأس يمكن أن يعرض للإهانة والشتم. وحتى إن خرجت متحجبة فهي محل شك وارتياب. لماذا هي خارج البيت ؟ هل هي بصد البحث عن مغامرة ؟ أم أن لها علاقة ؟. والسكان في هذا السياق يتجسسون بعضهم على بعض. ويراقب الجيران تحركات بعضهم البعض. كما تفار العائلات بعضهم من البعض. وهم يتسترون على بناتهم. لكنهم لا يترددون في اغتياب الأخريات. ويمكن القول أن مصنع الإشاعات في سرت يشتغل على قدم وساق دون توقف.

أما في المدرسة، فكنت أتعرض لعقاب مضاعف. فلا يكفي أنني «ابنة التونسية» أنا أيضا «ابنة الحلاقة». فكانوا يجلسوني في الفصل بمفردي : في مقعد منزوي. ولم أتمكن من اتخاذ صديقة من بنات البلد. وحتى فترة طويلة. حين تعرّفت لحسن حطّي - على فتاة والدها ليبي وأُمها فلسطينية. ثم على أخرى من أصل مغربي. وبعد ذلك على ليبيّة أمها مصرية. أما بنات سرت. فقد استحال الأمر. وحتى عندما كذبت يوما وقلت إن والدتي مغربية. ظلنا مني أن ذلك أهون من القول إنها تونسية. فوُجئت بأن وقع ذلك كان أكثر سوءا. لهذا ننحورت حياني بشكل رئيس حول صالون الحلاقة. وأصبح كوافير ماما كل مملكتي.

كنت أسارع بالانصراف من المدرسة حال انتهاء الدرس، وأركض إلى الصالون. هناك كنت أحيا من جديد، وتغمرني مشاعر عذبة بالسعادة. أولا لأنني كنت أساعد والدتي، وكان هذا يمنحني شعورا دافقا بالرضى.... وثانيا لأن مهنة الحلاقة كانت تعجبني وتملئني بالفيضة.

كانت والدتي لا تتوقف عن الحركة في أرجاء الصالون. تنتقل من زبونة إلى أخرى. رغم وجود أربع عاملات بالمحل. كنا نقوم بتصفيف الشعر. ومعالجة البشرة وتجميل الوجه. ويمكن أنؤكد لكم أن نساء سرت. رغم أنهم لا يخرجن إلا محجبات. لهن شروط ومطالب لا تصدق.

كان اختصاصي إزالة شعر الوجه والحاجبين بواسطة خيط حريري لا غير. نعم : مجرد خيط ناعم أقوم بشده حول أصابعي وأحركه بسرعة ليلنقط الشعر. وهذه الطريقة أفضل بكثير من استخدام الملقط أو الشمع. كذلك أقوم بتحضير الوجه بكريم الأساس الذي يسبق المكياج. هذا الذي تنولاه أمي. قبل أن تصبح ورائي : « ثريا ! إليك باللمسة الأخيرة ». عندها أسارع بوضع أحمر الشفاه. وإلقاء نظرة أخيرة. وإضافة بعض العطر.

تحول صالون الوالدة بسرعة كبيرة إلى أهم مراكز جذب أنبات المدينة. وبالتالي لقريبات الشذافي وعندما تنعقد الغيم الدولية الكبرى في سرت. تأتي النساء المشاركات في مختلف الوفود إلى الصالون لتصفيف شعرهن وللتجميل. من بينهن زوجات رؤساء الدول. سواء من افريقيا أو أوروبا أو أمريكا. لقد كان الأمر مسلما أذكر مرة إن زوجة زعيم

نيكاراغوا طلبت أن يرسم لها عينان متسعتان، تناسب التسريحة التي رفعت فيها شعرها على هيئة كثلة ضخمة. في أحد الأيام جاءت جودية : مسؤولة المراسم لدى زوجة القذافي، واصطحبت أمي بالسيارة لتصفيف شعر سيدتها وتجميلها. وهو الأمر الذي يعني إن خبر تميز والدني قد وصل لكل مكان! قضت أمي هناك ساعات طويلة في تسريح ومكياج سيدة ليبيا الأولى : صفية فرকাশ. غير أنهم في نهاية العمل، لم يدفعوا لها إلا مبلغا بسيطا، كان أقل بكثير من السعر العادي للعمل نفسه في الصالون. وقد أثار ذلك غضب أمي كثيرا، وشعرت بصورة خاصة بالإهانة. ولما عادت جودية لاصطحابها مرة أخرى، رفضت أمي ببساطة الذهاب، وتعللت بأنها مثقلة بالعمل. وفي العديد من المرات كانت تختفي، وتترك لي مهمة تفسير غيابها وعدم وجودها بالقاعة. لقد كانت والدني شجاعة، واختارت أن لا تنحني أبدا.

ما يمكن أنؤكد في هذا الصدد إن نساء عشيرة القذافي في أغلبهن متعجرفات، فعلى سبيل المثال كنت حين أقرب من إحداهن لأسألهن إن كانت ترغب في تسريحة أو صباغة، تجيبني بازدراء : «ومن نكوّن لتكلمي معي». وفي صبيحة أحد الأيام، دخلت إحدى نساء العشيرة للصالون، وكانت على درجة من الأناقة والجمال، حتى أنني لم أتمالك نفسي لأعبر لها عن إعجابي، وقلت لها بفضوية : «ما شاء الله، كم أنت جميلة!». غير أن ردها كان صنعة قوية أطارَتْ نصف وجهي. في البداية صعقتني الدهول، ثم أسرعْت لأمي أشتكي لها ما حدث، لكنها اكتفت بأن همست في أذني

طالبة مني أن أتجاوز الأمر : «أصمتي. الزبون دائما على صواب». وبعد ثلاثة أشهر من هذه الحادثة. أصبت من جديد بالرعب : وأنا أرى السيدة عيناها تدخل الصالون وتتقدم نحوي. والمؤسف أنها جاءت لتعذر لي هذه المرة. وأخبرتني بأن ابنتها التي كانت في سني. قد انتقلت لرحمة الله أثر مرض عضال. فكان الموقف أكثر إيلا ما من الصفة.

في حادثة أخرى. قامت عروس من آل الفذافي بحجز الصالون ليوم زفافها. ودفعت «بمقدم» على الحساب وفق ما يتم في العادة. غير أن تأجيل أو إلغاء الزواج جعلها تلغي الموعد مع أمي. ثم مرت بالصالون لاسترجاع ما دفعت. غير أن الوالدة رفضت إرجاع المبلغ. فكما هو متعارف عليه في مثل هذه الحالات. إلغاء الموعد يكلف الزبونة خسارة المقدم بكل بساطة. غير أن هذا الأمر أخرج الفتاة عن أطوارها. ونحولت بقدرة قادر إلى وحش هائج. وأخذت تصرخ. وتكسر ما يعترض طريقها. ثم استنجدت برجال عشيرتها الذين تدفقوا نحو الصالون من كل صوب. وأخذوا في تحطيم كل ما تقع عليه أيديهم وتكسيره. وقد أسرع أحد أخوتي لمساعدتنا. لكنهم أمسكوا به وأشبعوه ضربا وتنكيلا. قبل أن يستدعوا له الشرطة وبأخذونه للسجن. وقد اجتهدت عشيرة الفذافي بكل ما بوسعهم لإيقانه بالسجن أطول مدة ممكنة. وقد استدعى الأمر مفاوضات مضنية بين القبائل للوصول إلى اتفاق صلح مشفوع بالاعتذار. وهكذا لم يخرج أخي من السجن إلا بعد ستة أشهر. مخلوق الرأس. وآثار التعذيب تملأ جسده.

ورغم الاتفاق المبرم بين شيوخ القبائل. أصرت عشيرة
القذافي. التي كانت نسير جميع مؤسسات سرت. ومن بينها
البلدية. على إبقاء الصالون مغلقا لمدة شهر آخر. حينئذ
شعرت بثورة عارمة تجتاح كياني.

وفي الوقت الذي لم تكن تربطني بأخي الأكبر. ناصر
أكثر من علاقة خوف وتسلط. كانت تجمعني بعزير. الذي
يكبرني بسنة واحدة. علاقة ود وتكامل. كنا كالتوأم لا
نتفارق. خاصة وأنا كنا ندرس في المدرسة نفسها. وكنت
أشعر أنه يحميني ويغار علي. وكنت مرسول الغرام بينه
وبين حبيبانه. من ناحيتي أنا لم أفكر في الحب نهائيا. وله
أمر بهذا الشعور للأسف على الإطلاق. تاريخي العاطفي
كان صفحة ناصعة البياض. وربما كنت أمتنع عن نفسي
الحب بصورة تلقائية. خاصة أن والدتي كانت شديدة
وصارمة: لا أدري ؟ ولكن لم يكن عندي حبيب. ولا دقة
قلب. ولا أي حلم. أعنفد أنني سأندم طوال حياتي على
عدم مروري بتجربة حب المراهقات. كنت أعرف أنني
يوما ما سأتزوج. فهو قدر جميع النساء. وسأتجمل وأضع
الزينة لزوجي. ليس أكثر من هذا. لكنني لم أكن أعرف
أي شيء: لا بخصوص جسدي. ولا بخصوص الجنس. لا
تتصوروا حجم الذعر الذي أصابني عندما جاءني الدورة
الشهرية أول مرة ! حيث أسرع لتأخير والدتي. لكنها لم
تقدم لي أي تفسير. وكان الحديث في هذا من «النابوهات»
الكبيرة. حتى أننا كنا نحمر خجلا أثناء مرور الدعايات
عن الحفاظات النسائية في التلفزيون. وكان الأمر كارثيا
في حضور ذكور العائلة.... وأذكر أن والدتي وخالاتي كن

يقطن لي أمام تساؤلاتي الحائرة: «عندما تبلغين سن الثامنة عشر، سوف نخبرك عن العديد من الأشياء». عن أية أشياء يتحدثن؟ وكانت الإجابة دائما: «عن شؤون الحياة». ولكن، لم يسمح لهن القدر بذلك. فقد سبقهن معمر القذافي وسحقني.

*

في إحدى أيام أبريل عام 2004، وكنت قد دخلت للتو الخامسة عشر من عمري، جمعنا مدير المدرسة في الساحة ليقول لنا: «إن القائد سيشرفنا بالزيارة غدا. وإن ذاك مفخرة للمدرسة كلها. وأنا أعول عليكم لتكونوا في الموعد، منضبطين، وفي أبهى حلة. عليكم أن تقدموا صورة للمدرسة رائعة، كما يريدونها ويستحقها!». يا للخبر! يا للفصحة! لا يمكن لكم أن تتصوروا كم كان مشيرا فكرة أن نرى القذافي بلحمه ودمه أمامنا... هذا الرمز الذي ما فتئت صورته تداعب مخيلتي منذ أن وعيت.. فقد كانت صورته في كل مكان، على جدران المدينة، على جدران المباني، على جدران البلديات وعلى جدران المتاجر وعلى الأقصص وعلى القلادات وعلى الكرايس وحتى على الأوراق النقدية. كانت نظراته تحلل علينا أينما كنا. وعلى الرغم من تعليقات والدتي اللاذعة بشأن شخصيته، كنت أكن له مشاعر عميقة من الإعجاب والرهبة. لم أكن أتصور كيف هي حياته: إذ لم أكن أضعه ضمن البشر. لقد كان متعاليا في نظري عن هذا الوجود الأرضي، في سماء عسيبة، حيث يسود النقاء.

في صباح اليوم التالي، أسرعنا إلى المدرسة وحرصت على ارتداء بدلة نظيفة ومكوية — سروال وسرواء سوداء. مع وشاح أبيض — كنت في شوق وانتظار كبيرين لمعرفة برنامج هذا اليوم. ولكن وبسجرد بداية الحصة الأولى، جاء أحد الأساتذة وطلب مني مرافقته. قال لي بأنه قد تم اختياري لتقديم باقة الورود والهدايا للقائد أنا! فناء «صالون الخلافة»! التلميذة المنبوذة؟؟؟. يالها من مفاجأة!. في البداية تبيست تحت وقع الخبر، ثم نهضت باعتزاز، وأنا على وعي تام بأن الخبر قد ترك عدداً غير قليل من بنات الفصل: يحترقن من الفيرة، داخل القاعة التي قادني إليها الأستاذ. وجدت مجموعة من التلميذات تم اختيارهن كذلك للترحيب بالقائد. وطلبوا منا تغيير ملابسنا بسرعة وارتداء اللباس التقليدي الليبي. كانت الملابس موجودة على شماعة في ركن القاعة، «رداء أحمر، وصدريّة، سروال، ووشاح تقليدي، وعصبة صغيرة تضبط بعناية فوق الرأس».

كم كان الأمر مذهلاً! وقد انخرطنا في تغيير ملابسنا بسرعة كبيرة، ونحن نقيته في حبور يفوق الوصف. بينما اجتهدت المدرسات في مساعدتنا في ضبط أغلبية الرأس، ووضع المشابك، وتسريح الشعر. وكنت أتساءل: «أخبروني كيف أحياه، من فضلكم! ماذا علي أن أفعل؟ هل أنحني؟ هل أقبل يده؟ هل يجب أن أقرأ شيئاً؟» كانت دقائق قلبي تنسارع، بينما كان الجميع يجتهد لجعلنا في منتهى الروعة. اليوم: عندما أعيد التفكير في ذلك المشهد، كانوا في الواقع يعدوننا كالخراف التي تساق للذبح.

كانت ساحة المدرسة مكتظة. أساتذة وتلاميذ وإداريون. الجميع في حالة انتظار وتوتر. بينما اصطفت مجموعة الفتيات المختارات لاستقبال القائد أمام البوابة الرئيسية. كنا نتبادل النظرات فيما بيننا، وحالاً يقول : «يا للحظ ! بالتأكيد ستبقى هذه أجمل ذكرى في حياتنا». كنت أرعش كورقة وأنا ممسكة بياقة السورود. وكنت أكاد أسقط. وقد صرت أشعر برجلاي لا تقوى على حملي. عندها حدجني أحد الأساتذة بنظرة حادة. وهو يعنفي : «ثريا. اعتدلي!».

فجأة وصل. تسبقه فلاشات آلات التصوير. وتحيط به أعداد كبيرة من الرجال. ومن الحراس والحارسات. كان يرتدي بذلة بيضاء. تزركش صدرها بالنياشين، أعلام وشارات. وكان يتوشح شال بني اللون. ويرتدي قبعة من نفس اللون. تدلت منها خصلات شعر داكنة السواد. لقد مرّ المشهد كله بسرعة فائقة في الواقع. ولكن أذكر أنني قدمت له الباقة. ثم أخذت يده بين يدي؛ وانحنيت لتقبيلها. وأنا أفعل شعرت بضغط غريب على كفي. وأخذ يرمقني بنظرات باردة. ويتفحصني من أعلى رأسي حتى أخمص قدمي ثم ربت على كتفي. قبل أن يرفع يده إلى رأسي ويمسح على شعري.

كانت تلك نهاية حياتي. لأنني فهمت بعد ذلك أن حركة مسح اليد على الشعر؛ ما هي إلا إشارة خاصة لحارساته. وتعني : «هذه أريدها!». لكنني في تلك الآونة، كنت أخلق فوق السحاب من السعادة. وما إن انتهت الزيارة التي لم تدم طويلاً، حتى طرت مسرعة نحو الصالون لأروي

الحدث لأمي. «بابا معمر ابتسم لي. أقسم لك يا أمي! ومسح على شعري!». في الحقيقة، أتذكر أن أمي لم تعر الأمر أي اهتمام، لكن قلبي كان محنفاً. وكنت أريد أن يشعر العالم بذلك، غير أنها ردت في برود: «وهي تواصل نزع البكرات عن شعر إحدى الزبونات: «لا نعطي الأمر أكثر مما يستحق».

— ولكن يا ماما هذا رئيس ليبيا! المسألة لها قيمة رغم كل شيء!

— حقا؟ أتسميه رئيساً؟ هذا الذي أغرق بلادته في ظلمات القرون الوسطى، والذي يقود شعبه نحو الهاوية؟! ...

ردة فعل أمي أزعجتني، ففضلت العودة إلى البيت لأستمع بفرحتي بمفردي. كان والدي في طرابلس، وفيما اعتقد أن الخبر قد أدهش على نحو ما إخوتي، لكنني أذكر أن عزيزاً وحده الذي كاد الخبر يفقده صوابه.

في صباح اليوم التالي، لاحظت عند وصولي للمدرسة تغييراً جذرياً في سلوك المعلمين تجاهي، في العادة هم في منتهى القسوة معي، تصل معاملتهم لي حد الازدراء، لكنهم اليوم فجأة صاروا ودودين تقريباً معي، أو لنقل إنهم مهتمون بأمري. وعندما خاطبني أحدهم بـ «صغيرتي ثريا»: رفعت حاجبي تعجباً. وعندما قال لي آخر: «إذن ستسأنفذين الدراسة؟»، وكأن مجيء للمدرسة كان حسب خيارى، قلت في نفسي إن شيئاً ما غير عادي يحصل. ولكن في النهاية، أكدت لنفسي، أنه اليوم التالي لحفلنا الكبير، ولم أسمح لأي قلق يعترني خاطري. هكذا مع نهاية اليوم

الدراسي، على تمام الساعة الواحدة. اتجهت مسرعة نحو المنزل لتغيير ملابسني. وعلى الساعة الواحدة والنصف كنت في صالون الحلاقة لمساعدة أمي.

طرفت حراسات القذا في الباب في حدود الثالثة. وتقدمت للداخل فائزة، تبعتها سالمة وأخيرا مبروكة. كانت سالمة ترتدي الزي العسكري للحراس الشخصيين للعقيد. وتحمل مسدسا على حزامها. وكانت الأخرتان في ملابس مدنية. نظرن حولين - كان يوما مزدحما بالزبائن وسألن إحدى العاملات:

- «أين هي أم ثريا؟»، وانجهن مباشرة نحو أمي ليقلن لها:

- «نحن من اللجان الثورية. وكنا مع معمر صباح أمس. أثناء زيارته للمدرسة. وقد لفتت ثريا انتباهه. لقد كانت مذهلة في الملابس التقليدية. وقامت بدورها على أفضل وجه. لذلك نحن نريدها أن تقدم مرة أخرى باقة ورود لبابا معمر. وعليها أن تأتي معنا على الفور».

ردت أمي:

- «ولكن الوقت غير مناسب!» ثم أضافت:

- «انظرن كم هي القاعة مكتظة. أنا بحاجة لإبنتي».

فأحبس:

- الأمر لن يتجاوز ساعة من الزمن.

- مجرد تقديم الورود؟

- نحتاجها أيضا لمكياج قريبات القائد.

- في هذه الحالة الأمر مختلف، أنا أذهب معكن!

- لا لا ! نريد ثريا لتقديم باقة الزهور.

كنت أستمع للحوار، بحماس واستثارة : صحيح أن القاء كانت مبتلثة في ذلك اليوم، لكنني كنت أشعر بالحرر ممانعتها. لأنه عندما يتعلق الأمر بالفائد فلا يمكن أن لا ! في نهاية المطاف رضخت أمي - لم يكن لها الخيار الواقع - وخرجت مع النساء الثلاث. كانت سيارة رباء الدفع تقف أمام المتجر، والتي أدار السائق محركها قبل أن نستقر داخل السيارة، جلست مبروكة في المقعد الأمامي، بينما وجدت نفسي محشورة في المقعد الخلفي بين سألمة وفائزة. انطلقت السيارة محدثة ضجة كبيرة لتتبعها سيارتي حراسة لم ألاحظها إلا في تلك اللحظة كان يجب أن أقول «وداعا» لطفولتي.

سجينة

استمرت السيارات مسرعة لفترة خلتها دهرا. ورغم أنني لم أكن أعرف كم ساعة مضت، إلا أن الزمن بدأ لي لا نهاية له. كنا قد غادرنا مدينة سرت وانطلقنا في اتجاه الصحراء. وكنت أنظر أمامي، لا أجراً على طرح أي سؤال، وحتى وصلنا منطقة السدادة، حيث أخذت السيارات في الولوج إلى ما يشبه المخيم. كان هناك مجموعة من الخيام، وعدد غير قليل من سيارات الدفع الرباعي. وكارفان ضخمة. أو بالأحرى بيت فخم جدا متنقل على عجلات. اتجهت مبروكة نحو هذه القاطرة، وهي تشير لي أن أتبعها ونهياً لي أنني لمحت في إحدى السيارات الخارجة من المخيم لحظة دخولنا إليه. إحدى التلميذات التي تم اختيارها البارحة لاستقبال العقيد مثلي. فبعث ذلك في نفسي شيئا من الحمائية. ولكن عند دخولي المقطورة، اجتاحتني رهبة لا توصف كما لو أن كياني كان يرفض الوضع، وإن حدسي يخبرني بأن أمرا جالالا يتم التحضير له على قدم وساق.

كان معمر القذافي بالداخل. مستلقيا على كرسي تدليك أحمر اللون، ممسكا بجهاز التحكم عن بعد بيده. يتصرف وكأنه إمبراطور. اقتربت منه لتقبيل يده التي مدها تجاهي بفتور وتجاهل. وسأل مبروكة بصوت مبحوح : «أين سالمة وفائزة؟» فردت مبروكة : «قادستان على الفور». الوضع برمته جعلني في غاية الاندهاش. ألم يأتوا بي لأنه كان من الضروري أن «تكون أنا» من يقدم له لا أدري ماذا...؟ ولكن ها هو لا يأبه حتى لوجودي. وهو لم يلتفت لي حتى مجرد الالتفات. وكأنني لم أكن موجودة. وبقيت هكذا دقائق طويلة لا أعرف ماذا أفعل. وفي نهاية المطاف وقف وسألني :

- «عائلتك من أين؟».

- من زليتن، أجبته.

بقي وجهه كالحجر بدون تعابير. لكنه وجه أمرا لمبروكة «حضروها». ثم خرج من الغرفة. أشارت مبروكة إلى مقعد في إحدى الزوايا بالقاعة لأجلس عليه. عندها دخلت المراتان الأخريان. وهما تنصرفان على سجيتهما وكأنهما في بيتهما ابتسمت لي فائزة. واقتربت مني وأخذت بذقني بحميمية وألفة. وهي تقول : «لا تقلقي. يا ثريتي الصغيرة!». وعادت أدراجها مقهقهة. بينما استمرت مبروكة ممسكة بالهاتف كانت تعطي أوامرها وتوصياتها بخصوص قدوم شخص ما. ربما فتاة مثلي، سمعتها تقول : «هاتوا بها إلى هنا» أنهت المكالمة والتفتت نحوي مخاطبة : «تعال! سوف نأخذ مقاساتك لنحضر لك ملابس مناسبة». وسألته

«ما هو رقم حمالة الصدر التي تناسبك؟» كنت في حالة ذهول. وأجبتها مرتبكة : «أنا... لا أعلم. والدتي هي من تشترى ملابسي». فبدأ عليها الانزعاج، ونادت فتحية، وهي امرأة أخرى ضمن المجموعة التي تدور حول القذافي، ذات شخصية مثيرة. حيث كان صوتها وجسدها أشبه بالرجال، بيد أنها كانت تتمتع بنهدين ضخمين يضاهيان نهود أكثر النساء فتنة. والتي ما إن دخلت المكان حتى رمقتني بظفرة فاحصة، ثم ضربت على يدي وغمزتني. وهي تقول : «إذن هذه هي الجديدة؟ من أين أتت؟». ثم قامت بتمرير شريط المقاسات حول خصري وصدري. في حراك كنت أستشعر معه بنهديها يضربان دقتي. وعندما انتهت سجلت مع مبروكة مقاساتي وخرجن من القاطرة.

بقيت بمفردي. لا أجرو على أن أنادي أحدا. أو أن أقوم بأي حركة. وحل الخلام دون أن أفهم شيئا. ماذا سنظن أمي ؟ هل أخبروها بالتأخير ؟ ماذا سيحدث هنا ؟ وكيف سأعود إلى البيت ؟ بعد وقت طويل ظهرت مبروكة. فشعرت بالارتياح لرؤيتها. وأخذتني من يدي دون أي كلمة. وقادتني إلى زاوية فيها مختبر طبي : حيث قامت ممرضة بسحب عينة من دمي. ثم أخذتني فتحية إلى الحمام. وهي تقول لي : «انزعgi ملابسك ! شعرك كثيف يجب إزالة كل هذا!» وضعت الكريم المزيل للشعر على اليدين والساقين. ثم قامت بتمرير آلة الحلاقة. وهي تشرح لي في لغة صدمتني : «سوف نترك شعر العانة». كنت مصدومة وفومحرجة. وبما أنني كنت أبحث عن تفسير لكل هذا. قلت في نفسي : أكيد هذا الشيء من أجل التأكد من صحة

الذين يقتربون من القائد وسلامتهم. وما إن انتهت سالمة من ذلك حتى قامت بلضي في رداء الحمام. وعادت بي إلى القاعة. جلست مبروكة وسالمة : التي كانت تتمشّي سلاحها دائماً، إلى جانبي. وقالت لي : «ستساعدك على ارتداء ملابس لائقة. ونقوم بتجميلك، ثم بإمكانك الدخول لرؤية بابا معمر».

— كل هذا من أجل تحية بابا معمر ؟ لكن متى سأعود إلى أهلي ؟

— ليس الآن ! عليك أولاً تقديم التحية لسيدك.

وبالفعل ألبسوني ثياباً داخلية مثيرة : لم يسبق لي أن رأيت شيئاً من هذا القبيل. وفستاناً أبيضاً ناعماً. مفتوحاً على الجانبين ومكشوف الصدر والظهر، بينما سرحوا لي شعري ليبقى مسدولاً يتدلّى إلى الردفين. وقامت فتحية بتزييني، ثم عطرنتني. قبل أن تضيف أحمر شفاه لماع على شفتي. وهو ما لا يمكن أن تسيح والدتي لي به أبداً. عندها ألقت مبروكة نظرة متفحصة على كل هذا الذي فعلوه بي. ثم أخذتني من يدي وقادتني نحو رواق طويل. قبل أن تتوقف أمام باب مغلق. والذي فتحته دون طرق، ودفعته بي إلى الداخل.

كان القذا في ممدداً على السرير كما ولدته أمه. يا للهول ! أخضبت عياني بيدي. وتراجعت إلى الخلف، مندهشة. وأخذت أقول في نفسي : «إنه خطأ فادح ! دخولي لم يكن في الوقت المناسب ! يا إلهي !». التفت، كانت مبروكة هناك، على عتبة الباب، وجهها ثابت. «إنه بدون ملابس !»

هتست لها. وأنا في حالة ذهول تام معتقدة أنها لم تنتبه للأمر. «ادخلي!» قالت لي وهي تدفعني. عندها أخذني القذافي من يدي وأجبرني على الجلوس على السرير إلى جانبه. ولأنني لم أجراً على النظر إليه. زمجر بصوت غريب: «التفني يا قحبة!».

ورغم أنني لم أكن أعرف تماماً ما تعنيه تلك الكلمة: «قحبة». إلا أنها فيما يفترض كلمة رهيبة. وبذئثة جدا. وعلى الأرجح أنها تعني امرأة سافطة. لذا لم أحرك ساكناً. حاول أن يديرني نحوه : فقاومته بكل قواي. فهم بجذب ذراعي. وكثفي... ولكن جسدي بأسره تصلب كالحجر. هنا لملم شعري في قبضته. وأدار رأسي نحوه بعنف. وهو يزمجر في شهوة : «لا تخافي. أنا بابا. أليس هكذا تسميني؟ ولكن أنا أيضا أخوك. وحبيبك. سأكون جميع ذلك بالنسبة لك: لأنك ستبقي معي إلى الأبد». اقترب بوجهه من وجهي وشعرت بأنفاسه تلسعني. ثم أخذ يقبلني على رقبتني وعلى وجهي إلا أنني بقيت متصلبة كقطعة من خشب. حاول أن يعانقني. لكنني ابتعدت. فأعاد سحبي إليه. عندها أدت رأسي وأخذت في البكاء. وحاول مسك رأسي. فقفزت واقفة فأخذ يجرنني من ذراعي فدفعته بعيدا عني. الأمر الذي أغضبه جدا. لذلك هم بطرحي على السرير عنوة. إلا أنني أخذت أضربه وأتصارع معه بكل ما أوتيت من قوة. شهض مبتعدا وهو يزمجر غضبا.

هنيهة واندفعت مبروكة إلى داخل الحجرة. فبادرها سارخا : «هل رأيت هذه القحبة. إنها ترفض ما أريده منها! علميها! فهميها! قبل أن تعيدها إلي!». ثم اتجه نحو

حمام صغير ملحق بالغرفة. بينما اصطحبنتني مبروكة إلى المختبر. كان وجهها أبيضاً من شدة الغضب : «كبير تجرئين على فعل هذا مع سيدك ؟ مهمتك هي طاعت لا غير!». كانت تصرخ في أذني وأنا أسير قريبا منكسرة.

- أريد العودة إلى المنزل.

- لن تتحركي إلى أي مكان، مكانك هنا !

- أعيدي لي ملابسي. أريد الذهاب لأمي.

هنا صفعنتني بعنف ! وهي تقول : «عليك بالطاعة! وإيا بابا معمر سيجعلك تدفعين الثمن باهظا!». كانت صفعته قد أربكتني. فنظرت إليها في ذهول، وبدي على وجهها الملتبسة. لكنها واصلت تعنيفها : «تتصورين نفسك طفلا أيتها المنافقة. إذن لتعلمي ماذا ينتظرك ! من هنا فصاع ستصفين لنا، أنا وبابا معمر. وتحليعين الأوامر دون نقاش هل سمعت ذلك؟».

اختفت. وتركتني وحيدة. بهذا الفستان الماضج. وبه الماكياج، وشعري المبعثر على وجهي. بكيت لساعات طويلة. متكورة على نفسي كالكرة داخل الناعة. أستطيع فهم شيء مما يدور حولي، لا شيء على الإطلاق. جميع الأشياء تبدو مخدوشة الملامح. ماذا أفعل هنا ؟ ه يريدون مني؟ لعل أمي في غاية القلق. لا شك أنها اتصت بأبي في طرابلس. ربما يكون عاد إلى مدينة سرت سيعا. لأنها سمحت لي بالذهاب. فهو لم يكن متسامحا في خرو. من البيت. لكن كيف سأحدثهم عن هذه الواقعة المش مع بابا معمر؟ سيصاب أبي بالجنون. كان جسمي يهتز

بين هذا ؟

البكاء حين اقتربت مني ممرضة شقراء. لن أنت
جلست إلى جانبي وأخذت تمسح بلحظف على شـ
«ماذا حصل ؟ حدثيني» كانت لها لكنة غريبة. علمت
بعد ذلك أنها أوكرانية. كانت في خدمة العفيد، وتدعى
«غالينا». لم أستطع إخبارها بأي شيء. لكنها خمنت ما
كان. وشعرت بغضبها واستيائها. كانت تردد وهي تمسح
على وجهي : «كيف يمكن فعل هذا بفتاة صغيرة ؟ كيف
يجرؤون؟».

*

انتهى بي الأمر إلى النوم. أبقتني مبروكة في صباح
اليوم التالي على الساعة التاسعة صباحا تقريبا. وناولتني
بدلة رياضية أعادت لي الأمل. «هل سأعود إلى البيت
الآن؟»

قلت لك كلا ! هل أنت صماء ؟ لقد شرحنا لك
بوضوح أن حياتك الماضية انتهت. ونحن أخبرنا عائلتك
بالأمر. وهم قد تفهموا ذلك جيدا!!

- اتصلتم بعائلتي؟

كنت مصدومة شربت الشاي مع قليل من البسكويت.
نظرت حولي. كان هناك عدد كبير من الفتيات في الزي
العسكري. يدخلن ويخرجن ويرمقنني بنظرات غريبة -
«هذا الشيء، هذه هي الجديدة؟» - يذكُرُ القائد. يبدو أنه
مشغول تحت إحدى الحيام. اقتربت مني سالمة. وأخذت
تشدد: «سأقول لك الأمور بوضوح: معمر سيضاجعك.
سيقوم بنقض بكارتك. ستكونين ملكا له ولن تشارفيه أبدا.

ولهذا كفاك عنادا. لا مكان لدينا للمقاومة والدلال!»،
التحقت بنا فتحية ذات القوام الضخم، والتي أدارت جهاز
التلفزيون. وهمست في أذني : «اتركي الأمر يسير ببساطة.
لو قبلت ستنتهي الأمور على أحسن ما يرام. عليك فقط
الطاعة والاستجابة للأوامر». بكيت كثيرا. أنا سجينه إذن.
ما الخطأ الذي كنت قد افترفته ؟

حوالي الساعة الواحدة ظهرا، جاءت فتحية لتلبسني
فستانا أزرقا من الحرير، قصيرا جدا. هو في الحقيقة أشبه
بقميص النوم. وأخذتني للحمام لتبلل شعري بالماء، ثم
باستعمال رغوة خاصة أخذت تبعثر خصلاته. وعندما
جاءت ميروكة : ألقت نظرة فاحصة على شكلي، ثم
أمسكت يدي بقوة وأخذتني إلى غرفة القذافي. «هذه
المرة، سترضي رغبات سيدك. وإلا سأقتلك!»، قالت لي
مهددة. ثم فتحت الباب ودفعتني إلى الداخل. كان القذافي
هناك جالسا على السرير، يرتدي سروالا رياضيا وقميصا
داخليا. بدخن سيجارة وينفث الدخان في الهواء ببطء،
وأخذ يحدجني بنظرات باردة. قبل أن يقول : «أنت قحبة.
والدتك تونسية، فأنت إذن قحبة». كان يتأملني بهدوء من
رأسي إلى أخمص قدمي ثم من قدمي إلى رأسي. وينفث
الدخان في اتجاهي. ثم قال : «إجلسي بجانبني» مشيرا
إلى مكان على السرير. ثم بدأ يساومني : «إذا لببت كل
ما أشتهيه منك، سأحقق لك كل ما تريد. وسأهدي
لك المجوهرات، وأعطيك منزلا فخما، وسوف أجعلك
تتعلمين قيادة السيارة، وأشتري لك سيارة. وسيكون
بإمكانك السفر إلى الخارج لإتمام دراستك إن كنت ترغبين.

سأصطحبك بنفسى إلى أي مكان تريد. أندركين هذا ؟
 رغباتك ستكون أوامرا!!».

— أريد العودة إلى أمي. قلت له.

تجمد في مكانه. سحق سيجارته وأخذ يرفع عقيرته:
 «أنصتي لي جيدا ! انتهى هذا. أسمعين ؟ انتهت قصة
 عودتك للبيت. الآن أنت معي! انسي كل شيء آخر!»

كنت لا أكاد أصدق ما يقول. كان الأمر خارج أي فهم.
 سحبني نحو السرير وأخذ بعض ذراعي. كان ذلك مؤلما.
 ثم حاول نزع ملابسى. كنت أشعر أنني شبه عارية في
 هذا القبيح الأزرق. كان الأمر فضيحا. لا يمكن أن أتركه
 يفعل ذلك. قاومت. تمسكت بالحملات. «انزعي هذا.
 أينها العاهرة القذرة !». أمسك بذراعي فانتصبت واقفة.
 أمسكني وألقاني فوق السرير. قاومته بشدة. وقف غاضبا.
 واختفى داخل الحمام. جاءت مبروكة فورا «فهمت بعد
 ذلك أن هناك جرسا بجانب السرير يستعمله لمناداتها».
 فقال لها غاضبا :

— إنها المرة الأولى. التي تقاومني فتاة بهذا الشكل!
 إنه خطأك! قلت لك أن تعلميها! تصرفي. وإلا سندفعين
 الثمن!

— سيدي. اترك عنك هذه الفتاة ! إنها عنيدة ! دعنا
 نرمي بها عند أمها ونأتي لك بأخريات.

— أعدي لي هذه. أنتي أريدها هي.

قادتني مبروكة إلى غرفة المختبر، وبقيت هناك في
الظلام الدامس. نسلمت غالبنا للحظة ومدت لي بلحاف
وهي تبتسم في شفقة. ولكن كيف يمكنني النوم؟ كنت
أعيد المشهد ولا أجد أي تفسير لما يحدث لي. ما عساه
قالوا لأهلي؟ أكيد أنهم لم يخبروهم بالحقيقة، مستحيل.
ولكن ماذا بعد؟ والدي يرفض أن أذهب إلى منزل
الجيران. وكان علي دائما أن أكون في البيت قبل حلول
الظلام. ماذا سيعتقد؟ ماذا سيتصور؟ هل سيصدقوني
يوما؟ كيف فسروا غيابي عن المدرسة؟... لم يغمض لي
جفن طوال الليل. عند الفجر. حين بدأت أنهار. جاءت
مبروكة. وأخذت تنهرني: «هيا، استيقظي! إليسي هذا
الذي العسكري. سوف نرحل نحو سرت». يا الله. تنفست
الصعداء! وصرخت في سعادة: «إذن سأذهب إلى أمي؟»،
لكنها أجابت في فتور:

— لا! سنذهب إلى مكان آخر!

على الأقل، سنترك هذا المكان الرهيب، القابع وسط
المجهول. ونقترب أكثر من البيت. أسرع لأغتسل قليلا
ثم وضعت الزي العسكري البني. كان يشبه زي الحارسات
الشخصيات للفضائي. والتحققت بالقاعة حيث وجدت خمس
فتيات يرتدين الزي نفسه. ويشاهدن التلفزيون في اهتمام.
كن يحملن هواتف جواله وكنت أتوق رغبة لأطلب منهن
أن يسمحوا لي بمكالمة والدي. لكن مبروكة كانت تراقب.
والجو لم يكن حميما. وسرعان ما أخذت المقطورة حيث
كنا بالتحرك. فسلمت أمري لله. فأنا منذ مدة فقدت
السيطرة على كل شيء.

بعد حوالي ساعة من السفر، توقفت عربة الكارافان. وقاموا بإتزالنا وإعادة توزيعنا على سيارات مختلفة. أربعة في كل سيارة. في تلك اللحظة فقط أدركت أننا نشكل قافلة وكان هناك الكثير من الجنديات. أو بالأحرى عندما أقول جنديات... لنقل يُعطى الانطباع بأنهن من الجنود. أغلبهن لبس لهن شارات ولا أسلحة. قلت في نفسي ربما كنّ عسكريات مثلي. على كل حال كنت أصغرهن سناً. مما جعل بعضهن يلتفتن نحوي مبتسمات. كنت قد بلغت للتو الخامسة عشرة من عمري. وحدث بعد ذلك أن صادفت فتيات لم يتجاوزن الثانية عشرة.

في مدينة سرت، دلفت القافلة داخل كنيبة الساعدي، المعسكر الذي يحمل اسم أحد أبناء الفدافي. حيث تم توزيعنا بسرعة على الغرف؛ وأدركت أنني أتقاسم غرفتي مع فريدة. إحدى الحارسات الشخصيات للفدافي، في الثالثة والعشرين أو الرابعة والعشرين على الأكثر. وضعت سألماً حقيبة على سريري. وصرخت مصفقة بيديها : «هيا، تحركي! اذهبي واستحمي!». «وارتدي ثوب النوم الأزرق!». ولما انصرفت نظرت إلى فريدة وسألتها : «ما هذا السيرك؟ هل بإمكانك أن تفسري لي ماذا أفعل هنا؟».

— لا أستطيع أن أقول لك أي شيء. أنا جنديّة. أنفذ الأوامر دون نقاش. افعلي مثلي.

انتهيت المناقشة. كنت أنظر إليها وهي ترتب ملابسها بعناية فائقة، وأنا عاجزة على اتخاذ قرار، والقيام بالشيء نفسه. لم أكن لأقوى خاصة على ارتداء تلك الملابس التي

وجدتها داخل الحفوية. مجموعة منشابكة من السترين
وحملات الصدر، وأقمصة نوم. ثم برنس الاستحمام... غير
أن سالمة ميلاد سرعان ما ستعود إلي وهي تعنفني : « قلبي
لك بأن تسعدني! سيدك ينتظرك! ». ولم تتحرك من جوار
حتى ارتدبت قميص النوم الأزرق. وألزمته بالصعود معي
إلى الطابق العلوي. عندها طلبت مني أن أنتظر في الممر
بعد هنيهة جاءت مبروكة في مزاج سوداوي، ودفعته بقوة
إلى داخل الغرفة. وأغلقت الباب خلف ظهري.

في الداخل. كان القذا في عاريا ممتددا على سرير كبير
مغطى بشراشيف بنية اللون، يتوسط غرفة بدون نوافذ
ومطلية بنفس اللون البني الباهت، الأمر الذي جعله يبدو
وكأنه مدفون في الرمال. اللون الأزرق لفميصي كان خارج
النسق. « تعالي هنا. يا قحبة » : قال لي فاتحا ذراعيه.
وواصل : « تعالي. لا تخافي! ». أخاف؟ لقد تجاوزت حدود
الخوف. إنني ذاهبة إلى المسلخ. ووددت لو أطلقت ساقبي
للريح هاربة، لكنني كنت أعلم أن مبروكة تترصدني بألف
فخ خلف الباب. فتسمرت مكاني دون أدنى حركة. عندها
قفز واقفا، وبقوة فاجأتني، التفت ذراعي وألقاني على
السري : قبل أن يتمدد فوقي. حاولت إبعاده، لكنني لم
أفلح كان ثقبلا جدا. أخذ يعض رقبتني ووجنتي ويلتهم
ثديي. كنت أقاوم وأنا أصرخ. لكنه كان يزمجر مبهدا : « لا
تتحركي، أيتها الفاجرة القذرة! ». وأخذ يضربني، ويسحق
ثديي. ثم رفع فميصي وثبت ذراعي. واغتنصبني بوحشية.

لن أنسى ذلك أبدا فلبس فقط إنه دنس جسمي في
تلك اللحظة، بل هو في الحقيقة، قد اخترق روحي وطلعنيتها

بختنجر. هذا الذي لا زال نصله متفرسا في أم قلبي حتى اليوم. كنت محطمة. لا أملك أي قوة حتى لأتحرك أو أترجح من مكاني. كنت فقط أبكي. واعتدل هو ليأخذ متديلا أحمر ملفى بقربه. وقام بتمريره بين فخذي. واختفى في غرفة الحمام. سيتبين لي فيما بعد : أن ذلك الدم كان ثميناً لطقوس السحر التي كان يقيمها.

كانت جروحي شنيعة حتى أنني بقيت أنزف لمدة ثلاثة أيام. وأخبرتني غالينا الأوكرانية التي كانت تأتي للسهر علي وإسعافي : وهي تمسح على جبيتي في حنان، إن سبب هذا النزيف هو جرح داخلي عميق. وكمن سلم أمره لله. خلدت من طرفي للصمت. فلم أذمر. ولم أعد أطرح أي سؤال. لكن غالينا لم تحتمل ما جرى وأخذت في تعنيف مبروكة عندما أخذتني إليها : «كيف تستطيعون أن تفعلوا هذا بطفلة ؟ هذا رهيب!».

لكن مبروكة لم تكثر لأمري. وبقيت ثلاثة أيام على تلك الحال. لا أكاد أقرب من الأكل الذي يقدمونه لي في غرفتي. كنت ميتة — حية. بينما تجاهلتي فريدة التي ألقاسم معها الحجرة تماما.

في اليوم الرابع. جاءت سائلة لأصلحاي : قالت لي إن السيد يطلبني. ومبروكة من جديد هي التي أدخلتني إلى غرفته. وأعاد الكرة. مستعملا العنف نفسه. والكلمات النابية نفسها. ونزفت من جديد كثيرا. هنا هبت غالينا في وجه مبروكة وهي تحذرها : «لا تعيدوا لمسها! الأمر خطير هذه المرة».

في اليوم الخامس. قادوني في الصباح الباكر إلى غرفة
كان يتناول الإفطار : ثوم وعصير البطيخ. وبسكويت منقوشة
في الشاي بحليب النافقة. فوضع شريطا في آلة تسجيل
قديمة. أغاني بدوية قديمة. وأخذ يهتف : «هيا. ارقصي
قحبة! ارقصي!» : ترددت. لكنه أصر : «هيا! هيا!» : كان
يصفق بيديه. رسمت حركة أولى ثم واصلت على استحياء
الصوت كان مروعاً. الأغاني سخيفة. وكان هو يرمقني
بنظرائه الفاسقة. النسوة يدخلن للقيام على خدمته أو
للهمس في أذنه غير مباليات بوجودي. «واصلي. يا قحبة!»
كان يصرخ بدون أن يبعد بصره عني. وحتى انتصب
قضيبي. عندها نهض من مكانه وأمسك بي. أخذ يضرب
على فخذي. ويقول : «إنها وقحة!» . ثم انقض علي. وفي
نفس الليلة. أجبرني على التدخين. شرح لي إن حركات
النساء وهي تستنشق السجائر : تشير على نحو خاص. لم
أكن أرغب في التدخين. لكنه أشعل سيجارة ووضعها في
فمي. وأخذ يأمرني : «استنشقي! ابتلعي الدخان! ابتلعي!».
أخذت أسعل. وكان هذا مثيراً لضحكه. «هيا ! واحدة
أخرى!».

في اليوم السادس. استقبلني بالويسكي. «حان الوقت
لتتعلمي الشرب. يا قحبة» : قال لي وهو يمد لي بكأس
مترعة. كان من نوع «بلاك لا بال». فارورة بخط أسود
أعرف عليها في أي مكان. وكان ذهولي على أشده : لأنني
كنت أسمع أن القرآن يحرم شرب الخمر. وإن القذا في رجل
متدين جدا. ففي المدرسة وفي التلفزيون. كانوا يعتبرونه
أكبر المدافعين عن الإسلام. وكان يستشهد دائما بالآيات

القرآنية، وبقيم الصلاة أمام الحشود، ولكن أن أراه هكذا يشرب الخمر كان أمرا لا يُصدق. لا تتصوروا وقع الصدمة. والشخص الذي ما فتىء الإعلام يقدمه للعالم على أنه «أب» اللبيين، والمدافع عن القانون، والعدالة، والذي يسك بين يديه بزمam السلطة المطلقة، يقوم إذا بانتهاك جميع القواعد التي ينادي بها. وإن كل الذي كان يدعيه مجرد خداع؟ كل ما علمه لي أساتذتي كل ما يعتقده والداي. يا الله! أقول في نفسي. لو يعلمون! عاود بحثني على احتساء الكأس: «اشربي. يا فحبة!». وأمام نظراته المهددة غمست شفتاي في الشراب. وأحسست بالوسكي بلسع حلقي كاللهيب، ولم أستسغ على الإطلاق طعمه.

- «هيا اشربي! إنه دواء!»، قال لي.

في الليلة نفسها، تحركت بنا القافلة نحو طرابلس. عشرات السيارات. والمقطورة الكبيرة وشاحنة ممتلئة بالمعدات وخاصة الخيام. وقد ارتدت جميع الفتيات من جديد الزي العسكري. وفي الوقت الذي عمه الارتياح الفتيات لخير العودة للعاصمة، كنت أنا في منتهى البؤس والبأس. فأن تترك سرت: يعني أن أبتعد أكثر عن أهلي، وأن يتبخر كل أمل لي في العودة إلى البيت.

وأخذت أتخيل بعض السيناريوهات للفرار. لكن لم يكن لذلك أي معنى. فهل يوجد مكان واحد، في ليبيا، لا تطوله أعين القذافي؟ لقد تمكن من زرع الشرطة، والميليشيات، والجواسيس في كل مكان. بل حتى الجيران صاروا يراقبون جيرانهم. وكانت بعض الوشائيات تأتي من داخل العائلة

نفسها. وأدركت فجأة أنني سجينته. وألقيت تحت رجلي
فأخذت في البكاء في صمت. لاحظت الفتاة التي
تجلس بقربي دموعي. فقالت لي بحنان : «أوه يا صغير
علمت أنهم أخذوك من المدرسة...». لم أجيبها. كنت
من خلال النافذة إلى سرت وهي تبتعد، وكنت عاجز
الكلام. «أوه لا بأس ! صرخت فتاة أخرى كانت جالسة
جانب السائق، إننا جميعنا في القارب نفسه!»

باب العزيزية

«آه ! ها نحن أخيرا في طرابلس !» : قالت الفتاة التي بجاني، وقد غمرتها سعادة كبيرة لرؤية أول منازل المدينة. الأمر الذي جعلني أشعر بالاطمئنان قليلا. «سمعت من سرت !» : أضافت فتاة أخرى. لم أكن أدري ماذا كان علي أن أستنتج من هذه التعليقات. لكنني كنت أسجل كل شيء. كنت شديدة التركيز وحريصة على النقاط جميع المعلومات.

استغرقت الرحلة حتى تلك اللحظة أربع ساعات تقريبا. رغم أن السيارات كانت تسير بسرعة فائقة، تنشر الرعب بين بقية السيارات. وبين المارة الذين كانوا يسارعون بالتسحي للسماح لقافلتنا بالمرور. ولم نصل المدينة إلا وقد أسدل الظلام عليها بأستاره؛ على النحو الذي تبدت لي من بعيد وكأنها كتلة متشابكة من الطرقات، والأبراج والأضواء. فجأة، خفض الرتل السرعة، وأخذت السيارات

في عبور بوابة ضخمة تتصدر أسوار قلعة رهيبة التحصين وهي تخترق صفوف الحرس المدججين بالسلاح، والذين انتصبوا لأداء التحية العسكرية للركب. كان الموقف رهيباً لكن استرخاء الفتيات داخل السيارة، أشعرتني بأن الأمر لا يعني بالنسبة لهن أكثر من الولوج للمكان الذي يعشن فيه حيث قالت لي إحداهن ببساطة : «هذا باب العزيزية».

كنت أعرف الاسم بطبيعة الحال، فمن في ليبيا، لا يعرف باب العزيزية ؟ عنوان السلطة بامتنياز، ورمز الحكم والقوة المطلقة : مقر إقامة العقيد القذافي المنيع. ورغم أن الاسم في ذاته لا يعني أكثر من نقطة تقاطع طرابلس بالعزيزة : وهي المنطقة التي تمتد غرب طرابلس : ولكن في عقول الليبيين تحول بالأحرى إلى الاسم المرادف لكلمة «رعب». كان أبي قد أراني مرة هذه البوابة الضخمة والتي كانت تعلوها صورة عملاقة «للقائد»، كنا أرائنا السور الطويل الممتد لعدة كيلومترات. لم يحدث أن تجر أحد المواطنين على السير جنب الجدار. وإن فعل يترتب توقيفه بتهمة التجسس وبطلقون عليه النار لأقل حركة مريبة، ويروى أن سائق أجرة مسكين توقف عن غير قصد لتغيير عجلة سيارته، فقاموا بتفجير السيارة بكاملها وعللوا القوم. إي والله، إن الرجل قد لاقى حتفه قبل أن يرقى حتى بفتح الصندوق لإخراج عجلة الاحتياط، وتم يومه قطع خطوط الهواتف المحمولة في جميع أنحاء المنطقة

وما إن عبر الرتل البوابة الرئيسية، حتى دخل في منطقة بدت لي شاسعة جداً. وأخذت السيارات في اجتياز صفوف من المباني المترصة، تتخللها فتحات صغيرة وضيقة

في شكل نوافذ. أظنها مساكن للجنود. ومروج ونخيل
وخدائق وإبل. وبنائات بسيطة. وبعض الغلل المعششة بين
الأشجار. ولكن أيضا عددا لا يحصى من البوابات الأمنية؛
تتلو الواحدة الأخرى. كانت تجبر الرتل على الدوران عبر
جدران عالية متقابلة الوضعية، ومتتالية... في الواقع أنا لم
أفهم هندسة تركيبها بشكل محدد... كانت تبدو كحصون
مُضافة لحماية القلعة.

بعد فترة توقفت السيارة التي كانت نقلنا أمام مبنى
ضخم. وفُضرت مبروكة على الفور. وأخذت تتصرف وكأنها
سيدة المكان. وقالت لي في لهجة أمرية: «ادخلي! وأسرعني
بوضع أمتعتك في غرفتك». تبعنا الفتيات اللاتي اتخذن
طريقهن عبر ممشى منحدر من الإسمنت. ينتهي إلى عدد
من الدرجات التي تهبط باتجاه القبو. حيث يقابلنا جهاز
كشف المعادن.

لعل أول ما صعقني في هذا المناخ الغريب، هو تلك
الرطوبة العالية التي كانت تعبق في الجو. وعصف الإحساس
الثقل بأننا تحت الأرض؛ في قبو المكان. هنا أشارت لي
آمال. الفتاة التي كانت إلى جوارني في السيارة، باتجاه غرفة
بدون نافذة. وهي تشدد: «تلك هي غرفتك». دفعت
الباب في صمت. وأخذت أجول بيصري في المكان. ثمة مرآة
تغطي الجدران بطريقة لا يملك معها المرء الفرار من
صورته. وكذلك سريران صغيران يحتلان زاويتي الغرفة
وملاولة صغيرة. وتلفزيون صغير جدا. على أن الحمام كان
مرفقا مباشرة بالغرفة. فسارعت بنزع ملابسي والوقوف
تحت دفق الماء. قبل أن آوي لفراشي في محاولة للنوم. غير

أن النوم قد إستحال في تلك الليلة. وقد جفاني النعاس
تماما. فقامت بتشغيل التلفزيون. وأخذت في البكاء وال
أستمع إلى بعض الأغاني المصرية.

في قلب ذلك الليل الحزين. فوجئت بآمال وهي تدخل
لغرفتي. وهي تلوح لي بقميص نوم من الساتان الأحمر.
وأخذت تتمتم : «هيا بسرعة ارتدي هذا ! سنصعد كلنا
إلى الفاند». بدأت لي آمال في تلك اللحظة غاية في الجمال
كانت ترتدي سروالا قصيرا. وصدريه من الساتان الرطب.
تنساب إلى قوامها الخلاب في سحر استثنائي....تلك الفتنة
أبهرتني أنا نفسي.

دون أن أنبس بينت شقة. ارتديت القميص الأخير
كما أمروني. وتبعتها لصعود سلالم صغيرة. لم ألاحظ
وجودها من قبل. كانت على يمين الغرفة. لنجد أنفسنا
أمام «مكتب» الفاند. كان عبارة عن حجرة واسعة : تقع
مباشرة فوق غرفتي. تغطي مرآة عاكسة مساحة من
جدرانها. وينوسطها سرير ضخم تعلوه مظلة محاطة
بستار من القماش الأحمر المشبك. مثل أسرة سلاطين
ألف ليلة وليلة. كما يوجد بالغرفة طاولة مستديرة. وعدد
من الرفوف حيث رُكنت بعض الكتب. وأقراص الليزر
وقنيات من العطور الشرقية : التي كثيرا ما كان يضع
منها على رقبته. كما يوجد بالحجرة مكتب يعلوه جهاز
كمبيوتر كبير. وقبالة السرير يوجد باب يُفتح بالجر علو
سكة أرضية. والذي يفصل بين الغرفة وحمام الجاكوزي
الضخم. آه. لقد كدت أنسى ! إلى جانب المكتب. هناك زاوية
صغيرة مخصصة للصلاة. كان يحتفظ فيها بمجموعة من

الطباعات النادرة للمصحف الشريف. أذكر هذا لأن ذلك أزعجني يومها. ولأنني لم أر القذا في يصلي. أبدا. باستثناء مرة واحدة في إفريقيا. لما كان عليه أن يؤم صلاة شعبية. كلما أتذكر ذلك: أقول في نفسي : «يا لها من مسرحية!».

عندما دخلنا. وجدنا القذا في جالسا على السرير في بذلة رياضية حمراء. «آه ! صرخ وهو يهتز. تعالى للرقص. عاهراتي ! هيا ! هوب ! هوب!». وضع الشريط القديم نفسه في آلة التسجيل. وأخذ يضرب بأصابعه وهو يتمايل قليلا. «عيونك جسارة....» : كم مرة سمعت هذه الأغنية المثيرة للسخرية !؟. فهو لا يمل على الإطلاق من الاستماع إليها. سارعت آمال في الانصياع للأوامر. والانغماس بكل كيائها في اللعبة. كنت أكاد لا أصدق ما أرى. حيث أخذت نرسل نحوه بغمزاتها المثيرة. وهي تتمايل. وتهز ردفها. وتديها. وتغمض عينيها. وترفع شعرها ببطء ثم تجعله ينساقط. وتدور. أو تلقي برأسها إلى الخلف. أما أنا فكنت متأهبة. جامدة كالعصا. أراقب ما يدور بنظرات عدائية. اقتربت مني آمال وهي تحثني على مشاركته الرقص. وأخذت تحك وركي. ونجعل فخذها ينزلق بين فخذي. لتتناسق حركاتنا. كان «الفائد» يصرخ : «أوه... نعم... يا قحيات!».

بعد هنيئة. نزع ملابسها. وأشار لي بمواصلة الرقص. بينما دعا آمال للمجيء نحوه. اقتربت منه. وهوت دون تردد لناخذ قضيبه في فمها. مصعوقة لهول ما أرى. طلبت برجاء. وأنا لا أكاد أصدق المشهد أمامي : «هل أذهب الآن؟»

«لا، تعالي هنا يا قحبة!»

سحبني من شعري. وأجبرني على الجلوس جواره، وأخذ يقبلني. أو بالأحرى بِلْتهم وجهي. بينما كانت آمال تواصل ما كانت عليه. ثم قال لي. وهو لا يزال ممسكا بشعري. «انظري. وتعلمي ما تفعله آمال. أريدك أن تقومي بالنشيء نفسه لاحقاً».

بعد لحظات. أمر آمال بالمغادرة. وطلب منها غلق الباب خلفها. ثم ارتمت فوقي. واستغرق يسحقني لمدة طويلة. كانت مبروكة تدخل وتخرج متجاهلة ما يدور. تبلغه الرسائل «ليلي الطرابلسي تريدك أن تتصل بها» أو «فلان يريد هذا أو ذاك...»، غير أنها قصدته في لحظة من اللحظات وهي تأمره : «كفى الآن. لديك أشياء أخرى تقوم بها». كنت في غاية الدهشة. كيف يمكن لها أن تخاطبه بهذه الطريقة ؟. أظن في الواقع أنه كان يخافها. وبالفعل توقف عن العصف بي. وانجه نحو غرفة الاستحمام.

غطس في الجاكوزي بالكاد. وصرخ في وجهي : «ناوليني المنشف». كانت المناشف في متناول يده. لكنه كان يريدني أن أخدمه. وواصل الأوامر : «عطري لي ظهري». ثم أشار إلى جرس صغير بجانب آلة التسجيل في طرف السرير. وطلب مني أن أضغط عليه. وما أن فعلت حتى ظهرت مبروكة بسرعة البرق. فقال لها :

- «أعطي الأفلام الضرورية لهذه (القحبة) الصغيرة لتتعلم وظيفتها!»

جاءت سألمة ميلاد إلى غرفتي بعد خمس دقائق، تحمل بين يديها جهازا لعرض الأقراص الليزرية، كانت قد أخذته من إحدى المتيمات، وكومة من أقراص الليزر. وقالت لي: «امسكي، هذه بعض الأفلام الإباحية. شاهديها بعناية وتعلمي! سيكون سيدك غاضبا إن لم تجتهدي في تنمية قدراتك. اعنبريها واجباتك المدرسية!«.

يا إلهي. المدرسة... كم صار ذاك بعيدا. أخذت حماما باردا، وخرجت لأجد آمال بغرفتي. كان قد مضى علي قراءة أسبوع دون أن انبادل اطراف الكلام مع أي مخلوق. ولم أعد أحتمل الخوف والوحدة. فسررت بالحديث إليها. وسألتها: «آمال لست أدري ماذا أفعل هنا؟ هذه ليست حياتي. إن ما يدور هنا غير طبيعي. وأنا أفترق والدني كثيرا. هل بإمكانني الاتصال بها بالهاتف على الأقل؟»

- «سأحدث مبروكة في الأمر». أجابتنني في اقتضاب.

ولعلني خلدت إلى النوم وأنا أحادثها. فلقد كنت منهكة جدا. إلا أنني سرعان ما ساستيقظ على صوت طرقات عنيفة على الباب. دخلت بعدها سألمة بقوة للغرفة. وهي تقول: «اصعدي كما أنت! بسرعة! سيدك يريد رؤيتك!». كانت الساعة الثامنة صباحا. إي أنني لم أتم إلا ساعات قليلة الظاهر إن القذا في قد استيقظ للتو، حيث كان لا يزال في السرير. أشعت الشعر. وعندما رأني: انزاح قليلا وقال لي: «نعالي في سريرتي، يا قحبة!». وأمام ترددي دفعتني سألمة بقوة تجاه السرير. عندها قال لها: «وأنت قدمي لنا فطور الصباح في السرير».

نزع ملابسي الرياضية التي كنت أرنديها للنوم بعنف
وقفز فوقى بوحشية، وهو يحدثني : «هل شاهدت الأفلام
يا قحبة ؟ يجب أن تكوني قد أتقنت هذا الآن!». وأخذ
ينتفض، وينهش بأسنانه أجزاء جسدي. قبل أن يقو
باغتصابي من جديد. وما إن قضى وطره حتى انتصب
وتوجه لياكل حفنة من حبات الثوم النيء : التي تعود على
أكلها على الريق كل صباح. وهو الأمر الذي كان يجعل من
رائحة فمه كريهة جدا.

- «اغربي عن وجهي الآن. يا قحبة» قال لي ودون
أن يدور بوجهه تجاهي. فخرجت منكسرة لأصطدم عند
الباب. بفالينا وممرضتين أوكراينيتين أخرتين في طريقهن
للدخول إلى غرفة القذافي. لقد أدركت ذاك الصباح أنني
أتعامل مع مجنون. لكن من يعلم بهذه الحقيقة ؟ والدي
أمي ؟ الليبيون...؟ في الواقع إن العالم بأسره يجهل ما
يحدث خلف أسوار باب العزيزية. الجميع مرعوب من
القذافي. لا أحد يستطيع مقاومته أو انتقاده. لأن عقاب
ذلك يكون السجن أو الإعدام. في الواقع هو مرعب حقا.
حتى ونحن نناديه بابا معمر. ونغنى النشيد الوطني أمام
صورته: كنا نجده مرعبا. انظروا ماذا فعل بي... كان الأمر
مهينا. ومقرفا. وغير قابل للتصديق. بلى. شيء لا يصدق! لن
يصدقني أحدا لن أنكز أبدا من رواية قصتي. فهو معمر
القذافي: ورغم إنه قد دنس شرقي. إلا أنهم سيتهمونني أنا
بالمجنون لو يُحت بما يفعله معي.

كنت أردد هذه الأفكار. حين أطلت آمال برأسها عبر باب غرفتي. وهي تقول : «هيا. لا تبقي بمفردك، تعالي معي أفرجك على المكان!». فتبعتها على الفور. حيث ملكننا الممر. ثم صعدنا السلالم لينتهي بنا المطاف، وسط مطبخ كبير. مجهز تجهيزا جيدا. علفت على أحد جدرائه صورة كبيرة لشابة سمراء. تكبرني بقليل. قدمتها لي آمال على أنها هناء الفدافي. الابنة بالتبني للعقيد. في الواقع لم عرف إلا مؤخرا أن خبر موتها الذي شاع سنة 1986 إثر لقصف الأمريكي على طرابلس بقرار من ريغن. كان كاذبا. يظل أمر كونها على قيد الحياة سرا من أسرار الدولة. رغم إن الجميع في باب العزيزية يعرفون الخبر. فالطفلة ليست فقط أنها لازالت على قيد الحياة. بل إنها كانت الابنة المفضلة للفدافي. أعدت آمال القهوة ثم أخرجت من جيبها هاتفا محمولا صغيرا. صغقت من الدهشة. وسألتها في تعجب : «كيف حصلت على هذا الهاتف؟». فأجابتنني في نبرة صاحب الامتياز :

«يجب أن تعرفي يا صغيرتي ! أنني أعيش خلف هذه الجدران منذ أكثر من عشرة سنوات!».

في الطرف الآخر من المطبخ كان هناك فضاء ملحق؛ أشبه بصالة كافنيريا. هي التي أخذت تمتلئ شيئا فشيئا بالبنات : اللاتي كن جميعهن غاية في الجمال. والأناقة والمكياج الخلاب. وكان بصحبة الفتيات شايان لا غير. ينقلدان بطاقة فريق البروتوكول. وأمام تصاعد الصخب والتهيهات التي أخذ رنينها بملأ المكان : سألتُ آمال : «من هؤلاء؟».

- «ضيوف القذاقي». أجابتنني في لا مبالة، وأضافت
«دائما لدى معمر ضيوف، ولكن أرجوك حاولي ألا تكوني
فضولية، وكفي عن طرح الأسئلة!».

سرعان ما ضج المكان بالحركة، وأخذت الممرضات
الأوكرانيات، سواء اللاتي يرتدين السترة البيضاء، أو
«الجيليه» الأزرق الفيروزي، تدخلن وتخرجن على قدم
وساق، قلت في نفسي : «لا بد أن تمر «الضيافات» جميعهن
باختبار فحص الدم»، ولأن آمال اختفت من جواربي، فضلت
أن أعود إلى غرفتي. فماذا عساي أن أقول لتلك الفتيات
اللاتي يكدن يطرن من الفرح لمجرد فكرة ملاقة القائد؟
هل أقول لهن أخرجوني من هنا ؟ أنني لو فعلت، وقبل
أن أباشر سرد قصتي، سأجد نفسي مقيدة بالسلاسل، في
حفرة لا قرار لها.

كنت مستلقية على السرير حين دفعت مبروكة الباب،
(في الواقع أنا منعت من إغلاقه بشكل كامل)، وقالت
لي: «يجب أن تشاهدي الأفلام التي قدمناها لك ! هذا
أمر!»، وتناولت أحد الأفلام ووضعت، في الجهاز، دون أن
تكون لدي أدنى فكرة عن محتواه، لقد كانت تلك المرة
الأولى التي أطل فيها هكذا على عالم الجنس. فقد كان
هذا العالم مجهولا تماما بالنسبة لي. لذلك كنت مشمزة
وعاجزة تماما عن متابعة المشاهد. فخلدت سريعا إلى
النوم. وحتى أيقظنني آمال صباح اليوم التالي. وهي تقول:
«لنذهب للفطور بالمطبخ»، على إن ما يصعب تصديقه
بهذا الصدد : هو تدني مستوى الخدمات في بيت الرئيس
الليبي! فقد كانوا يقدمون لنا الأكل في أواني من المعدن

الأبيض، وكان الطعام مقززا. استغرابي آثار ابتسامة آمال التي عرضت علي عند خروجنا من المطبخ زيارة غرفتها. هناك فاجأتنا مبروكة : وصرخت بنا قائلة : «كل واحدة في غرفتها ! آمال أنت تعلمين جيدا أنه غير مسموح بتبادل الزيارات ! فلا تكرري هذا مرة أخرى أبدا!».

في منتصف الليل، جاءت الرئيسة (مبروكة) لاصطحابي. وهي تصرخ في وجهي : «سيدك يطلبك». وما إن صعدنا حتى فتحت باب غرفته. ورمت بي نحوه. في هذه الليلة لم يأمرني بالرقص فقط. بل هو أمرني أيضا بأن أدخن الحشيش. ثم استخدم بطاقة صغيرة لتجميع مسحوق أبيض ناعم جدا تبين لي فيما بعد أنه الكوكايين. وأخذ ورقة رقيقة. لفها في شكل قرن ليستنشق عبرها ذلك المسحوق. ثم قال لي : «هيا. افعلي مثلي ! شمي يا فحبة ! هيا استنشقي : سترين النتيجة!».

وما أن فعلت؛ حتى أخذت أشعر باحترق شديد في الحلق والأنف والعينين. وانتابني سعال حاد، وغثيان صاعق. فقال لي : «لأنك لم تستنشقي بما فيه الكفاية!». وهم بترطيب سيجارة بلعابه، وغمسها في مسحوق الكوكايين. ثم أخذ يدخلونها ببطء، ويجبرني على التدخين معه. على استنشاق وابتلاع الدخان. ورغم أنني كنت واعية لما يدور. إلا أنني كنت أشعر أنني أفقد كل قواي. ثم قال لي : «ارقصي الآن!».

أخذ رأسي في الدوران. لم أعد أدري أين أنا. أصبحت كل الأشياء حولي غير واضحة وضبابية. ووقف هو يصفق

قصة ثريا

بيديه ليرسم الإيقاعات، ثم وضع السيجارة في فمي مرة أخرى. عندها انهرت شبه فاقدة للوعي على الأرض فما كان منه إلا أن اعتلاني، واغتصبي في وحشية، وكرر ذلك مرة أخرى وأخرى. كان متهيجا وعنيفا. ثم توقف فجأة، ووضع النظارات والتقط كتاب لبضع دقائق ثم عاد نحوي، عضني، سحق ثديي، واغتصبي من جديد، ثم توجه نحو حاسوبه ليتفحص رسائله الإلكترونية، وليقول شيئا لمبروكة. ثم عاد ليهاجمني مرة أخرى. عندها أخذت أنزف بشدة. إلا أنه لم يرحمني، وحتى حوالي الخامسة صباحا قال لي عندها، وهو يطردني من غرفته: «أذهبي!». فعدت أدراجي باكية.

*

جاءت آمال لتفترج علي الذهاب للأكل في نهاية الصباح. غير أنني لم أكن أريد الخروج من غرفتي. لم أكن أرغب في رؤية أحد. لكنها ألحت، فاصططحبتها على مضض، وتناولنا الطعام في الكافيتيريا. أذكر أنه كان كسكسا، لأنه كان يوم جمعة، يوم الصلاة. عندها شاهدت مجموعة من الشبان يدخلون المكان وهم يتسمون في انشراح. سألتها آمال عندما أبصروني: «هل هذه الجديدة؟». هزت رأسها بالإيجاب، فقاموا بتقديم أنفسهم بكل ود: «جلال، فيصل، عبد الرحيم، علي، عدنان، حسام»، ثم اتجهوا نحو غرفة القائد.

في هذا اليوم سأعيش الصدمة الثانية في حياتي. وسوف تتطليح أنظاري بها ساراد إلى الأبد.

وأنا لن أسرد لكم هنا هذا الذي رأيت عن رحابة صدر.
بل أنا سأحبر نفسي : لأنني التزمت في هذا الكتاب بسرد
كل الحقيقية. ومهما كانت قاسية ومريعة. وحتى يمكن لكم
أن تفهموا كيف تمكن هذا الوحش من الإقالات من العقاب
رغم كل ما كان يفعل من بشاعات. فإن الذي كان يتم من
تفاصيل هي على درجة من المرضية والحيوانية. يصعب
معها حتى مجرد التفكير في سردها. دون أن يموت الذي
حضرها. وبملك القدرة بالتالي على نقل وقائعها. خجلا
ورعبا فهذا الذي ساقه قدره لأن يجعل منه القذاقي طرفا
في سيناريوهات المرضية. بفضل الموت على أن يعرف
الآخرين بما تم معه : خجلا من الموقف، وخوفا من عواقب
ذلك وبالتالي لم يكن في مقدور أي كان أن يتجرأ. ويخاطر
بفضح هذه الانحرافات المرضية. لرجل كان يملك بين
يديه قرار حياة أو موت أي شخص. ويشوه بالخزي كل من
أوقعه حظه العاثر في طريقه.

- «ارتدي ملابسك. سيدك يطلبك» : قالت لي مبروكة
في لهجة أمرة. وهذا يعني في اصطلاحها : انزع ملابسك
واصعدي. مرة أخرى دفعت الباب وبدأ أمامي مشهد مجنون.
كان القذاقي عاريا تماما. يعتلي الشاب الذي يدعى علي.
وبمارس معه اللواط في جنون مرضي : بينما كان حسام
يرقص كأني امرأة. وهو يرتدي ملابس الرقص النسائية.
على نفس أنغام تلك الأغنية الركبكية. هتمت بالعودة
على عقبي. لكن حسام صرخ : «سيدي. ثريا هنا!». وأشار
لي بأن أرقص معه. كنت مشلولة لا أقوى على الحركة.
فصرخ القذاقي : «تعال يا قحبة». ورمى الشاب الذي كان

تحتة جانبا. واعتلاني بغضب. كان حسام برقص. وعلم
 ينظر بينما هو يسحقني... عندها : وللمرة الثانية خلال أيام
 معدودة تمنيت لنفسى الموت. وكنت أقول : لا يحق لهم
 أن يفعلوا بي هذا.

ونحن على تلك الحال دخلت مبروكة. وأمرت الشابين
 بالخروج. بينما أخذت توجه أوامرها للغدافي بالتوقف لأن
 هناك حدثا طارئا. وكمن بطيع أمرا فوقيا. سارع العفيد
 بسحب نفسه. وقال لي : «أغربي عن وجهي!». أسرع
 إلى غرفتي. لأدخل تحت الماء. حيث بقيت طوال الليل.
 كنت أغتسل وأبكي. لم أستطع أن أتوقف. كان مجنونوا.
 كانوا جميعا مجانين. كان منزل مخبولين. ولا أريد أن أكون
 بينهم. كنت أريد والدي. إخوتي. أختي. أريد حياتي الماضية.
 كان الأمر مستحيلا. كان مقززا. وكان هو رئيس البلد.

جاءت آمال لزيارتي فتوسلت إليها : «أرجوك. تحدثني
 إلى مبروكة. لم أعد أحتمل. أريد أمي...». رأيتها متأثرة
 لأول مرة. قالت لي : «أوه يا صغيرتي العزيزة!». وأخذتني
 في حضنها. «قصتك تشبه كثيرا قصتي. أنا أيضا أخذوني
 من المدرسة. كنت في الرابعة عشرة من عمري». هي اليوم
 هي في الخامسة والعشرين. ولم تعرف طيلة هذا الوقت
 غير حياة الجحيم تلك.

شهر رمضان

في أحد الأيام بلغ إلى علمي إن القذافي وزمرته سيذهبون إلى داكار. وأنني لن أكون ضمن الرحلة. يا إلهي كم أسعدني هذا الخبر. ثلاثة أيام بأكملها سأكون بمنأى عن هذا الوحش. ثلاثة أيام استطعت خلالها التنفس والتنقل بدون قيد ولا شرط. بين غرفتي والكافيتيريا حيث كنت ألقي بآمال والفتيات، وكذلك فتحية، التي بقيت للقيام بمهمة الحراسة في باب العزيزية. كن يدخن ويشرب القهوة ويثرثرن.... أما أنا، فقد فضلت الصمت، والإصغاء... لعلّي أحصل على بعض المعلومات التي قد تفيدني عن سير الحياة داخل هذا المجتمع المنحرف. ولكن للأسف، لم يكن ثمة من شيء ذو قيمة في تلك الأحاديث. على أنني اكتشفت أمرا أثار حيرتي كثيرا. وهو إن آمال، كانت تملك الحق في الخروج من باب العزيزية، بشرط أن يكون ذلك بصحبة سائق رسمي! وهذا جعلني أستغرب: أيمن لها أن تكون حرة خارج هذه الأسوار... وتعود؟ كيف يمكن أن يحدث هذا؟ لماذا

لا تهرب كما أحلم بفعله منذ اللحظة الأولى التي وجدت فيها نفسي خلف هذه الجدران ؟ أشياء كثيرة كنت أستطيع تفسيرها.

كما اكتشفت كذلك، إن أغلب فتيات «الحرس الثوري» يملكن بطاقات خاصة. «بطاقة هوية» حقيقية. عليها الصورة الشخصية، والاسم واللقب، والصفة : والتي كانت على كل بطاقة : «ابنة معمر القذافي». كتبت بالحروف الغليظة فوق إمضاء القائد وصورته. هذه الصفة «ابنة» بالذات. كانت بالنسبة لي أكثر من اعتبارية.

لكن تلك البطاقة كانت تمثل «فانوس علاء الدين السحري» الذي يفتح الأبواب داخل قلعة باب العزيزية، وكذا أبواب الخروج إلى المدينة، واجتياز عديد الحواجز الأمنية التي كان يقوم على حراستها فيالق من الحرس المدجج بالسلاح. وقد علمت. بعد ذلك بمدة. إن الجميع لا يجولون وضعية هؤلاء «الفتيات» ووظيفتهن الحقيقية. ومع ذلك كانت كل واحدة معتزة بحصولها على هذه الهوية «ابنة معمر». رغم أن هذا يعني دون شك بالنسبة للجميع إنهن عاهرات. لكن حذار! عاهرات القائد الأعلى. وذاك كان مدعاة لتبجيلهن أينما ذهبن.

في اليوم الرابع، عادت الزمرة إلى باب العزيزية. وصار القبو بضج بحركة صاخبة. وضمن الأمتعة، التي عاد بها القائد من رحلته، عدد من الفتيات الإفريقيات. بعضهن صغيرات جدا والبعض الآخر أكبر سنا... مكياج صارخ، وملابس خليعة، وسراويل جينز ضيقة. وكانت مبروكة تقوم

بور سيدة البيت، وتركض من أجل إرضائهن. وكانت صرخ باتجاهنا : «أمال ! ثريا ! تعالي بسرعة وقدمي قهوة والكعك!». كنا ننقل جيئة وذهابا بين المطبخ وقاعة الجلوس، نتحرك بين فتيات يضحكن ومنتظرن بكل فوق رؤية العقيد. كان لا يزال في مكتبه، يتحاور مع بعض شخصيات التي تبدو مهمة من الرجال الأفارقة، وبمجرد حيلهم، أخذت الفتيات تصعدن الواحدة تلو الأخرى إلى رقة القائد. كنت أنظر إليهن من بعيد، تقتلني الرغبة أن أقول لهن : «حذار انتبهن، إنه وحش!». ولكن كنت يد أن أصرخ أيضا : «ساعدوني على الخروج!». انتبهت بروكة إلى نظراتي وبدأت غاضبة ومستاءة، لأننا بقينا في غرفة بينما كانت قد طلبت من فيصل القيام على خدمة ضيفات. خاطبتنا مصغفة بيديها بقوة : «فلتذهب كل وحدة إلى غرفتها».

في منتصف الليل، جاءت سالمة لتصلحيني إلى غرفة سيد. جعلني أدخن سيجارة، ثم أخرى، ثم أخرى، ثم أم أي كلمة أستعمل ؟ كان الأمر مهينا. لم أعد سوى مناع جنس، لم أعد أكثر من «ثقب» يخترقه كيغما ساء. وكنت أشد على أسناني وأتقبل الضربات. وضع غنية لمطربة تونسية : وأجبرني علي أن أرقص. وأرقص أرقص، عارية تماما هذه المرة. وعندما جاءت سالمة نحبره شيئا، قال لي : «بإمكانك الانصراف، حبيبتي». نت الكلمة في رأسي كصوت نشار : حبيبتي ؟ ماذا هاه؟ فهو لم يخاطبني أبدا من قبل إلا بلفة الشنائم الإهانات.

في اليوم التالي اصطحبت مبروكة لغرفتي شرطية برتبة ملازم. في الثالثة والعشرين من عمرها. وقالت لي : «إنها نجاح. ستقضي معك يومين». كانت الفتاة تبدو لطيفة وصریحة. وفيها شيء من الوقاحة. وكانت ميالة للكلام بلا توقف. «هل تعلمين إنهم جميعا أنذا ل هنا !» : هكذا بدأت حديثها معي منذ الليلة الأولى. وأضافت : «أنهم لا يوفون بوعودهم. أنا معهم منذ سبعة سنوات ولم أتلق منهم أي مكافأة حتى الآن ! ولم أحصل على أي شيء ! لا شيء ! لم أحصل حتى على بيت!».

«الحذر». قلت لنفسي. لا يجب أن أتورط معها في الحديث. ربما هي تريد جري إلى فخ. لكنها واصلت. بنبرة متواطئة : «علمت أنك الصغيرة الجديدة. هل تعودت على العيش في باب العزیزة؟».

- ليست لديك فكرة كم اشتقت إلى أمي. أجبته.

- لن يستمر هذا..

- لو أستطيع الاتصال بها على الأقل !

- سوف تعلم قريبا ما تقومين به هنا !

- أليست لديك نصيحة لأتمكن من الاتصال بها ؟.

- إن كنت سأقدم لك نصيحة. أقول لك لا تبقي هنا!

- لكنني أسيرة! لا خيار لدي !

- أنا. سأبقى يومين. أضاجع القذافي. أحصل على بعض المال وأرحل.

- لا أريد هذا أيضا ! لا أريد العيش بهذه الطريقة !
- تريدون الخروج من هنا ؟ إذن قومي بدور المزعجة !
- قومي، احدثي ضجة، واخلفي المشاكل.
- سيقتلونني ! أعلم أنهم يجرفون على ذلك ! عندما قاومت، عتفني واغتصبني.
- لتعلمي إذن أنه يحب العنيدين.

وضعت نجاح شريطا إباحيا، وأخذت تشاهده وهي ممددة على السرير. نطقطق في فمها حبات فستق. وقالت لي لتشجعني على مشاركتها المشاهدة : «أتعلمين، علينا دائما أن نتعلم!». .. ارتبكت. أتعلم ؟ ألم تكن تنصحني بالمقاومة منذ هنية ؟ ولهذا فضلت النوم.

في الليلة التالية نمت دعوتنا نحن الاثنتين للذهاب إلى غرفة العقيد. وبدأت نجاح تستشعر النشوة لمجرد فكرة ملاقاته واقترحت عليّ قبل أن نصعد : «لماذا لا نضعين قميص نوم أسود؟» ولما فتحنا الباب كان القذافي عاريا تماما في انتظارنا، فسارعت إليه نجاح كاللبوة نقيب، في ليفة وهي تتمتم : «أوه يا حبيبي ! كم اشتقت إليك!». .. أعجبه ذلك وأخذ يقول لها : «تعالى يا فحبة!». والتفت نحوي وهو يصرخ غاضبا : «ما هذا اللون؟... إني أكرهه؟ أغربي عن وجهي. اذهبي وغيريه !» أسرعت هابطة عبر السلالم، ومرت على آمال في غرفتها. لأطلب منها سيجارة. ولما وصلت إلى غرفتي فمت بتدخينها. كانت تلك أول سيجارة باختياري. وأول مرة أشعر فيها بالحاجة إلى التدخين.

لكن سالمة لم تترك لي الوقت. وجاءت مسرعة تقول لي «ماذا تفعلين ؟ سيدك ينتظرك!». هكذا أعادتني إلى الغرفة لأجد نجاح منهمكة في تطبيق مشاهد الفيلم الإباحي مع القذافي. والذي قال لي : «ضعي الشريط وارقصي!». وما أن هممت بالرقص حتى ففز من السرير. ونزع عني قميصي. وطرحني أرضا وقام بمضاجعتي بوحشية. ثم نهرني قائلاً «أذهبي!». وأشار لي بالخروج ملوحاً بيده. فخرجت من الغرفة منكسرة وأنا أتحنس الكدمات التي كانت تملأ جسدي.

وعندما عادت نجاح بدورها إلى الغرفة، سألتها لماذا اقترحت علي لونا يكرهه. أجابتنى دون أن تنظر إلي: «غريب. في العادة يحب اللون الأسود. لكن ربما لم يعجبه وأنت ترتدينه... ولكن. أليس هذا ما كنت تريدين في داخلك؟ خدعة لتحويل وجهته عنك؟». فجأة سألت نفسي : هل يمكن أن توجد غيرة بين فتيات القذافي ؟ إنها فكرة مجنونة. من طرفي لم يكن يهمني أمره على الإطلاق. ويسعدني أن يحتفظن به !

استيقظت في صبيحة اليوم التالي وقد انتابتنى رغبة عارمة في تدخين سيجارة. وعندما وجدت آمال تحنسي القهوة مع فتاة أخرى. طلبت منها واحدة. لكنها أخذت هاتفها المحمول وأخذت تأمر شخصا على الطرف الآخر: «هل يمكن أن تأتي لنا بسجائر مارلبورو؟». لم أصدق ما أرى. هل المسألة بهذه السهولة؟ وبالفعل. كان يكفي الاتصال بالسائق الذي يذهب ويشتري للفتيات ما يطلبن. ثم يأتي بالمشتريات. ويذهب أحد العمال إلى النراب لجلبها.

غير أن آمال قالت لي ناصحة : «هذا ليس جيدا بالنسبة
لعمرك، لا تسقطي في فخ السيجارة».

- لكنك تدخين أنت أيضا ! أنت وأنا نعيش الحياة
نفسها !

غير أنها أكتفت بأن حدجنتني بنظرة عميقة، وهي ترسم
شبح ابتسامة حزينة.

*

كان شهر رمضان المبارك على الأبواب، عندما علمت
ذات صباح، أن جميع من في المنزل سينتقلون إلى سرت.
كان علي أن أرتدي الزي العسكري، والصعود في إحدى
سيارات القافلة. وفي غضون لحظات، بدأت أستشعر
بلسعات الشمس على وجهي. ولأنني لم أغادر القبو منذ
أسابيع، كنت جد سعيدة لرؤية السماء. عند وصولنا إلى
كنية الساعدي، اقتربت مني مبروكة قائلة : «أنت تطلبين
رؤية والدتك، حسنا سوف تربنها». توقفت دقائق قلبي.
كنت أفكر في أمي منذ ثم اختطافي. أحلم بالاختفاء بين
أحضانها. في الليل، في النهار، تخيلت ما سأقوله لها. تنعش
الكلمات.... كنت أعيد صياغة حكايتي وأحاول طمأنة
نفسي لأنها ستفهم دون أن أقدم لها التفاصيل. يا إلهي!
أن أرى والدي، إخوتي، أختي الصغيرة نورة...

توقفت السيارة أمام المبنى الأبيض لبيتنا. ورافقتني
الثلاثي المعتاد: مبروكة، وسالمة، وفائزة إلى مدخل العمارة.
فهرعت مسرعة إلى السلال، كانت والدتي تنتظرني في
بيتنا بالطابق الثاني. بينما جميع أخوتي كانوا في المدرسة.

تعانقنا بقوة وبكىنا كثيرا. كانت تقبلني، وتنظر إلي، وتضحك. تحرك رأسها. تمسح دموعها. «أوه يا ثريا! حطمت قلبي. حدثيني! حدثيني!». لم أكن أستطيع. كنت أشير برأسي لأقول لها لا. كانت تضميني بقوة إلى صدرها. ثم همست في أذني بحنان: «لقد شرحت لي فائزة: إن القذافي قد قام بفض بكارتك. أوه يا ابنتي الصغيرة! لم يكن الوقت قد حان بعد لتصبحي امرأة...»

عندها سمعت فائزة، التي كانت تصعد السلالم، تردد بصوتها القوي: «هذا يكفي! هيا انزلي!». تمسكت أُمِّي بي، وهي تولول: «انركوا لي صغيرتي!». لكن الأخرى كانت قد وصلت. ورفضت بحزم. «ليكن الله في عوننا - رددت أُمِّي - ماذا عساي أن أقول لإخوتك؟ الجميع يسأل أين أنت. أجبتهم أنك في تونس. ذهبت لزيارة العائلة أو أنك في طرابلس مع والدك. أصبحت أكذب على الجميع. كيف أفعل يا ثريا؟ إلى ماذا سيؤول أمرك؟». انتزعني فائزة من بين يديها، بينما أخذت أُمِّي تتوسل إليها باكبة: «متى تعيدونها إلي؟» وردت فائزة في لامبالاة: «يوما ما!». ثم عدنا إلى الكنيية.

وجدت فتحية في انتظاري. وقالت لي على الفور: «سيدك يطلبك». لها دخلت تلك الغرفة الرملية اللون حيث قام القذافي باغتصابي منذ أسابيع. وجدت غالينا وأربع أوكرانيات أخريات. غالينا كانت تقوم بتمسيد القذافي، والأخريات جالسات حوله. انتظرت بجانب الباب. كنت أرتمي الزي العسكري. مضطربة بسبب زيارتي للوالدة. وكان يعتريني إحساس جارف بالتفرز من هذا الوحش

الذي يعتقد نفسه في مصاف الآلهة، والذي تنبعث منه رائحة مقرفة، خليط من العرق والثوم، والذي لا يفكر إلا في المضاجعة. وما أن خرجت الممرضات، حتى وجه إلي الأمر : «انزعي ملابسك!». كنت أود أن أصرخ في وجهه: «أيها الحقير!»، ثم أرحل وأغلق الباب خلفي، لكنني استجبت لأوامره، يائسة. «اصعدي فوقتي!»، قال لي، ثم واصل متسانلاً في لهجة قميئة: «لقد تعلمت دروسك، أليس كذلك؟»، وهو يقصد تعلم ممارسة الجنس عبر الأفلام. وواصل: «وكفني عن الأكل! لقد ازداد وزنك، لا أريد هذا». وعندما أنهى غرضه مني، جذبني بقسوة نحو الجاكوزي، ليمارس معي فعلاً حيوانياً لم يفعله معي من قبل، حيث جعلني أتسلق إلى حافة الدوش : ونبول فوقتي.

كنت أنقاسم في كتيبة الساعدي غرفتي مع فريدة، الفتاة نفسها التي شاركناها الغرفة أثناء إقامتي الأولى في الكتيبة. كانت ممددة، شاحبة اللون وهي تتقيأ بآلم، فسألناها عما بها، وكانت إحابتها صادمة : «أنا مصابة بالالتهاب الكبدي».

- الالتهاب الكبدي ؟ كنت أعتقد أن الفائد مصاب بالرهاب من المرض!.

- نعم، لكن يبدو أن هذا المرض لا ينتقل عن طريق العلاقات الجنسية.

ينتقل عن طريق ماذا إذن ؟ بدأت أشعر بالخوف. وفي الليلة نفسها، نادانا القذاقي نحن الاثنان، كان عارياً، وبتحطّر على جمر، خاطب فريدة : «تعال، يا قحبة»، اعتمدت الفرصة، وسألته في شيء من التوسل : «هل

قصة ثريا

يمكنني الانصراف؟» غير أنه رمشتي بنظرة مجنونة. وصاح في وجهي «ارقصي!». كنت أقول في نفسي : «هل سيضاجع مريضة ثم يضاجعني؟!». وهذا ما قام به. بالفعل طالباً من فريدة أن ترقص بدورها.

بقينا أياماً ثلاثة في مدينة سرت. ناداني خلالها مرات عديدة. أحياناً مع اثنتين أو ثلاث أو أربع فتيات في الوقت ذاته. كنا لا نتبادل الأحاديث. كل واحدة وقصتها. كل واحدة ومأساتها.

*

أخيراً حل شهر رمضان. بالنسبة لعائلتي هو شهر مقدس. كانت والدتي حازمة في هذا الأمر. لم يكن مسموحاً لنا بالأكل من شروق الشمس إلى غروبها. كنا نلتزم بالصلاة طيلة الشهر على الأقل. وفي المساء نحتفل في جلسات جماعية حول مائدة شهية. نفكر فيها طوال اليوم قبل أن تجتمع العائلة. وأذكر أن والدتي قد اصطحبتنا أكثر من مرة في رمضان. إلى المغرب وإلى تونس : لكي نعيش فرحة هذا الشهر مع الأقارب. كان الأمر رائعا. ومنذ صغري. لم أقطر يوماً واحداً في شهر رمضان. ولم أكن أتصور أنه بالإمكان أن يجروا أحد على ذلك. غير أنه. وفي ليلة دخول الشهر. والتي نقضيها في العادة في الاستعداد الروحي لاستقبال أيامه المباركة. ومباشرة الإمساك عن الشهوات والرغبات. اختار القذا في أن يفوح بي في بحر المحرمات. وتعامل معي في هذه الليلة بالذات بشراسة وعنف حيواني. وقد استمر ذلك لساعات طويلة : وحتى بعد مطلع الفجر. وأذكر

ليس فقط أنني كنت منهكة ومنهارة، ولكن الشعور
بعصبة بالذات، كان يعصف بي في ضراوة. فأخذت
أبذل إليه: «حرام إنه رمضان!».

في واقع الأمر، وما عدى الأوامر والشتائم، لم يتوجه
يوماً بالحدث. غير أنه هذه المرة، تنازل وأجابني بين
يرين: «الأكل فقط حرام». شعرت باللعنة. يا الله! هو
يحترم أي شيء، إذا. حتى الله! ولا يضيره أن ينتهك
بيع المحرمات، أن يتحدى الدين!

نزلت إلى غرفتي، مضطربة. كنت بحاجة لأن أتحادث
خصر ما. آمال أو أية فتاة أخرى. كنت تحت تأثير
سدمة. لكنني لم أجد أحداً.

كنت ممنوعة من التجوال داخل أروقة ودهاليز القبو
ضاء بالمصابيح البيضاء. ويقتصر محيطي على غرفتي.
رفني، والمطبخ، والكافيتيريا، وربما قاعات الاستقبال.
بيت من مكتبه والقاعة الصغيرة المخصصة لرياضته
خصية. ليس أكثر. ولكن من غرفتي ذاتها كنت قادرة
على تمييز الأصوات الخارجية، وتناهي إلى سمعي أصوات
من فوق غرفتي. وفهمت إن آمالاً، وفتيات أخريات
من عند القائد، في رمضان!

ما التقيت بهن على الإفطار، أبدت لهن دهشتي. ما
لهن خطير جداً أليس كذلك؟ أخذن في التفتية! لقد
رأيت أنهن ما دام لا ينتشي ولا يقوم بالقذف، لا يكون
أرتكب معصية بالنسبة إلى الله... كنت مندهشة
هولة. الأمر الذي زاد في سخريتهن وضحكهن، «إنه

قصة ثريا

رمضان على طريقة القذاقي : ختمت إحدى الفتيات
كان يأمرني بالصعود إلى غرفته طوال شهر رمضان. في
وقت من الليل أو النهار. كان يدخن، وبضاجع، ويعتصم
مزمجرا. شيئا فشيئا، سمحت لنفسني بالأكل أثناء شهر
رمضان دون أي اعتبار للوقت. ما هي الفائدة من احترام
القواعد في عالم لا يوجد فيه سياق ولا قانون ولا متطلب
انتهي بي الأمر للتساؤل حول جدوى الأهمية التي توليها
أمي لشهر رمضان.

في ليلة السابع والعشرين من الشهر. أي الليلة المفترض
أنها «ليلة القدر»، التي أنزل فيها القرآن على الرسول. والتي
تكون المناسبة لاحتفالات دينية كبيرة، علمت أن القذاقي
يعد لحفل استقبال لمجموعة من الضيوف المشهورين في
قاعات الاستقبال والخيمة الموجودة بالجوار.

لذلك استدعنا مبروكة جميعا، لنضع الحلويات
والفاكهة في الأطباق ونقوم بالخدمة. كنت أرتدي لباسا
رياضيا أسودا بشريط أحمر على الجانب. كنت أذكر أن
شعري كان يتدل إلى حزامي. لم أمسكه كما كنت أفعل
في العادة. جاء الضيوف بكثافة وامتلأت قاعات الاستقبال
الثلاثة. العديد من النساء الأفارقة، مدهلات الجمال.
رجال بربطات عنق، عسكريون. للأسف لم أتعرف على
أي شخص. واحد فقط ! نوري المسماري. مدير المراسم.
بشعره ولحيته ذات اللون الأشقر الغريب، وتلك العين
الزجاجية خلف نظاراته الشفافة. كنت رأيت من قبل في
التلفزيون، ورؤيته يتنقل بين الضيوف بخفة أعطاني شعورا
غريبا. قدم رجل آخر. اسمه سعد الفلاح. والذي كان يبدو

أنه يعرف الثنيات بشكل شخصي. لكل واحدة ظرفا به 500 دينار. مصروف جيب قالوا لي. تقاطعت نظراتنا في العديد من المرات وشعرت أنه لاحظ وجودي. أقبل نحوي مبتسما وقال : «آه ! هذه إذن الصغيرة الجديدة ! كم هي لطيفة!» كان يضحك وهو يقرص خدي. بروح نصفها معاكسة ونصفها أبوة. المشهد لم يفلت عن أعين مبروكة التي نادته على الفور : «سعد، تعال لنرى !». آمال التي كانت بجائبي همست في أذني : «إنها رأت ما حدث! عودي بسرعة إلى غرفتك. أؤكد لك أن الأمر خطير».

ذهبت مسرعة. كنت قلقة قليلا. ساعة أو ساعتين إثر ذلك. فتحت مبروكة باب غرفتي قائلة : «اصعدي». وقفت عند باب غرفته. ومبروكة خلفي.

كان بصدد وضع لباس رياضي أحمر. فحدشني بنظرة ملؤها الريبة. ثم صرخ في وجهي : «تعال هنا. يا ساقطة... إذن. تستمتعين بحل شعرك ونشفه للجميع ؟ تلعبين دور الجميلة والمغرية ؟ هذا طبيعي : ألبست والدتك تونسية!»

- أقسم أنني لم أفعل شيئا سيدي.

- لم تفعلني أي شيء. يا عاهرة ؟ وتجرئين على قول أنك لم تفعلني أي شيء ؟

- لا شيء ! ماذا فعلت ؟

- شيئا لن تجرئي على فعله بعد اليوم. أينها العاهرة !».

هناك سحبني من شعري بحركة قوية، وأجبرني على الركوع، وأمر مبروكة : «ناوليني سكيناً !» ظننت أن سيدبحني. كانت عيناه تتطاير شرراً. أعلم أنه يستطيع فعل أي شيء. مدّت له مبروكة شفرة. التقطها منها وممسك بشعري بقبضة حديدية. وأخذ يقصّ بجنون جزءاً من الشعر بضربات قوية ومرعبة..... وهو يزمجر : «تعتقدين أنك تستطيعين اللعب بهذا ؟ إذن انتهى الأمر !»

كانت ظفائر شعري الأسود تتساقط إلى جانبي. وهو يواصل القص والقطع. ثم التفت بعنف إلى مبروكة وهو يقول لها : «واصلي !». كنت أبكي، مرعوبة، فاقدة القدرة على السيطرة على حركات جسمي. خلت في كل مرة يقوم بتحريك الشفرة أنه سيقطع عنقي. أو سيثقب رأسي. كنت جائئة على الأرض كحيوان قابل للذبح.

هكذا لم يبق من شعري إلا بعض الجداول التي تلامس كتفي، وأخرى أقصر، وصرت أشعر وكأنه لم يعد هناك أي شيء على رأسي. كانت مذبحة حقيقية. «كم أصبحت فبيحة !» : قالت لي فريدة لما اعترضتني بعد ذلك. دون أن تكثر بأسباب تلك المجزرة. لم ألتق بالقائد لعدة أيام. لكن رأيت زوجته. كان ذلك بمناسبة عيد الفطر. النهاية الرسمية لشهر رمضان. كنت أعيش هذا في السابق في حفل عائلي. نباشره بصلاة العيد في الصباح. وبعد العودة من المسجد نقوم بزيارة الأهل والأصدقاء. لعله أجمل أيام السنة بالنسبة لي لما كنت صغيرة. لكن ما الذي يمكن أن نتظره، أو بالأحرى ما الذي يمكن أن نخشاه من العيد في باب العريزية ؟ لم تكن لدي أي فكرة. في الصباح جمعنا

مبروكة : «بسرعة. ارثدوا ملابسكم بشكل جيد ! زوجة القائد فادمة لزيارتنا». «صفية ؟ الزوجة ؟». كنت قد رأيت صورتها في الماضي لكنني لم ألتقي بها على الإطلاق منذ اختطافي. أظن أنني سمعت إن لها بيتها الخاص هنا في فضاء باب العزيزية، لكن القذافي لا ينام هناك أبدا. وأنهما لا يلتقيان إلا نادرا خلال بعض المناسبات العامة.

بال سخرية القدر، القذافي «عدو تعدد الزوجات»، يعاشر العديد من النساء، ما عدى زوجته. علمت أنه يلتقي ببناته كل يوم جمعة. في بيته بالمزرعة في المربع بطريق المطار. الإعلان عن قدوم زوجة القائد سبب صدمة وكهربية صغيرة للأجواء : حيث يجب على «الحواري» أن يتحولن إلى خادومات : يحسن تلبية جميع رغبات السادة !. دخلت صفية يسبقها عدد كبير من الزوار. كانت تبدو قوية ومتفطرة. اتجهت نحو غرفة العقيد. كنت في المطبخ مع بقية الفتيات، نقوم بغسل الأواني وتنظيف الفرن وكنس الأرضية. كل منا كانت سندرلا جديدة. وحالما رحلت صفية أعلنت مبروكة : « كل شيء يعود إلى طبيعته !».

فعلا عاد كل شيء إلى طبيعته. استدعاني السيد على الفور «أرقصي!» كما استدعني كذلك عدنان. حارس سابق في القوات الخاصة. متزوج (من إحدى عشيقاته القذافي شبه الرسميات)، والد لطفلين، والذي كان يُكرهه على الجماع بشكل متكرر. وقد مارس معه اللواط أمامي، ثم صاح بي : «جاء دورك، يا عامرة !».

الحريم

وأخيرا. سافر إلى التشاد في رحلة ستدوم ستة أيام. أنت مبروكة وسالمة وفائزة وعدد كبير من الفتيات ضمن أمتعة. قلت في نفسي ربما تكون فرصة لزيارة والدني. قمت بمحاولة مع مبروكة. ورجوتها أن تسمح لي بالذهاب. ن عائلتي أثناء فترة غيابهم لكن إجابتها كانت صارمة: مستحيل! يجب أن تبقي في عرفتك، وتكوني على أتم استعداد للالتحاق بنا في أية لحظة قد يطلبك فيها جدك. عندها سأرسل طائرة لتأتي بك إليه». طائرة ...

قررت أن أريح جسدي. جسد تملؤه الكدمات والنزوات. ن لم تكن تجد وقتا لتندمل أبدا. جسد متعب، لا يعرف المراحة. حتى أنني صرت أكرهه.... صرت أكره جسدي. كذا قضيت هذا الوقت أذخن، وأسكر، وأندد ثمة على سرير. أشاهد الأغاني في التلفزيون الصغير بغرفتي. أظن بي لم أكن أفكر في أي شيء. غير أن مفاجأة صغيرة

قصة ثريا

كانت بانتظاري عشية عودة الزمرة من السفر. سائق من باب العزيزية تلقى الأوامر بأن يأخذني إلى المدينة لمدة نصف ساعة. لأنفق الخمسمائة دينار التي تحصلت عليها في شهر رمضان. ياله من حدث رائع. أن أخرج من ذلك السجن وأعائق ولو قليلا نسيمات الربيع التي كانت تهب على طرابلس. ممتاز. وكان بصري قد تأقلم مع عتمة القبو حتى أنني عجزت عن فتح عيني في ضوء النهار. لقد كنت كالأعمى الذي واجه لأول مرة أشعة الشمس. فالطابق السفلي من مبنى القيادة لا نوافذ له. تسكنه الرطوبة والظلام، وتفوح من أرجائه رائحة التعفن. حتى أن مبروكة كانت تلجأ لحرق البخور كل مرة في الممرات والحجرات للتغلب على تلك الروائح الكريهة.

أخذني السائق إلى محلات راقية. اشتريت ملابس رياضية. وأحذية وقميصا. وكنت محنارة بحق أي شيء أختار. أو ماذا أشتري؟ فلم يسبق لي أن تصرفت في مثل هذا المبلغ. كنت مشوشة. ثم ما هو اللباس المناسب؟ بين غرفتي وغرفته. لم تكن لدي تقريبا أية حاجة لملابس. وبالتالي لم تكن لدي أدنى فكرة. كم كنت غبية. فعندما أعيد التفكير في الأمر اليوم. أقول بأنه كان بإمكانني شراء كتاب. أو أي شيء يجعلني أحلم وأهرب وأتعلم الحياة. كان بإمكانني التفكير في قلم وكنش. لأرسم وأكتب. حيث لم يكن مسموحا بي من هذه النشاطات في باب العزيزية. في الواقع آمال وحدها من كانت تملك في غرفتها بعض الروايات الرومانسية. وكذلك قصة حياة مارلين منورو. وهي القصة التي طالما زركشت خيالي. وكنت أود لو أتمكن من

قرائنها في كتاب، لكن آمال رفضت إعارتي إياه، إي أنني في موعدي الأول هذا مع السوق والحياة، لم أفكر في شراء أي شيء ثقافي أو مفيد. نظرت حولي بجشع واضطراب. كانت دمائي تغلي، ألم يكن الوضع يصيب بالدوار؟ كنت أسيرة أطلق سراحها لدقائق في مدينة تجهلني تماما، يعترضني المارة على الرصيف. لا أتصور أنهم يخمنون قصتي؟ يقدم لي البائع حزمة البشتریات مبتسما وكأنني زبونة عادية. مجموعة صغيرة من تلاميذ المعاهد، انسون إلى جانبي بدون أن يعلموا أنني أنا أيضا كان من المفروض أن أكون مثلهم: لا أفكر إلا في الدراسة والضحك. لأول مرة مبروكة لا تراقبني: السائق كان لطيفا: لكنني أشعر بأنني في مصيدة. الفرار لم يكن خيارا صائبا. بدت لي الثلاثون دقيقة من الحرية المزيفة وكأنها ثلاثون ثانية.

في اليوم التالي، عادت زمرة القذافي إلى باب العريضة، حيث أخذ يصلني ضجيج الأصوات في الطابق السفلي، أصوات خطوات وأبواب وصياح. حرصت على عدم الخروج من غرفتي، لكن مبروكة ظهرت أمامي بسرعة وأمرتني، «إلى الأعلى!» مشيرة لي بذقنها. لم تعد بحاجة لأن تقول: «عليك الصعود». الحد الأدنى من الكلمات. والحد الأقصى من الاحتقار. نعم، كنت أعامل كجارية. وهذا الإلزام البغيض بالصعود إلى غرفة السيد أحدث في جميع جسدي نيارا من التوتر والكهربة.

ما كاد يراني حتى صاح قائلا «آه عزيزتي! تعالي!». ثم هرع إلي صارخا مزمجرا «قحبة»، لم أكن بالنسبة له أكثر من دمية بإمكانه اللعب بها. وضربها. لم أعد إنسانا.

قصة ثريا

دخلت فتحية وقاطعته قائلة : «سيدي، نحتاجك لأهمام» : فأبعدني مصفرا بين شفتيه : «أغربي!» : فأسرعت مهرولة نحو غرفتي حيث الرطوبة. في ذلك اليوم ولأو مرة، شاهدت فلما إباحيا، وتساءلت عن موضوع الجنس القليل الذي كنت أعرفه لم يكن سوى العنف والرعب والخضوع والوحشية والسادية. كان عبارة عن حصص للتعذيب، مع نفس الجلاد، لا أكاد أتصور شيئا آخر. ولكن الممثلات في الفيديو لم يكن يلعبن دور الجارية أو الضحية إنهن يضعن مخططات للقيام بالعلاقة الجنسية. إنهن يشعرن بنفس اللذة التي يشعر بها شريكهن. كان الأمر غريبا ومحيرا.

يومين بعد ذلك، جاءت فائزة إلى غرفتي تحمل معها ورقة صغيرة. «هذا رقم والدتك، تستطيعين الاتصال بها من المكتب». قامت أمي برفع السماعة فورا : «أوه ثريا! كيف حالك يا صغيرتي ؟ يا إلهي، كم أنا سعيدة لسماع صوتك ! أين أنت ؟ متى أستطيع رؤيتك ؟ هل أنت بصحة جيدة ؟...» لم يكر مسموحا لي إلا بدقيقة واحدة. كالمساجين. قالت فائزة : «هذا يكفي!» وقطعت المكالمة بحركة من إصبعها.

※

في أحد الأيام، حدث شيء غريب. إذ جاءت نجاح، تلك الشرطية الوقحة التي لا نخجل من أي شيء، لفضاء يومين في باب العزبية. كان ذلك يحدث بين الحين والآخر. ومن جديد، نزلت بغرفتي. وكنت لا أثق بها إلا قليلا بسبب

نصريحاتها ومكرها. لكن وقاحتها تروق لي. وقالت لي،
«عندي خطة لإخراجك من باب العزيزية. أظن أن ذلك
سيربحك قليلاً!».

- أبداً. يكفي قليلاً من الخبث. هل ترغبين في القيام
بجولة صغيرة بصحبتي. بكل حرية ؟

- لن يتركونني أخرج من هنا أبداً !

- كم أنت متشائمة ! يكفي أن تتظاهري بالمرض،
وسأنتولي البقية.

- هذا غير ممكن ! لو كنت حقيقة مريضة فهناك
المرضات الأوكرانيات لعلاجي.

- اتركيني أدبر الأمر ! سوف أقوم برسم سيناريو، وعليك
فقط الانقياد.

وذهبت بالفعل لرؤية مبروكة. لا أعلم ما الذي قالته
ليها. لكنها عادت لتعلمني أنها قد أعطتها الضوء الأخضر.
كان الأمر مذهلاً. وقد أخذنا السائق عمار إلى خارج أسوار
باب العزيزية. وكنت أكاد لا أصدق عيناى : «ماذا قلت
لمبروكة؟»، سألتها كطفلة متبهرة.

- اصمتي ! سنذهب أولاً إلى بيتنا. ثم سنذهب لزيارة
شخص.

- هذا جنون ! كيف فمت بهذا ؟

- حذار، ليس أسمى نجاح من فراغ !

- ولكن ليست لدي ملابس !

- لا تقلقي سننقاسم ثيابي !

قصة ثريا

هكذا ذهبنا بالفعل إلى بيتها، حيث غيرنا ملائمة
وأخذتنا أختها بالسيارة إلى منزل جميل جدا في عين
وهو حي على تخوم طرابلس، وكان صاحب البيت سائلا
باستقبالنا. قالت له نجاح : «هذه ثريا التي حدثتك عن
ألفي الرجل علي نظرة متفحصة. ونظاير بالاهتمام
ثم قال : «هيا أخبريني ! هل يؤذيك ذاك الكلب؟»

في الواقع كنت قد تجمدت لهول السؤال. وسألت نفسي
من يكون هذا الشخص الذي يجروني على وصف القدر
بالكلب؟ وهل يمكنني أن أثق به ؟ ولأن مشاعر من الرعب
عمت خاطري تجاهه؛ فضلت أن لا أعطيه أي جواب
وفجأة رنّ محمول نجاح. لكنها سرعان ما أعادت الهاتف
إلى حقيبتها وهي تقول لي رافعة عينيها إلى السماء
تأفف: «إنها مبروكة». فقلت لها في تعجب: «ألن نجيبني؟»
لم تردّ علي سؤالي. واكتفت بمد كأسها حيث سكب لها
الرجل كثيرا من الويسكي. كنت أمهي... في هذا البلد
الذي يمنعون فيه الكحول باسم الدين وباسم القانون. بعض
من الناس يشربون بجرأة كبيرة ؟ وينتقدون القذافي الذي هو
بدوره يشرب بدون انقطاع ؟ قدّم لي الرجل كأسا. رفضي
جعله يشعر بالاستياء. فأصر : «اشربي. هيا اشربي ! أنت
حرة هنا!». ما يمكن أن أؤكد بشأته في هذا الخصوص إن
نجاح وشقيقتها لم تكن تنتظران الدعوة لإحتساء الكحول...
وأخذن في الرقص. معلّات انطلاق الحفلة. وقد أسرفنا في
الشرب. والضحك... الأعين مغلقة والأجساد تتموج. كان
الرجل ينظر إليهن بشهوة. قدم رجل آخر. قام بمعابنتي،
وابتسم. في تلك اللحظة شعرت بالفخ. لكن نجاح لم تكن

موجودة لتقوم بنجدتي. كانت تشرب دون توقف. فأشرت لها أنني متعبة. لكن وضعها لم يكن يسمح بأن تعود بي للبيت، فأقترحوا على أن أصعد للنوم بأحد غرف البيت. غير أنني لم أكن مطمئنة لما يدور، فبقيت حذرة طوال الوقت. ثم بسرعة سمعت نجاح تصعد إلى الغرفة المجاورة مع الرجلين. بينما كان هاتفها يرن في الفراغ.

في الواقع هم تركوني وشأني. ومع ذلك استيقظت مرعوبة. ذهبت لإيقاظ نجاح. كانت فوق السحاب، في غيبوبة لا تذكر أي شيء. رن هاتفها. وصاحت مبروكة من الجهة الأخرى: «السائق يبحث عنكما منذ البارحة. سترين ماذا سيكون عقابكما عند السيد!». أصيبت نجاح الذعر. لقد كذبت علي، وخدعتني. قادتني إلى فخ جبان تقدمني غنيمة للرجال. كنت مشمزة. فأن يتم اختطافي من قبل القذافي لا يعني بالضرورة أنني عاهرة.

كانت العودة إلى باب العزيزية جد عنيفة. ولم تكن بروكة موجودة عند وصولنا. لكن سالمة أمرتنا أن نصعد إلى غرفة القائد. كان يزيد من الغضب. صفع نجاح صفعه فلم وصاح بوجهها: «الآن تخرجين. لا أريد رؤيتك مطلقاً!». أنا. فألقاني على السرير وصب جام غضبه على سدي. وكان يتمتم بين شفتيه: «كل النساء عاهرات!!». صاف: «عائشة أيضاً كانت عاهرة محترمة!». أظن أنه من يقصد والدته.

مر شهر كامل بعد هذه الحادثة دون أن يلمسني. خلال الشهر شهد قبو القيادة قدوم فتاتين جديدتين من

قصة ثريا

شرق البلاد : واحدة من مدينة البيضاء وكان عمرها ثمان
عشر عاما. والأخرى من مدينة درنة وكان عمرها خمس
عشر. وعندما تأملتاهما أثناء صعودهما إلى الغرفة. رأيا
كم كانتا جميلتان. وبنفس هيئة البراءة والحيرة التي كانت
عليهما منذ سنة خلت. وكنت أعلم جيدا ماذا كان ينتظرهما
ولكن للأسف لم يكن بمقدوري الحديث معهما أو توجيه
نصيحة لهما. وقد سألتني أمال بخصوصهما : «هل رأيت
الجديدات؟»... مع ذلك لم تبقيا طويلا بياب للعزیز
وعادتا بسرعة إلى ديارهما. لقد كان القذافي بحاجة لعدد
جديد من العذروات كل يوم. يجربهن ثم يرميهن أو يقو
بـ«رسكلتهن». لا أدري ماذا يقصدون بهذا.

*

مرت الأيام. وتنازلت الفصول. والأعياد الوطنية والدينية.
وأشهر رمضان. وصرت أفقد شيئا فشيئا الإحساس بمرور
الزمن. حيث إن الإضاءة هي ذاتها سواء في الليل. أو النهار.
في الطابق السفلي. وقد اختصرت حياتي في ذاك المحيط
الضيق. إلى مجرد جارية مهمتها أشباع شهوات العقيد
ورغباته.

في باب العزیزة لم تعد الفتيات تهتم بذكر أسمه. فعندما
كنا نتحدث عنه. لا تعطيه إسما ولا لقباً. نقول فقط «هو»
أو «ذاك». وكان هذا كان كافياً. فقد كان يشكل المحور
الذي تدور حوله حياتنا. ولا أحد يشك في ذلك.

لم أكن أعرف أي شيء عن كيفية تسيير الأمور
في البلاد. أو عن أي شيء قد يعصف بالعالم. وقد يتسنى لي

أن أسمع في بعض الأحيان بعض الهمس بشأن انعقاد قمة أفريقية، أو ريادة أحد الرؤساء المهمين. وهي اللقاءات التي كانت تتم تحت الخيمة الرسمية بالقرب من المقر. والتي كان يقصدها «هو» بسيارة الغولف الصغيرة. وكان العقيد القذافي يحتاج قبل الحوارات واللقاءات المهمة أو الخطب الشعبية التي يخوضها. لأن يدخل الماريخوانا. أو أن يشم الكوكابين. حيث كان في الغالب في مثل هذه المناسبات تحت تأثير المخدرات. على أن الكثير من الاحتفاليات. أو حفلات الاستقبال. كانت تتم في صالونات المنزل. والتي كانت تجذب العديد من كبار رموز السلطة. ومن الوفود الأجنبية. وكنا نحن نستطلع بفضول من يكون حاضرا من النساء. لأننا نعرف إن ما كان يهم العقيد من النساء بالدرجة الأولى.

وكانت مهمة مبروكة بالطبع هي جذبهم نحو غرفته. طالبات. وفنانات. وصحافيات. وعارضات أزياء. بنات وزوجات شخصيات بارزة. من ضباط الجيش ومن رؤساء الدول وعلى قدر أهمية ومكانة الآباء والأزواج. تكون قيمة الهدايا والعطايا. ثم غرفة صغيرة ملحقة بمكتب القذافي. يمكن أن يصفها المرء بمغارة «علي بابا» : حيث تخزن مبروكة الهدايا.

وقد لمحت في أحد المرات ما كان بداخلها : من نقائب ملينة بحزم الدولارات واليورو. وعلب المصوغات الذهبية. وعقود الماس. وفلاذ من الذهب تُهدى عادة في مناسبات الأعراس. وتخضع أغلب النساء اللاتي يدخلن مقابلة العقيد لاختبارات فحص الدم. والتي تقوم بها

الممرضات الأوكرانيات بشكل سري. في الصالون الصا
حيث المتقاعد الحمراء. قبالة المكتب يجلس الحرس.
هناك زوجات رؤساء دول تلذن بالفرار. الله أعلم.
كان مسلحاً مشاهدتهن وهن يقصدن غرفة العقيد في أب
هيئة. وحفائب الماركات الفاخرة في أيديهن. ليخرجن ب
ذلك وقد طفح أحمر شفاههن وتدلّت جدائل شعرهن.

لقد لمحت خلال إقامتي بباب العزيزة العديد م
زوجات رؤساء دول إفريقية. لا أعرف أسماءهن. يعبرن م
أمامي. وكذلك سيسيليا ساركوزي زوجة الرئيس الفرنسي
كانت جميلة. ومتكبرة. وفي مدينة سرت لمحت طوني بلي
والذي قال لنا محبياً : «أهلاً يا فتيات». وهو يلوح لنا
ود وابنسام.

انطلاقاً من مدينة سرت. تذهب أحياناً إلى الصحراء
حيث يفضل العقيد نصب خيمته. محاطاً بقطعان الإبل
وسط ذلك القضاء الشاسع. حيث كان يجلس لشرب
الشاي. ويثرثر لساعات طويلة مع شيوخ قبيلته. أو يقرأ
ينام في القبولة. غير أنه لا ينام أبداً في الخيمة أثناء الليل
بل يفضل رفاهة مقطوره. هناك يستدعينا لالتحاق به
وفي الصباح يجبرنا على مصاحبته للصيد. وكنا نرتدي
جميعنا الزي العسكري. وذلك رغم أن العسكرية الوحيدة
التي كانت معنا هي زهرة. والتي كانت وحدها من يشارك
في حراسة العقيد بصورة فعلية. وكانت تحثني. طالما
كنت مرتدية زي الحارسات. أن أنصرف كجندية محترفة.
حتى إنها في إحدى المرات قامت بتدريبي على استعمال
الكلاشنكوف : كيف يتم تفكيكها. وشحنها. وتنظيفها.

بل هي في لحظة من اللحظات، وكان السلاح على كتفي، صرخت في وجهي : «أطلق!». حيث كانت تريدني أن أقوم باستخدام السلاح بالفعل، لكنني رفضت. ولم أطلق يوما رصاصة واحدة.

من بين الأشياء التي عرفتھا عن المذاقي نتيجة وجودي معه هو علاقته «بالسحر» وطقوسه. كان ذلك على الأرجح التأثير المباشر لتبروكة. ويقال إن هذا هو سر سيطرتها عليه. فهي تذهب لاستشارة الدجالين والسحرة في جميع أنحاء القارة الإفريقية، وتقوم باصطحاب بعضهم في بعض الأحيان. ورغم إنه لم يكن يتقلد أي تعويذة أو طلسم، إلا أنه كان يدهن جسمه بدهن غريب يجعله لزجا طوال النهار. كما أنه كان يردد تعويذات غير مفهومة. ويضع بقربه منديله الأحمر. وكان أينما ذهب، يأخذ معه فريق الممرضات. غالينا. وإيلينا. وكلوديا... بلباسهن الأبيض والأزرق. ولم تكن الممرضات تسكن المقر معنا. بل في المستشفى الصغير الواقع داخل بياض العزيزة. غير أن الوصول إلى حيث هو لا يستغرق منهن أكثر من خمس دقائق. وكن إلى جانب قيامهن باختبارات الدم الضرورية قبل قيام العقيد بالعلاقات الجنسية. يقمن بالسهر على صحته وتغذيته.

ولما تساءلت مرة بشأن مسألة الوقاية من الحمل، أعلموني أن غالينا تقوم بحقنه بأدوية تجعله فاقدا للخصوبة. لذلك لم تواجهني مشكلة الإجهاض. كما كانت تواجه الأخريات من قبلي. الشيء الآخر هو أننا كنا جميعنا نناديه «بابا» ؛ حتى وإن كانت تربطه بأغلينا

علاقات جنسية. وحتى غالينا تدمرت أمامي مرة م
مبالغته في الجنس معها. ولا أظن أن هناك امرأة واحد
من حوله لم يعتليها: ولو لمرّة؟

إفريقيا

ذات يوم، صرح لي جلال بأنه قد وقع في غرامى، أو هكذا
 لي له، كنت قد لاحظت اهتمامه بي، فهو يكاد لا يرفع
 يده عني، وكان وجهه يشرق بالابتسام كلما رأيته أدخل
 المطبخ، بل كان يجرو على الهمس في أذني بأعذب كلمات
 طراء : الأمر الذي كان يربكني، وكنت في حينها أستشعر
 جنة وجودة ملحة للحنان، لأن يهتم أحد بأمرى، على
 ما لم أكن أعرف أنه شاذ جنسيا : وأن كنت على علم
 أن الفدافي بفاحشه، ففي منتهى البراءة كنت أتصور أن
 ما ع الرجال فيما بينهم؛ وإن كان أمرا مربعا، ليس أكثر
 من ممارسة طبيعية، فقد كان للقائد خلال عديدون، بل
 و بنام حتى مع كبار ضباط الجيش، أما أنا فقد كنت
 تاجرة إلى الحنان، ومجرد إبداء رجل رقيق بعض اللطف
 حوى، كان يكفى لأن يفجر في أعماقي براكين من المشاعر
 جياشة، هكذا تعددت لقاءاتنا، وأخذ جلال يلمس يدي
 عندما يمر قربى ويهمس في أذني بأنه يحبني، بل وأنه يرغب

قصة ثريا

في الزواج مني. قال لي : «ألم تلاحظي أن بحسري لا يشارك
وجهك منذ اليوم الأول؟». كلا. لم ألاحظ. قلت له. كم
غارقة في وجعي وفي عزلتي. ثم إن أي علاقة حميمة كانت
محرومة في ذلك الفضاء.

هذا العشق الذي ترعرع في صمت بيننا داخل القبر
دفع جلال لأن يجرو ويخبر القذافي برغبته في الزواج مني
الخطوة التي سندفع ثمنها غاليا. حيث سرعان ما دعا
القذافي للقائه. وأخذ يتوكل مني. وقال لنا بنبرة ساخرة «إذا
هكذا تزعمان أنكما متحابان ؟ وتتجرآن على مصارحتي
أنا سيدكم ! كيف تجرئين على حب شخص آخر أبني
الساقطة ؟ وأنت أيها الحقير كيف تتجاسر حتى على
النظر إليها؟». كان جلال يعنصر ألما. وكنا ننظر إلى
الأرض بانكسار. لا نجرو على الرد. كحلفلين مذهولين
وقد أمعن. بعد أن صب جام غضبه علينا. في أن يطردنا
شر طردة من أمامه. وحرم على جلال دخول المنزل لأكثر
من شهرين. رغم أنه واحد من حراسه. أو من فريق خدماته
الخاصة. وذلك حتى يبعده عني.

أما أنا. فستتولى مبروكة أمري. والتي سرعان ما
اندفعت إلى غرفتي وهي تزمجر : «أيتها الساقطة. كيف
تفكرين في الزواج ولم يمر على وجودك بيننا ثلاث سنوات؟
حقيقة. أنت الحق نفسك!». وجاءت آمال لتلقني درسا
بدورها : «هم على حق يا صغيرتي ! كيف يمكن أن تحبي
هذا «المخنث» ! أنه غير جدير بك». غير أن كل ما قالوه
لم يؤثر في مشاعري قدر أنملة. على العكس لقد زادوا
من انجذابي إليه. كان جلال عذبا ومهذبا. وكان أول

رجل يقول لي إنه يحبني. فما شأني وسخريتهم ؟ أليسوا جميعهم مجانين ؟

*

بعد عدة أشهر من هذه الحادثة. تناهى إلى علمنا عزم القذافي القيام بجولة موسعة في إفريقيا. وأن الرحلة ستستغرق أسبوعين يزور خلالها خمسة بلدان.... ويلتقي بالعديد من الرؤساء.... أي أن الرهان كان على درجة من الأهمية بالنسبة له فيما يبدو. وهو ما استشعرته من جهتي بالقياس إلى ذلك التوتر الواضح الذي أعترى مبروكة. كل سكان المنزل كانوا مدعوين للسفر. وأرتدت «بنات القذافي». وأنا من ضمنهن. الزي العسكري الجميل. كان يجب أن نرفع رأسه أمام الأفارقة.

في يوم 22 يونيو 2007. على تمام الخامسة فجرا. أخذت مكاني في أحد عربات موكب ضخيم توجه بنا نحو مطار «معيتقة». ودون الحاجة للانتظار. أو أي إجراء. وقد رفعت كل الحواجز أمام الركب. وصلنا بالسيارات حتى سلم الطائرة. كان نصف ركاب الطائرة من الفتيات بالزي العسكري على اختلاف الألوان. كانت بعض الفتيات ترتدي «الكاكي» والأخريات البني. وبعضهن يرتدين الأزرق. هذا الأزرق هو لون القوات الخاصة. وهو محصن للجنديات الحقيقيات. واللاتي كن يتحركن بثبات عسكري. مرفوعات الرأس. وفي نظرات ثلجية وهن مدربات عسكريا بشكل جيد: أو هذا ما قيل لي على الأقل. كنت من جهتي أرتدي اللون «الكاكي» مثل أمال. لقد كنا «جنديات مزيفات».

قصة ثريا

ولكننا كنا «جوارى» حقيقيات. في هذا الخضم، منّا عذبة من السرور غمرتني دون سابق إنذار. لقد لمس جلال جالسا في آخر الطائرة. أما القذافي فقد است طائرة أخرى.

وكان في انتظار العقيد في «باماكو»، عاصمة مالي استقبالا خرافيا! في الواقع ما كان لخيالي القدرة على تصور هكذا ترحيب. حيث فرش له البساط الأحمر، تبخ فوقه بكسوته البيضاء، والتي طرز على صدرها خاتم خضراء لإفريقيا. بينما كان الرئيس المالي، والوزراء، وكبار الرسميين يتنافسون على تقديم آيات التقدير لـ«ملك ملوك إفريقيا». وفي أفق المكان تجمهرت حشود من السكان في فرحة عارمة، أقرب لحالة «النشوة» وهم يرقصون ويغنون، ويهتفون: «مرحبا بك يا معمر».

كان هناك العديد من الفرق الفلكلورية التي تنافست على تقديم العروض التقليدية.... الكل في حالة من النشوة والترنح. حتى أنني كنت عاجزة عن تصديق ما أرى ما أسمع، وبسرعة، أخذت مبروكة دور قائد العمليات وأشارت إلينا بالتجمع على جنب. والالتحاق بركب من سيارات الدفع الرباعي كانت مستعدة للانطلاق. يقوده السائقون الليبيون المعتادون. يبدو وكأن كل من كان في باب العزيزية قد انتقل إلى هنا... الجموع المتراصة على امتداد طريق الموكب الرسمي، واصلت اهتزازها وهتافها باسم القذافي. كنت في حالة من الذهول التام... كيف يمكن أن يكون محبوبا بهذا الشكل؟ هل هم صادقون إلى هذا

الحد؟ هل تعرضوا جميعا «لغسيل مخ» : كما يحدث مع الناس في ليبيا؟

بعد هنية وصلنا إلى فندق «ليبيا». حيث قادتنا سناء، المكلفة بالبروتوكول، إلى بهو الفندق لنستريح، وتدخن على راحتنا. قبل أن ينطلق بنا الموكب من جديد. في حوالي مائة سيارة. محملة بالخيام. والتموين. والتجهيزات التي تفوق الوصف : كنا نخترق الطرقات التي تم قفلها بالمناسبة. وكان الأفارقة يصفقون أثناء مرورنا. بينما كانت الفتيات يفهقن داخل السيارات. بلى، فالأجواء كانت مريحة وشبه كرنفالية. وكنت أتأمل كل هذا وكأنني أعيش مشهدا سينمائيا. ولم أتمكن من أن أمنع نفسي من التفكير. ونحن نرد على ابتسامات الجموع المرحبة. في هزلية المشهد برمته. فهم قد أخرجونا من ظلمات الدهاليز. ليقوموا بعرضنا تحت الشمس : عنوانا لعظمة القائد.

كنت في الواقع لا أعرف شيئا عن وجهتنا. ورغم أننا كنا نرى رؤساء ووزراء وسفراء. غير أننا لم نكن نملك أي تفصيل عن البرنامج الشخصي للقائد. كنا نتابع. كما التلميذ في الدرس. دون طرح أسئلة. كانت الرحلة متعبة في البداية. حيث استغرقت الطريق قراءة الألف كلم : لاجتياز «غينيا» من الشمال إلى الجنوب. وصولا إلى العاصمة «كوناكري». التساؤل الوحيد الذي عبرت عنه الفتيات من حولي كان بشأن مكان الإقامة. حيث تمت فندقا فخما. فيه حوض سباحة. وفيه مرفص ليلي. الأمر الذي سرعان ما سأتبين أنني سأحرم منه. فبينما ذهبت آمال والأخبارات للإقامة في أحد الفنادق الفخمة بالفعل، فرضت

علي مبروكة أن اقيم مع القذافي في المقر الرسمي، أي داخل القصر بكل بساطة. كان علي أن أتناغم غرفتي مع فناء أخرى اسمها عفاف، وفي منتصف تلك الليلة، طلب مني الالتحاق بالقائد، وجدته صاحباً بذرغ غرفته جيئة وذهاباً كان عارياً كما ولدته أمه، سوداوي المزاج. وفي منتهى الفلق وظل على تلك الحال بدور حول نفسه، ممسكاً بالمنديل الأحمر الذي سبق وأن مسح به دمي، وهو يفركه بين يديه. كان في حالة تركيز غريب. حتى أنه لم يعر وجودي أي اهتمام، وحتى الفجر، عندها ارتنى فوقي بسحقني.

مع مطلع النهار، التحفت ببقية المجموعة، آمال وجلال وكل الآخرين. كانوا يقيمون في فندق رائع. وكانوا يمرحون ويلعبون في بهجة عارمة، وهو الجو الذي لم أعرفه من قبل على الإطلاق. وكانت مبروكة قد شددت علي بأن أعود إلى القصر خلال الليل. إلا أنني لم استطع مقاومة الرغبة في الذهاب للمرفص الليلي مع بقية المجموعة... كانت الأضواء تتراقص، والفتيات يدخن ويحتسين الخمر، ويرقصن جسداً بجسد مع الأفارقة. ساعتها بدأت لي مدينة «سرت»، وأهلي، على مسافات ضوئية مني. فلقد حللت بكوكب لا مكان فيه لا لقيمهم، ولا لمعتقداتهم، كوكب يعتمد فيه «بقائي» على خصال واستراتيجيات هم بمقتونها حتى النخاع. كوكب لم يبق فيه لأي شيء من معنى : وقد انقلبت فيه الأمور رأساً على عقب. كان جلال ينظر إلى عن بعد. وكان يكفي أن تتقاطع نظراتنا، ليعتريني إحساس جارف بالمتعة، وعندما اقترب مني، ووشوش في أذني ناصحاً : «إياك أن تشربي». تسربت كلماته إلى

ما في في عنفوان العشق. ورأيت في ذلك أخلاقا كريمة.
برصا علي. عكس الفتيات اللاتي ما أنفكن يحرضنني
في الشراب. في هذا الجو المحموم. وقد تصاعد صخب
موسيقى. وأكتظ المرقص برواده.... فجأة. طبع جلال
لمة ودودة على شفتي... يا إلهي! كان الأمر خارج نطاق
إصفا!

في تلك الليلة بثيت للنوم في الفندق نفسه. وتقاسمت
نرفة مع فتاة أخرى. حيث اتصلنا بمبروكة البارحة. وطلبنا
لها السباح لي بالبقاء مع المجموعة للسهرة. والغريب
يا وافقت. أظن أن «السيد» كان مشغولا! فثمة الكثير
من النساء غيري برفقته. وأعرف أنه سيلتقط المزيد على
طريق. في الصباح بدأ الجو فيما يشبه الاستعداد للمعركة.
تد أخذت مسؤولية البرونكول تصرخ مشددة : «أريدكن
مبعا في الزي العسكري. على أتم الاستعداد. وفي منتهى
أناقة». وواصلت: «سيلقي القائد اليوم خطابا في ملعب
مخم. وعلى كل واحدة أن تقوم بدورها!». حملتنا سيارات
مدفع الرباعي إلى ملعب «كوناكري». حيث احتشدت
نموع هائلة من الناس. من الشباب ومن الشيوخ. والعائلات
تي اصطحبت أطفالها.... الفرق الموسيقية..... اللافتات.
لم في أجمل بدلة. وفي أروع فستان.... وقبل أن نتوجه
حو المنصة الرسمية. اجتمع بنا نوري المسماري. رئيس
برنوكول في القيادة. وأخذ يشرح لنا : «أنا أعرف إنكن
سنن عسكريات. ولكن عليكن النظار بأنكن حقيقة
مسؤولات عن حماية القائد. المطلوب منكن تفحص
نحسية الحارس. والتحلي بالجدية والانتباه إلى كل ما

يدور حولكن». قمت إذن بدور الحارس الشخصي للقذافي وأخذت أقلد زهرة، بوجهها المنجهم، ونظراتها التي تظوف بالملعب وكأنها تبحث عن إرهابيين.

لما دخلنا إلى الملعب، وسمعت الأصوات الصاخبة وشاهدت حشود الناس، حيث كان هناك ما يزيد عن 50 ألف شخص، يصفقون للقذافي ويهتفون له، شعرت بأنفاسي تتقطع. كانت هناك أعداد كبيرة من النساء تصرخ باسمه وتحاول الاقتراب منه ولمس ثيابه، أو حتى تقبيله. وهو المشهد الذي كان يبدو لي في منتهى السخرية، وكنت أقول لـ «مسينات!»..... «الأفضل أن لا ينتبه لكم، إنه خطير. وحش كاسر». وفكرت في أمي التي قد تلمحني في التلفزيون، حيث ستنقل القناة الوطنية الخطاب على الهواء، وأنها ستتأثر بكل تأكيد لرؤيتي، رغم بفضها للقذافي وربما ستقول إن هذا الذي تعيشه ابنتي اليوم، ورغم كل شيء، ليس شئاً لا يذكر. لكنني فكرت في إخوتي أيضاً، ما الذي يعرفونه؟ وما هو تفكيرهم؟ وبدأت أشعر بالخوف، فأدرت رأسي، وأخذت أجهد لإخفاء وجهي. فتصوري لردود فعلهم، التي قد تكون عاصفة، جمد الدم في عروقي.

كان القذافي يبدو منتشياً برؤية الجماهير، كان يتجاوب معهم وبلاعبهم. كان مزهواً، يلوح بقبضة يده كأحد أبطال الرياضة، أو كأحد آلهة الكون، وكانت الفتيات في الزي العسكري من حوله على درجة من الانبهار. إلا أنا، أؤكد لكم، لم يبهرني ذلك ولا لثانية، ولا لجزء من ثانية. بل كنت أقرأ على جبينه: بين قبعته البنية ونظاراته الشمسية السوداء، كلمات: مريض، مجنون، خطراً.....

مباشرة بعد الخطاب، أخذنا الطريق من جديد، واستمر بنا الركب لساعات طويلة، وحتى وصلنا «ساحل العاج»، بعد أن قطعنا «سيراليون». وكان علي أن أنقاسم غرفتي، بالفندق الذي كان خصص لإقامتنا هناك، مع فريدة وزهرة. ذلك لم يزعجني، فقد كان السرير ضخما بما فيه الكفاية. وكان الجميع سعداء، ويتأهبون للنزول لحوض السباحة، وكنت أتحرق لأصطحبهم، حيث لم يتسنى لي من قبل الاستمتاع بمثل هذه الأشياء. لكنني لم أكن أملك أمري، وقد يطلبني العقيد في أية لحظة! هنا نصحتني فريدة : «يكفي أن تعتذري بالدورة الشهرية، هل تعلمين أنه الأمر الوحيد الذي يردعه، لكن احترسي ! فإنهم سيتثبتون من ذلك!، لذلك، يجب أن تدلكي بعض من أحمر الشفاه على المندبل الصّحي....وسيمر الأمر!». وجدت الفكرة على درجة من الدهاء. هكذا بعد ساعتين، وعندما جاءت فتحية تأمرني بصوتها الأجلج أن ألتحق بالقائد. تظاهرت بأنني مسبكة. وأخذت أردد في وهن أنني جد مرهقة. فرفعت حاجبيها متعجبة كأنني استهزا بها. إلا أنني واصلت : «إنها الدورة الشهرية!».

- هكذا إذن ! هات لأرى !

- لا تقولي أنك ستقومين بالمعاينة !

- هيا، اكشفي !

كانت حركة مهينة، غير إن رؤيتها للمندبل المبلل بالماء. وقد طفح بلون أحمر الشفاه جعلها تفتنع على مضض، هكذا أكتفت بأصطحاب فريدة بمفردها إلى مصيدة العقيد.

هذا الانتصار «المهم» فجر في أعماقي مشاعر غير مسبوقة بالحرية. وبدأت أشعر بأنني أخف من ذرة غبار. حتى إن ذلك قد دفعني. وبكل غباء. للإسراع باللاحاق ببقية الفتيات وبجلال في المسبح. هناك بدأ لي المكان قطعة من عدن. موسيقى. ومشروبات. وترجيلة. ورغم أن لا أحد يصرح بذلك. كان ثمة رغبة جامحة لدى الجميع للأخذ بالنار. وأنه ولو لبضع ساعات نحن نملك الحق في هذه الرفاهية. فنحن هنا نعامل باعتبارنا «جماعة القذافي». يتسابق عمال الفندق على إرضائنا. ولم نعد مجرد الشردمة المحتقرة في بيت القذافي. هكذا ولو لظل أمسية. وجدت عذاباتنا اليومية. والإذلال المتواصل بعض التعويض. أنه نعيم مزيف. وزائل لا محالة. لكنه يؤسس لمتنفس ضروري لتوازن كل منا. لنقل أنه صمام أمان. بعد فترة. تبين لي أن مثل هذه اللحظات النادرة. هي التي تحمي البعض من الانهيار التام.

غير أنني وعلى حين غرة. سمعت صوتا يصرخ بأسمي: «ثريا». كانت فتحية التي رأت أنني في حوض السباحة. وأخذت تصرخ. وقد خرجت عن أطوارها. «تقولين لديك العادة الشهرية. وتذهبين للمسبح؟». كان ارتباكِي على أشده. حتى أنني لم أجرو على النطق. وواصلت صراخها. وهي تصفعني على وجهي بعنف. «كاذبة!». كانت فريضة هي من وشت بي. وبسرعة تم اقتيادي نحو إقامة العقيد. وأخبروني ونحن في الطريق. إن عقوبة «السيد» ستكون على قدر الخديعة. وبينما كنت انتظر في غرفة صغيرة. أتت غالبنا لرؤيتي. وأخذت تعاتبني بحنان. «ثريا

كيف وقعت في هكذا فخ ؟ بابا معمر غاضب جدا. وطلب مني التحقق من الأمر. حبيبتني الصغيرة ! أنك تجعليني في موقف صعب ! ماذا علي أن أقول ؟». لا شيء.. لم تقل شيئا. أو بالأحرى كذبت لتحميني. ومع ذلك تركوني على إفراد: حبيسة غرفتي بقية اليوم.

في اليوم التالي. أخذنا الطريق من جديد نحو «غانا». حيث ستكون المرحلة الأخيرة من الجولة. والتي سيحضر فيها العقيد اجتماع رؤساء دول الإتحاد الإفريقي. الذي تم في «أكرا». أستغرقت الرحلة التي بدأت لي وكأنها لن تنتهي. ساعات وساعات. وعند وصولنا. كان هم فتحية أن تتأكد من خبر الدورة الشهرية. فأنت «لمعاينتي» : لتجد إنه لا أثر لذلك. فحدقت في بروتود. دون أن تنطق بكلمة. لكنها أخبرت مبروكة بالأمر. التي وجهت لي صفقة ثقيلة. قبل أن تجرني إلى القذافي.

على إن ما حل بي في غرفة العقيد لا تفيد فيه التفاصيل: لنقل إنه صفعني. وضربني. وبصق علي..... وشتمني. وأنتي خرجت من عنده متورمة الوجه. ثم حُبست في غرفة. وعلمت فيما بعد أنه قد تم ترحيل غالينا إلى طرابلس على الفور.

قالت لي مبروكة. وهي تنظر إلي بازدراء عبر ظלلفة الباب : «تريدين الفرار. هكذا ؟ ولكن لتعلمي أنه أينما ذهبت. سيجدك معمر ! ويقتلك».

هشام

لم تكن رحلة إفريقيا نهاية معاناتي. بل كانت بالأحرى بداية عزلتي الثامة. هل سئم القذافي مني ؟ هل تجاوزت «سلعتي» تاريخ الصلاحية ؟ لا أدري. ليس ثمة مع القذافي أي منطق أو ما يقبل التفسير على الإطلاق. كنت لا أعرف حتى على أي نحو سيمر يومي. ولا كيف سيكون الغد. فقد كان هو من يقرر ما الذي يحب علي أن أفعل. كنت رهن إشارته. ملك يديه. دون أي أفق بخصني. غير أنه، صبيحة عودتنا من الجولة الإفريقية الكبرى. طلب من مبروكة أن تقودني إليه. ليعلن لي : في مزيج من النفور والتقرز: «أنا لم أعد أريدك. أيتها الرخيصة!». سأدمجك في الحرس الثوري. وستذهبن للسكن هناك. هيا. اغربي عن وجهي!».

عند هبوطي. ناولتني مبروكة هانفا جوالا. وهي تتمتم بلامبالاة «هذا. إذا ما رغبت في الاتصال بوالدتك...». لم يكن الأمر منتظرا !. واتصلت بأمي على الفور.

كانت فرحة والدتي بسماع صوتي لا توصف. وقالت لي: «لقد شاهدتك في التلفزيون. وأنت بالزى العسكري خلف القذافي بملعب «كوناكري». وقالت لي: أريد أن أراك يا عمري. لقد اشتقت إليك كثيرا!». أمام هذه العاطفة الجياشة. تسلحت بشيء من الجرأة. وفاتحت مبروكة في رغبة أمي في المجيء لزيارتي. وكانت مفاجأتي كبيرة عندما كان جوابها: «يمكن لها أن تزورك بعد الغد». نعم. قالت لي بأنه في إمكان أمي أن تأتي لزيارتي في باب العزيزية! ورغم أن مجرد تخيل دخولها إلى هذا المكان كان يثير ذعري. إلا أنني كنت بحاجة ملحة إليها. فشرحت لها كيف يمكن أن تصل حتى مرآب القيادة. وإن أحد الأشخاص سيرافقها من هناك إلى مقر إقامة العقيد. كنت على أمل أن يستقبلها الجميع بود. قبل أن يتبين لي أن ذلك كان سذاجة من طرفي. فقد عاملتها مبروكة وسلمى وفتحية بكل قضاضة. وازدراء. وعندما سألت عني. اكتفين بالجواب في تعال: «تريدن رؤية ابنتك؟ إنها في الأسفل!».

الوحيدة آمال. التي قبلتها مرحبة ولله الحمد. والتي جاءت تخبرني بقدموها. فأسرعت إليها. وارتفعت في أحضانها. وبكيت طويلا على صدرها. كنت عاجزة عن الكلام. ماذا أقول لها؟ وعما أحكي؟ أو من أين أبدأ؟ فهذا القبو يتحدث بنفسه. واكتفيت بالبكاء حتى أن صوت شيقاتي أخذت تزعج البعض. فجاءت مبروكة لتسخر مني. الأمر الذي جرح أمي بشكل واضح... بعد هنيهة قالوا لنا بكفي هذا. وطلبوا من أمي المغادرة.

بعد أيام قليلة. قدمت غاليينا إلى غرفتي ممتعة الوجه.
وقالت لي إن العقيد يطلب رؤيتنا. وشددت : «على
الأرجح أنه سيحطالنا من جديد بتوضيحات حول ما حدث
في الجولة الإفريقية». ذهبت. وتساءلت في استغراب:
«أليست لديه مشاغل أهم من هذا الموضوع؟!».

كان بالفعل هذا هو سبب الاستدعاء. لأنه سأل الممرضة
على الفور : «لماذا كذبت وقلت إنه كان لديها العادة
الشهرية؟».

- لم أكذب ! إنها فتاة صغيرة. ويمكن للدورة أن تكون
مؤقتة وغير منتظمة.

- لست إلا كاذبة ومخادعة! لقد أخبرتني فريدة بالحقيقة.
وقال موجهها حديثه لي : «أما أنت. أيتها الرخيصة. انزلي
إلى غرفتك. وانتظري لتري!».

كانت المرة الأخيرة التي أرى فيها غاليينا في باب العزيزة.
بعد فترة طويلة. في بدايات الثورة. تفاجأت برؤيتها في
التلفزيون. حيث نقلوا خبر عودتها إلى «أوكرانيا». وقد
دفنت في أعماقها أسرار تجربتها في ليبيا. بعد عدة أيام من
ذلك المواجهة العاصفة. ناداني القذافي من جديد. وانقض
على جسدي بوحشية المنتقم. حتى أنني خرجت من عنده
مترنحة. تفرش الكدمات جسدي. كنت في حالة مزرية:
حتى إن آمال «غ». وهي آمال أخرى تعيش معنا في الغيو.
لم تكن تهتم في العادة بأمرى. تأثرت جدا لحالي. وقالت
لي : «أنت. لا بد أن أخرجك قليلا من هنا!». غير أنني لم
أحرك ساكنا لما تقول. كنت قد فقدت الأمل كليا في أي

فرج، وبقيت على حالي أياما بطولها. أغرق في يم من اليأس في صمت، وحتى عادت آمال إلى غرفتي، لتقول لي في نشوة المنتصر: «لقد وافقت مبروكة على أن آخذك معي لزيارة أهلي!». وبالفعل قضيت ذلك اليوم بطوله في بيتها، مع أسرتها، حيث فرحت بنا والدتها وأختها الصغيرة، وتغذينا وجبة احتفالية من الكسكسى اللذيذ.

بعد ثلاثة أيام، حصلت على إذن جديد بالخروج. بدت هذه الحرية «المشروطة» الجديدة غريبة، وغير قابلة للتصديق. كيف أفسر هذا الانقلاب المفاجئ في موقف سجانني؟ غير أن تلك الساعات المحدودة التي كانوا يسمحون لي بقضائها خارج القبو لاستنشاق الهواء، كانت كافية لأقبل بالأمر دون أسئلة. ولم أعد أرغب حتى في الفرار. لقد انقطع كل أمل عندي. وكل حلم. لقد أصبحت كمن واره التراب، مدفونة، محرومة من أي مستقبل خارج باب العريضة. لقد صرت واحدة من بين أخريات كثيرات: مملوكين لسيدنا «الفذافي». لذلك لم يكن خاطري يتصور حلول أي رجل آخر في حياتي.

*

ولكن، في أحد المرات أخذتني آمال «غ». للغذاء في أحد مطاعم منطقة «الحفرة». الشهيرة بأسواق ومطاعم السمك، وبحركة الصيادين على شاطئ طرابلس. ولما هممنا بمغادرة المكان، كادت آمال أن تصطدم. وهي تحرك سيارتها للخلف، بسيارة أخرى. الأمر الذي أغضب صاحبها، فترجل وهو يرفع صوته: «انتبهي!». كان على

درجة من الانزعاج، ولكنه سرعان ما هداً عندما وقع نظره عليّ. بادلت نظره مهتمة، وابتسمت له بود، وقد اجتاحني تيار جارف من الانجذاب، كمن صعقه من كهربائي. لم أكن أعرف أنه يمكن للمرء أن يعيش مثل هذه المشاعر، أن تهزه كزلزال عنيف، دون أن يملك حبالها أي شيء. كان يشع حيوية؛ في الثلاثين من عمره، متوسط الطول، ضخيم البنية، مفتول العضلات، أسود العينين والشعر. الموقف برمته أربك كياني، فلم أجرو حتى على النطق، بينما انطلقت بنا آمال نحو باب العزيزة : لتتواصل حياتي في رتابتها الحزينة، بين القبو وسرير القذافي، بين النفور والخضوع.

في إحدى الأمسيات، سمحوا لي بالخروج مع آمال من جديد، كانت تريد أن تأخذ أختها إلى مدينة الملاهي، فخرجتني معها لركوب مختلف الألعاب، وبينما كنا نهتز في حبور داخل لعبة «الكسكاس»، المصممة على هيئة غربال كبير، بكراسي على الدائرة يتثبت بأطرافها اللاعبون، وندور بهم في نقلات سريعة من الاتجاه إلى الاتجاه المعاكس.

وكنا نضحك، ونصرخ، ونحن نجهد في ضبط توازننا : اكتشفت أن الشخص القائم على تشغيل اللعبة لم يكن سوى ذلك الشاب الذي التقيت به ذلك اليوم قرب البحر. وتقاطعت نظرانا من جديد، وأخذ بشاكسني بتسريع دوران الصحن الكبير. يا للرعب ! ويا لها من إثارة ! وكنت كلما تشبثت في خوف، وازدادت ضحكاتي، زاد من إيقاع السرعة حتى كدت أموت رعباً !.

عندها رفع صوته يحدثني : «لقد تقابلنا سابقا. أليس كذلك؟».

- آه. تذكرت الآن. قلت له وكان الأمر لا يحمل كثير دلالة. وسألته: ما اسمك ؟

- أسمي هشام. وأضاف بسرعة : «هل يمكن لي برفق الهاتف؟».

كان المشهد عجائبا ! وفي منتهى الغرابة !. وقرر هو أمام صمتي أن يعطيني رقبته، ولأنه لم يجد ورقة يكتبه عليها. أخذ يلقنني أياه. فلم أتردد في تسجيله. بينما سارعت آمال بإبعادي عن المكان.

كان يكفيني هذا اللقاء ليملئني حبورا. كنت أحلق أثناء عودتنا إلى باب العريضة على جناح من السعادة. وقد تتركش الوجود من حولي بألوان قوس قزح. واتصلت به فور دخولي الغرفة. كنت أعرف أن ذلك عملا جنونيا.... ولكن سرعان ما انساب صوته يسألني :

- أين أنت؟

- في المنزل.

- سعدت برؤيتك في مدينة الملاهي. لقد كانت صدفة جميلة. أليس كذلك ؟

- ما كنت لأخطئك. وأيا كان المكان الذي قد أنقطع فيه معك.

- أريد أن أراك مرة أخرى. أين تشتغلين ؟ أم لازلت

طالبة؟»

آه. هذا السؤال ! كان علي توقعه. ماذا يمكنني أن أجيب ؟ أنا لا أشتغل. أنا لا أفعل شيئاً، وليست لي حياة أصلاً ليكون لي إهتمامات فيها. أنا أعيش في جحيم. في هاوية. في دوامة. وانخرطت في بكاء مرير. وأنا أجيبه :

- لا شيء، أنا لا أفعل شيئاً.

- ولكن، لماذا تبكين ؟ احكي لي !

- لا أستطيع.

فحللت المكالمة ودموعي تنهر كسيول جارفة. عمري الآن ثمانية عشر سنة. صديقتاتي في المدرسة تحصلن على شهادات. وربما بعضهن قد تزوج. وأخريات تواصلن دراستهن. وأنا هنا. أتذكر أنني كنت أحلم في بداية تعليمي الإعدادي أن أصبح طبيبة أسنان. حدثت أمي بذلك. كانت الأسنان والابتسامة أول ما ألاحظه لدى الناس، وكنت أقدم النصائح للجميع في كيفية الاعتناء بالأسنان وتبييضها.

طبيبة أسنان ! الحلم كله مثير للضحك الآن. أية سخرية لو حدثت سكان القبو بذلك.

لقد تحطمت أحلامي. وسُرقت حياتي. ولا أستطيع حتى البوح بذلك. فأنا أخجل من أن يعرف الناس بهذا الذي يفعله القذاقي معي، أشعر أنني انتسخت به. بماذا أجيب هشام ؟ ... غير أنه لم يكن لدي وقت للتفكير. حيث يؤدي علي من الطابق العلوي.

«انزعي ثيابك يا قحبة !». هذه المرة فاضت الكأس. انفجرت في البكاء وأنا أقول له : «لماذا تقول لي ذلك

دائما ؟ لماذا ؟ أنا لست فحبة ؟». هذه الكلمات هيجته.
جن جنونه، وزأر قائلا : «اصمتي. يا فحبة؟» ، وأنقض
علي ينتهك جسدي. ليفهمني أنني لست إلا «شيئا». لا حق
له في الكلام. عندما نزلت إلى حجرتي. رأيت على الهاتف
المخفي تحت الوسادة أن هشاما طلبني خمسة وعشرين
مرة. كان وجودي بهم شخص ما على الأقل.

في الليلة التالية، ناداني القذافي وأطلق مكبونات مرة
أخرى على جسدي. أجبرني على استنشاق الكوكايين،
وضعه على لساني. غصبا عني. أرعبني الأمر، سال الدم
من أنفي. وفقدت الوعي.

عندما استيقظت كان قناع الأوكسجين على وجهي.
بالمستوصف الذي تديره الأوكرانيات في القيادة. وكانت
المرضة إلينا تربت على يدي. وتنظر إلي بقلق. هي
لم تنطق بأي كلمة، لكن شغفيتها كانت تتمم بكثير من
الإشفاق. وما إن أفقت حتى حملوني إلى غرفتي، ولازمة
فراشي يومين كاملين. عاجزة تماما عن الوقوف. كانت
صورة هشام وحدها تشدني إلى الحياة.

لم تعلم آمال «غ» بما حدث لي إلا فيما بعد. كانت حالة
قد تحسنت نسبيا. ورغم أنني لم أكن راغبة في الحديث. أ
أنها أمسكت بيدي وأنهضتني بالقوة. وأدخلتني لدى العقير
كان جالسا أمام حاسوبه، لكن آمال لم تتردد في رفع صوته
بالتأنيب : «سيدي ! ليس من المعقول أن تعطي الكوكاي
للصغيرة ! إن هذا جد خطير ! إنه إجرام ! ما الذي خد
بيالك، ما الذي وقع ؟». كانت تواجهه : وبتحد صاء

الطرائد

يدها في يدي. ويدها الأخرى في خصرها، وكانت تنتظر منه إجابة. نعم. تجرأت وأخذت تحاسبه ! لكنه صرخ في وجهها مشبرا إلى الباب : « اخرجي من هنا ! اتركيها ! ». وقفز علي يسحق نهدتي بيديه. ثم أدار الموسيقى. وصاح بي : « ارقصي ! ». بعد ذلك، ألقى بي على الأرض : « لماذا تكلمت يا فحبة ؟ ».

- أنا لم أقل شيئا ! عرفن ذلك بمفردهن ! ».

لكنه ضربني.... واغتصبني. ثم تبول فوقني. ثم صرخ في وجهي : وهو ذاهب للاغتسال : « أغربي عن وجهي ». نزلت وكلتي مبللة. بانسة. وأنا على يقين بأن أي حمام في الوجود لا يمكن له أن يغسل عني تلك الأدران.

*

لم تهدأ آمال « دغ » بشأن الموضوع. بالرغم من كونها مفتونة بالعقيد. بل ربما هي تعشقه. رغم أن مثل هذا الأمر يكون لمن عرفه عن قرب غير قابل للتصديق. فهي لا تكف عن التردد بأنها مدينة له بالمنزل الذي حصلت عليه لعائلتها. وبسيارتها. وبالرفاهية التي تعيشها. في الواقع أنا لم أنافشها في هذا الأمر. كنت من طرفي أحمل نجاهه قناطر من الكراهية. على أنني كنت أعرف بأنه يمكن لي أن أصدقها حين تقسم : « ورأس معمر ». وكانت لا تتردد في توقيف أي واحد عند حده في باب العريضة. في أحد المرات نعتها سعد الفلاح بالقحبة. فلم تتردد في أن تصرخ في وجهه : « الأفضل لك أن تصمت. أبها المخنث ! ». كانت دائما تحتج. وتهدد، ولا تسمح لأحد بالاقتراب منها.

ولا تغير أي اهتمام لمن حولها. ولكن حالتني النفسية الصعبة أفلقتها كثيرا. هكذا أطلت علي في أحد الصباحات وهي تقول : «هيا تعالي. سأخذك لبيتني. لقد حصلت على إذن بهذا الشأن. خذي ما بكفيك من ملابس لبضعة أيام».

قفزت فرحا وتعلقت برقبتها. لكنها أكتفت بأن قالت: وهي تتحرر من عناقي : «يكفي. بكفي!». كانت فاسية كالعادة. إلا أن الدموع داهمتها. ثم انطلقنا نحو أسرتها. أم. ما أحلى الإحساس بحياة طبيعية : منزل أسري. غذاء جماعي. تذكرت عائلتي : وأتصلت بأمي : وقلت لها : «تعالي خذي للبيت».

هنا قفزت آمال وهي تشير بإصبعها محذرة : «لا تقولي أنك عندي في المنزل ! هذا ممنوع ! وإذا أخبرت والدتك بذلك. أرجعتك إلى باب العزيزة فورا». أرعبتني. كنت مستعدة لفعل أي شيء. مغايل ألا أعود إلى القبو. ورؤية القذافي ومبروكة. كنت مستعدة حتى للكذب على أمي. وهو أمر لم يحدث بعد.

في هذه المرة اكتشفت أن آمالا تعيش حياة خفية أخرى. لا علاقة لها بما تعيشه في باب العزيزة. واكتشفت كيف تتعامل مع شبكة واسعة توفر لها ما تحتاجه من الكحول. وأن لها نزوات ليلية بالسيارة. وصدقات بالشرطة: فبالكاد كنا نمر على شرطي. أو ضابط دون أن يحببها. ويسألها : «كيف حالك يا آمال؟». وكيف أنها تستهلك كوتيل الـ «راد بول» و «الفودكا». وهي تقود سيارتها ثم

تعطر فمها قبل أن تعود للمنزل. وفهمت أنها متعطشة إلى المال. وأن لها علاقات واسعة مع كبار رجال الأعمال الذين تتلقى منهم عمولات كبيرة مقابل خدمات وتسهيلات.... وسرعان ما فهمت أنها أرادت أن تستعملني كطعم «لصيد» الرجال المنتهزين والأثرياء. حيث وجدت نفسي مع فتيات أخريات : في سهرات ماجنة يتزاحم عليها وجهاء البلد ومشاهيره. حيث تستهلك الكحول والمخدرات. وتمنح الأموال مقابل الخدمات الجنسية. آه، هذا ما زاد مني أن أفعل ؟ ثروتي ليست إلا في هذا الجسد الذي كرهته ؟ حتى خارج القبو. قيمتي الوحيدة مقتصرة على هذا الجسد؟ ولعل صلتي بباب العزيزية كانت تضيي علي سحرا خاصا في عيون بعض الرجال. قضيت ليلة في منزل أحد الأثرياء من أقارب القذافي مقابل 5000 ديناراً. واحتفظت بها أماً. ولم استطع مطالبتها بذلك أبداً. لقد كنت على نحو ما رهينة عندها.

*

في أحد الأيام، كنت أطمئن على أحوال أمي بالهاتف. أعلمتني أن أسرة «إيناس»: وهي صديقة طفولتي في بنغازي، قد انتقلت للعيش في مدينة طرابلس، وأنها ترغب في لقائي. أعطتني رقم هاتفها. فاتصلت بها على الفور. لقد كنت أرغب في إعادة بناء علاقاتي مع أشخاص طبيعيين. كانوا في حياتي سابقاً. دون أن أكون متأكدة بأن ذلك سيكون قابلاً للتحقق. أجابني إيناس بسرعة وبحماس كبير. فطلبت عنوانها، واقترحت زيارتها في التو. فأجابني: «آه جيد؟. يمكنك الخروج من باب العزيزية إذا؟». يا إلهي لقد كانت

تعلم ! لقد وقع علي الأمر وقع الصاعقة. كيف تجرأت أمي على مصارحتها بالحقيقة. بينما كانت تكذب منذ البداية على كامل الأسرة ؟ استقبلت «سيارة أجرة» : وطلبت من إيناس تسديد ثمنها. فقالت ممازحة : «كيف لفنافة تعيش لدى الرئيس لا تملك أجرة «تاكسي ؟». ابتسمت دون إجابة. ما الذي تعلمه حقا ؟ ماذا يعني لها «تسكن لدى الرئيس» ؟ هل تعتقد أن الأمر كان باختيارى ؟ هل تظن أن لدي مكانة وعملا حقيقيا ؟ ولكني كنت مضطرة للحذر بشأن كل ذلك.

دخلنا إلى المنزل. حيث استقبلتني كل العائلة بترحاب كبير. ونحن في هذا الجو الجميل اقترحت إيناس في حماس : «ما رأيك لو نستدعي والدتك لتلتحق بنا؟». لكنني أجبتها في رفض قاطع :

- لا. لا !

- لماذا ؟

- لأن ذلك غير ممكن!... أنا الآن أسكن عند صديقة. خارج باب العزيزية. وهي لا تريد أن يعرف أحد بذلك.

نظر إلي كل الحاضرين بصمت وبارتباب. هكذا إذا. ثريا الفتاة الصغيرة تكذب على أمها. أصبح الجو ثقيلًا. سأل أحدهم : «ما علاقتك بباب العزيزية؟».

- لا أرغب في الحديث عن ذلك. أكيد أن أمي قصت عليكم حكايتي.

وهنا أشعلت سيجارة. الأمر الذي سبب مزيجا من الذعر والاستنكار في عيون أفراد العائلة. لقد تحولت في نظرهم لمنحرفة. حاذت عن جادة الصواب.

قضيت الليلة لدي إيناس، أراحني ذلك قليلا. فإن تلك العودة الخاطفة لذكريات الطفولة، كان من شأنها اضعاف شيء من البهجة على أعماقي. وكنت أفكر بأن أمالا «غ» ستجن حتما من الفيض. حيث نعمدت أن لا أرد على مكالماتها العديدة، ونداءاتها المتكررة. وحين أجبتها في صباح الغد. أخذت تصرخ : «كيف خرجت دون استئذان؟».

- أحتاج إلى استنشاق قليل من الهواء، أتفهمين ذلك؟ لديك أشعر بأنني في سجن جديد. شكرا على إخراجك لي من باب العزيزية. ولكن امنحيني الآن فرصة لأتنفس قليلا.

واصلت صراخها، وانخرطت في البكاء. أخذت إيناس السماعه لكي تشرح لها : «أنا صديقة طفولتها، وهي في حماية عائلتي، لا تقلقي». لكن أمال ألحت : وشرحت مهددة بأنني أضع نفسي في وضعية خطيرة جدا. ولا احسب نتائجها. انتهت إيناس إلى ان تعطليها عنوان البيت. فأجابتها على الفور : «أنبا قادمة». هذا ما كنت أخشاه. الملجأ الوحيد المتبقي لي حيث لا أحد من باب العزيزية يفكر فيه، تم كشفه. أحسست أنني كالطريدة. اتصلت بهشام وقلت له بصوت متهدج : «أرجوك، تعال لتأخذني بعيدا من هنا. لا أريد أن أرى أحدا غيرك».

لم تمض إلا بعض دقائق حتى كان هشام أمام الباب، وكما لو أنه اختطفني أسرع مبتعدا. غابت سيارته في طرقات طرابلس، ثم ضواحيها باتجاه الربف. كان ممسكا

بمقود السيارة بكل يديه. في تركيز كبير على الطريق. كنت أنظر إليه خفية. رأسي إلى الخلف على المقعد. ومسددة بارتخاء كما لم أفعل ذلك منذ مدة طويلة. تعطلت لدي ملكة التفكير. فلم تكن لدي أي خطة. كنت أبتسم. لا أملك إلا الثقة في هذا الرجل الذي أشاهده للمرة الثالثة لا أكثر. وهو ما لم أخطئ بشأنه. فقد كان هشام يملك القوة والشجاعة في آن. قادني إلى «استراحة» بمنطقة عين زارة. وقال لي : «ارتاحي قليلا الآن. أنا أعرف قصتك. ومن هنا فصاعدا لن أترك أي مخلوق يؤذيك». كانت آمال «غ» قد اتصلت به. دون علمي لتحكي له صليتي بباب العزبية. وتحذره بأنني فتاة لا تناسبه. وها هي تحاول الاتصال بي. وتطلبني على هاتفي بالبحر. قال لي هشام : «أجيبها. ينبغي أن لا تخافي منها. قولي لها الحقيقة».

رفعت السماعة بتوتر. كانت تصرخ «ثريا أنت مجنونة! تبحثين عن المشاكل. كيف تجرئين على الفرار؟ بينما كنت قادمة لاصطحابك؟».

- دعيني وشأني. أنا بعيدة الآن. أسكن عند صديقة.

- تكذابين. أعرف أنك مع هشام !

قطعت المكالمة. افتك هشام الهاتف مني وطلبها. وقال لها : «اتركيها بسلام. انسيها. يكفي ما فعلتموه بها من أذى. من هنا فصاعدا. أنا الذي سأحميها. يمكنني أن أقتل إذا فكر أحد الإساءة إليها».

- أنت لا تعرفني يا هشام. ستدفع ثمننا غالبا جدا. وستجد نفسك في السجن.

قضيت مع هشام ثلاثة أيام من السعادة الحقيقية. وذلك رغم أنني خلال الأربع والعشرين ساعة الأولى لم أنقطع عن البكاء. أعتقد أنني سكبت فائض دموعي المتراكمة مدة خمس سنوات. كان هشام صبورا، رقيقا، مطمئنا. يمد اللقمة إلى فمي، يمسح دموعي، ينظفني. لم أعد وحيدة. وبالنهاية. بدأت أشعر بأنه من الممكن أن يكون هناك إنسان في حياتي بعد باب العزيزة.

كان لخبر فراري وقع القنبلة في منزل القذافي. وقد اصطحبت آمال «غ» إيناس لبيتنا لتخبر والدتي بالأمر. والتي اتصلت بي مباشرة بالهاتف. وهي ترمجر : «دمرتيني يا ثريا. منذ شهرين وأنت تكذبين علي ! كيف أمكنك ذلك؟ أنت في المدينة. تدخنين. وتعيشين مع رجل غريب. إلى أي شأن صرت يا صغيرتي ؟ هل صرت مومسا ؟ إنني أتمنى الموت على نخيلك في عيشة الفجور والفسق. أه يا بُنتي. لقد خيبت ظني!». بهذه المكالمة كنت قد تلقيت الضربة القاضية. كل المظاهر الخارجية كانت ضدي. رغم أنني لم أفعل شيئا غير أنني سعيت لأن أحيا. وأن أخرج من الكابوس؟ بعد مكالمة أمي، جاءت مكالمة آمال «غ». وهي تهدد : «مهما فعلت، ستعودين إلى باب العزيزة». كانت فرقة من الأمن الداخلي في سيارتين رباعية الدفع. قد اقتحمت منزل عائلة هشام. وهددوا أهله بضرورة تسليمي أو النيل من أبتهم : «أين ابنكم ؟ عليه إعادة الفتاة التي اختطفها». هنا اتصل به شقيقه ليخبره بالأمر. وهو ما أصاب هشام بقلق حقيقي بشأن أسرته. هكذا. وبعد ثلاثة أيام، قررنا رفع الراية البيضاء. وسقط في أيدينا.

عندما عدت إلى بيت أمال «غ» : خيرتني هذه بين أن تقودني إلى أهلي أو إلى باب العزيزة. هنا اخترت العودة لبيتنا. دون أن أعرف أن الأمر سيكون على درجة من الضراوة. حيث وجدت أنهم قد فقدوا الثقة في. وقد استقبلتني أمي بنظرات صارمة. كأن وجهي صار عنوان دناءة واحتقار. كأنني لم أعد ابنتها المختطفة. التي عذبوها. كأنني متهممة : أو أنني فتاة ضائعة. ورغم أن أبي قد استقبلني بحنان أكبر. وأخذ يتأملني لأنه كاد أن لا يعرفني: وهو يتمتم : «أظن أنك كبرت قليلا. بل هرمت» : إلا إنه وبسرعة. وكأن عليه أن يؤدي دوره كأب. طلب مني إيضاحات حول علاقتي بهشام ؟ فقصصت عليه اللقاء المفاجئ بهشام وشجاعته وهدوئه وأخلاقه العالية. ولطفه معي. ورغبته في الزواج بي. كان يستمع إلي بروح متشككة. وقد انتصت بيننا مسافة فاصلة غير معلنة.

مقابل هذه العلاقة الجديدة بهشام : منعتني أمي من الخروج من المنزل : خوفا من هذا الخطر الجديد أكثر من الخطر المحتمل من باب العزيزة. وقد اضطرت إلى اختلاق الحيل. وللتظاهر بمصاحبة أبي في بعض الشؤون. والإفلات منه لمقابلة هشام. الذي وفر لي كمية من السجائر وشريحة جديدة لهاتف الجوال. ومع حصولي على رقم جديد لم يعد بإمكان أمال «غ». ولا مبروكة الاتصال بي بتاتا. إلا أنني لم أكن سعيدة مع ذلك. فالأجواء كانت جد مشحونة داخل المنزل. وكنت أشعر بأنني أكاد أختنق. ولم أكن أستطيع التدخين إلا سرا في الحمام. ثم أعطر فمي للتغطية على رائحة التبغ. لقد كنت كمن

وضعود في سجن انفرادي لا أحد يناقشني ولا أحد يتبادل معي أطراف الحديث.... وذات صباح، طرق سائق باب العريضة باب البيت، أرسلوه لأصطحابي : «تعال يا ثريا، يطلبون حضورك هناك».

ذهبت معه. حال وصولي قادتني مبروكة بوجيها الجامد إلى أحد زوايا المختبر، حيث أخذت مني أحد الممرضات الأوكرائيات، ثلاث عينات من الدم : ملأت ثلاثة قوارير طبية. كان يجب أن أنتظر بعدها في قاعة استقبال صغيرة ساعة من الزمن : قبل أن تأتي سألمة ميلاد في سحنتها المنجهممة. وتقول في صوت أجش : «اصعدي!». كان الغدافي في انتظاري بلباس رياضي. وقميص قطني. وسارع بلقي تجاهي بكلمات بذيئة : «يالك من فحبة ! أعرف أنك مارست الجنس مع آخرين!». وبصق في وجهي، ثم ضاجعني. قبل أن ينهض وينبول علي جسدي. وهو يقول في كل برود : «ليس أمامك إلا حل واحد : أن تشتلي هنا. وتنامي في منزلكم. لكن أريدك تحت تصرفي من التاسعة صباحا إلى التاسعة ليلا. يجب أن تنقيدي بهذا البرنامج. وفي كامل انضباط الحرس الثوري».

الفرار

في الغد. وعلى الساعة الثامنة والنصف تحديدا. دق سنانق باب العزيزية جرس بيتنا. كان علي أن أذهب إلى العمل. وذلك رغم أنني لم أكن أعرف تماما ماذا علي القيام به في هذه الوظيفة الجديدة ؟ كنت أرجو ببساطة ألا يكون لي أي احتكاك بالقذافي. وكنت أتساءل وأنا في الطريق لباب العزيزية : ما الذي يجب أن تقوم به الـ«حارسة الثورية»؟ وكيف يمكنني الدفاع عن «الثورة» ؟ إلا أنني سرعان ما عرفت سيناريو المهمة التي كانت في انتظاري : ليس أكثر من تقديم المشروبات لضيوف القذافي الأفارقة طوال اليوم! وأن أستمّر متواجدة في المنزل عينه. مع الأشخاص أنفسهم و«المعلمة مبروكة» نفسها. وهي المهمة التي استمررت في تأديتها حتى الساعة الثالثة فجرا. فاشتكت إلى مبروكة: «ليس هذا ما وعدني به القائد. قال لي بأنني سأنام في بيتي». لكنها ردت بلا مبالاة : «مع ذلك ستقضين الليل هنا».

ولكن لم تعد لدي غرفة. حيث إن فتاة «جديدة» حلت مكاني. وكفتاة عابرة استعددت إلى النوم على كنية في قاعة الاستقبال. وحالما غادر آخر الضيوف الأفارقة، نُوديت مع «المحظية» الجديدة إلى جناح القائد. ما الثوري في هذا العمل ؟ لقد خُدعت بكل بساطة.

في الغد اتصلت بوالدي خفية. كان الحوار خاطفا. شعرت بقلقه. «ثريا، التحقي بي بأسرع ما يمكن. هل معك جواز سفرك؟». نعم هو معي. ذاك أمر غريب، ولكنه معي. هفوة صغيرة من مبروكة. فقد نسيت أن تسترجعه مني بعد عودتنا من إفريقيا. تحججت بقضاء شؤون سرية مع سائق باب العريضة. والذي طلبت منه انتظاري قليلا. وقفزت في سيارة أجرة لملاقة أبي الذي كان ينتظرنى. انطلق بسيارته كالسهم وفادني إلى السفارة الفرنسية لطلب تأشيرة مستعجلة. طلبوا صور شمسية، ورفعوا بصماتي. مع قليل من الحظ بفضل مساعدة أحد موظفي السفارة من أصدقاء أبي. ستكون التأشيرة جاهزة في ظرف أسبوع بدل شهر. وفي أقل من ساعة. أرجعني أبي إلى المكان الذي أخذني منه. بعد أن اخترق بي الأزقة والطرق الفرعية، تجنبنا للشوارع الرئيسية..... حيث أخذت من جديد سيارة أجرة ومنها إلى السائق. وعدت إلى باب العريضة.

واصلت دور النادلة. كان المنزل ممتلئا بشخصيات مشهورة. ونجوم لم أكن أعرفهم كلهم. ولكن كان من بينهم: مخرج ومغن من مصر. ومغنية لبنانية، وراقصات، ومذيعون في التلفزيون. خرج العقيد من مكتبه للالتحاق بهم في قاعة الصالون الكبرى. جلس بينهم. ثم صعد إلى

غرفته. ليلتحق به عدد كبير منهم الواحد نلو الآخر. قبل
المغادرة كانت تنتظر البعض منهم حقية من العملة
الصعبة. وتمكنت من الرجوع إلى المنزل. إلا أنني سرعان
ما أدركت بأنه لم يعد لي مكان بينهم. لقد صرت غريبة.
مثال سيء للجميع. فأمي بعيدة عني تقضي أغلب الوقت
في «سرت» مع أختي وأخي الأصغر. وأخوي الكبيران غادرا
للدراصة بالخارج وفي «طرابلس». لا يعيش إلا أبي وأخوي
الآخران. الأمور ليست على ما يرام. سألت والدي «ما هذه
الحياة؟». فردّ لي والدي معنفا: «أي مثال لإخوتك الصغار
وبقية العائلة؟» لقد كانت الأمور أسهل بكثير حين لا يراني
أحد. وأنني سأكون أقل إزعاجا لو مت. هكذا أقدمت على
فعل أقدمت على فعلا أقدمت على فعلا غريب جدا: لقد
فضلت العودة للحياة في باب العزيزية على المكوث في
البيت.

عودة إلى المختبر. عينة الدّم. أفرش الأرض في
قاعة الانتظار إلى أن أدعى ليلا. وحتى أتصل بي أبي
في أحد الأمسيات: «كوني على استعداد. خلال أربعة
أيام. ستحصلين على التأشيرة إلى فرنسا». يومها ذهبت
لمقابلة القذاقي متسلحة بالشجاعة. وقلت له: «أمي
مريضة جدا. أريد الحصول على عشرين يوم إجازة».
لكنه منحني أسبوعان. فعدت إلى المنزل. كانت الأجواء
ثقيلة كالرصاخص! كنت أختفي كالعادة للتدخين ومكالمة
مشام. كنت أغضب الجميع. كذبت. اختلقت طلبا من
باب العزيزية. لالتقي مع حبيبي. أعلم أن الأمر خطير جدا.
وأنني ألعب بالنار. حياتي كلها حادت عن السكة منذ فترة
طويلة! صار الكذب والمراوغة هي أدوات للعيش.

قضيت يومين مع هشام. في مسكن استعاره من أحد أصدقائه. كان يقول لي «أنا أحبك. لا يمكنك أن تسافري بهذا الشكل».

- إنه الحل الوحيد. لم أعد أستطيع العيش في ليبيا. لن يتركني باب العزيرة أعيش بسلام. وعائلتي تنظر إلي كأنني موبوءة. وبالنسبة إليك لا أحمل إلا القلاقل والمخاوف.

- انتظري قليلا. ستفادر سويا إلى الخارج.

- كلا. أنا مطاردة هنا وأضعك في خطر حقيقي. الرحيل هو أمني الوحيد كي ينساني القذافي ويمحوني من ذاكرته.

عدت إلى المنزل لإعداد حقيقتي. كنت أسير وأنا نصف نائمة أو كالمخدرة. غير مهتمة بما يدور حولي. قيل لي أن الحلقس قاس في شهر فبراير بفرنسا. وينبغي أن تكون لدي أحذية مناسبة، ومعطف دافئ. اكتشفت كمية من الثياب والملابس في خزانة بالمنزل. كانت أُمِّي تشتريها لي كلما زارت تونس. وكانت تردد لأبي : «هذه ملابس لثريا، فهي ستعود للبيت هذه السنة لا شك».

منذ خمس سنوات وأُمِّي تنتظر عودتي. في النهار تمسك العائلة بقبضة من حديد وتواجه الأسئلة المأكرة. وفي الليل، تبكي. وتدعو الله أن يحمي ابنتها وأن يرجعها إليها. لكنني اليوم، لم أعد صغيرتها المدللة، بل صرت خيبة حيانها.

أيقظني أبي في وقت مبكر. كان وجهه شاحب اللون. بل كان مصفرا كالحنظل الجاف. وشفتاه بيضاء كمن أخرج من تابوت.... كان في وضع لم أره عليه مرة في حياتي.

لنقل إنه كان ميتا من الرعب. وقد وضع مثبتا وسرح شعره إلى الخلف، ولبس بذلة داكنة لم أراها عندد من قبل، فوقها سترة جلدية، ونظارات شمسية قائمة، حتى أنه صار يبدو وكأنه عضو عصاية أو جاسوس. أما أنا فقد ارتديت بنطلون جينز أزرق وقميصا، وتلحفت بخمار أسود، ووضعت أنا أيضا نظارات شمسية كبيرة غطت نصف وجهي. واتصلت بأبي التي كانت يومها في «سرت»، وودعتها بصورة خاطفة، وباردة، ثم ركبنا سيارة أجرة، وانطلقنا إلى المطار. كان أبي ينظر إلى في توتر شديد، وسألني: «ما بك يا ثريا؟ كأن الأمر لا يعينك!». وبالفعل كنت غير مضطربة على الإطلاق، بل كنت على درجة غريبة من الهدوء. فما الذي يمكن أن يحصل لي أكثر مما وقع؟ أن أقتل مثلا؟ كنت أشعر في أعماق أعماقي أن الموت عندها ستكون نهاية مريحة لعذاباتي.

في المطار، كان أبي يتصرف بحذر شديد وينظر في جميع الاتجاهات. يراقب ساعته، وينتفض كلما احنك به شخص... في الواقع خشيت يومها أن يصاب بسكتة قلبية. كان قد طلب من أحد أصدقائه أن يضمن عدم تسجيل اسمي على قائمة المسافرين، ولا حتى الحروف الأولى من الأسم. وهو الأمر الذي تأكد بشأنه عند المطار. وبعد أن تجاوزنا الرقابة الأمنية، استمر بلقي ونحن في قاعة الانتظار، بنظرات خفية حوله. كان يشك في كل راكب منزو أن يكون من جواسيس القذافي. كان أبي كمن يلعب دورا في أحد أفلام جيمس بوند. وفي الطائرة، وحتى لحظة الإقلاع، استمر يراقب المدخل، عاجزا عن النطق بكلمة.

كان ينفس بصعوبة. وقد جف ريقه. وبقيت يداه منكشيتين على المتكأ إلى أن هبطت الطائرة في روما. وكأنه كان يخشى أن يتمكن القذافي من أن يحول وجهة الطائرة. فهو لم يتنسم إلا حين حطت الطائرة على مدرج المطار.

اختار أبي قد روما كمحطة عبور للتنويه، وحتى لا يعرف أحد وجهتي النهاية. كان لدينا بضع ساعات من الانتظار. فذهبت إلى الحمام ونزعت خماري الأسود، ووضعت شيئا من الماكياج : كحل وأحمر شفاه وردي. وتعطرت قليلا. فنحن نقصد باريس. مدينة الجمال والموضة : حيث سأضع حدا لحياة المذلة والمسكنة.

على الأقل هذا ما كنت اعتقده.

باريس

كنت أحلم بمشاهدة برج ايفيل. غير أننا ركبنا قطار المدينة السريع نحو ضواحي باريس، حيث كان ينتظروننا في منطقة «كرملين-بيسانتر». أحد أصدقاء أبي في أحد مطاعم الأكل الحلال، كنت أحلم وأنا أفكر في باريس بالولوج إلى عالم جديد..... لكنني أصبت بخيبة أمل، لما وجدت نفسي في ذلك الحي محاطة بالعرب لا غير. وسألت أبي في دهشة : «هل هذه فرنسا؟».

كان الطقس شديد البرودة، وكنت أشعر بأنفي ورجلاي وقد أخذوا في التجمد. بينما كنت أرى كل الأشياء من حولي بعين نافرة. أخذ أبي بشجعتي ويقول : «غدا سيكون كل شيء على ما يرام». قضينا الليلة في فندق صغير في «بورت دي إيطالي». حيث كنا نشاهد من شرفته كل الشوارع المحاذية. استيقظت وأنا على رغبة حارقة في التدخين، حتى أنني لم أعد قادرة على التفكير في شيء آخر.

كان لدينا موعد مع «حبيب» صديق أبي. والذي انتظرنا في إحدى المقاهي القريبة. كانت الفتيات يدخلن في الشرفة بكل أريحية، وبشكل عادي. وقد أعاد هذا المشهد إلى خاطري بعض الأمل. فهنا لا يعد تدخين الفتاة خطيئة، ولا نقبصة كما يرى البعض في ليبيا وطلبت قدحا من الكاكاو بينما طلب والدي فنجان قهوة. قبل أن يخرج للتدخين. لم يكن في إمكاني أن أخرج معه لأدخن بدوري. فهو لم يكن ليسمح لي بذلك. فأسرعت نحو الحمام لتدخين سيجارة «مارلبورو» : وقد كنت اشتريت سرا علبة.

وسرعان ما جاء حبيب ودعانا لمرافقته إلى بيته. في «بورت دو شوازي». عندها تلقيت اتصالا هاتفيا من أمي. لتخبرني أن الصديق سائق باب العزيزة، قد جاء إلى بيتنا في طرابلس ليسأل عني؛ وأنه شدد : «أين هي ثريا؟ لماذا تغلق هاتفها؟». وأنهم أخبروه بأنني في «سرت». فاكتمت بهذا الجواب. وعاد من حيث أتى.

كان سؤال باب العزيزة عني قد أربك أمي كثيرا. ونداعى الأمر على والدي الذي أخذ يرتعد. وأصفر وجهه، ثم سقط مغشيا عليه أمام حبيب. أسرعنا به إلى المستشفى. حيث بقي حتى منتصف الليل، وخرج منه وهو عاقد العزم على الرجوع إلى طرابلس في الحال.

سلمني 1000 يورو، بدت لي حينها كأنها ثروة، وشريحة هاتف فرنسي. وطلب من حبيب أن يؤجر لي بيتا صغيرا. ثم غادر نحو المطار. لم يقبلني. بل اكتفى بإشارة خفيفة. كان في منتهى القلق والتوتر. وكنت اعرف فيما كان يفكر

ثم قال لي : «إذا منحني الله عمرا جديدا. ولم يتم قتلي.
سأرسل إليك المزيد من المال».

بكيت بحرقة وأنا أودعه.

*

أجر لي حبيب غرفة مؤثثة في فندق قرب «بورت دو
شوازي». ورغم أن هذا السكن لم يكن في وسط باريس،
لكنه كان على نواضحه مقبولا بدرجة كافية. كانت موظفة
الاستقبال مغربية. فكنا نتحدث باللغة العربية. وقد
استوعبت بسرعة خارقة الحافلات وقطارات الأنفاق؛
وقادني أول تمرين في استعمال القطار. إلى الحي اللاتيني،
حيث كنت قد نزلت بميترو «سان ميشيل». هناك جلست
إلى إحدى مقاهيه الجميلة اشرب القهوة وأراقب المارة.
كنت أشعر أنني حرة ! حرة ! كنت أكرر ذلك دون افتناع
حقيقي. فلم تكن لدي أي خطة. أو أي مشروع. ولم يكن
لدي أصدقاء، ولا معارف. ولكني كنت حرة، وكان ذلك في
ذاته أمرا ممتعا.

في صباح الغد، ركب الميترو إلى محطة «الشانزليزيه».
فقد كنت أحلم برؤية هذه الجادة الأسطورية منذ
كنت صغيرة. كانت السماء صافية، وكان الشارع أوسع
مما تخيلت. وتعرفت على مقهى «دوفيل» : في المكان
عنده الذي أخبرني عنه والدتي. اتصلت بها من أمامه.
وأنا أصرخ في بهجة : «ماما مقهى دوفيل لا يزال
أزرقا!». كنت أعرف أنني ضربت على وتر حساس لديها.
فقلت لي في حنان : «هل رأيت كيف يعيد التاريخ نفسه؟

ابنتي تسير على خطاي حين كنت في العشرين...كم أود لو أكون معك يا ثريا!»،

قصدت محل «سيفورا» الذي كنت أسمع عنه من مبروكة عندما كانت تتبضع من باريس. وأخذت أجرب في جناح العطورات. كل الماركات. تحت أنظار الحراس المتشككة. اقترحت علي إحدى البائعات أن أشتري قارورة عطر «باريس. لايف سان لوران». كان علي احتساب ما لدي من مال. لدي 1000 يورو. الفندق بـ25 يورو لليلة الواحدة. 25 يورو للغذاء والتنقل. بمعنى أن هذا المبلغ سيكفيني لمدة عشرين يوما. فقلت لنفسي لا داعي للعطر إذا. أغراني جناح الماكياج. لكنني أدركت له ظهري. سيكون هذا برنامج الغد. سأتجول في كل الأجنحة وأزورها شيئا شيئا. فأنا أملك فائضا من الوقت.

على جادة الشانزليزيه، وقع نظري على عشتين يقبلان بعضهما بحرية كاملة، فتذكرت هشام. وأخذت أعاند نفسي حتى لا أستجيب لرغبة حارقة في الاتصال به على الفور. ما الفائدة من ذلك ؟ لست إلا مصدر إزعاج له، ومع ذلك أسرعرت إلى شحن بطاقتي الهاتفية. وما إن استمعت إلى صوته، حتى انهمرت دموعي بحرقة. نطق بصوت مختوق : «يومان منذ أن سافرت ! يومان وأنا أفكر فيك دون انقطاع !...سألتحق بك حالما أستطيع، لقد بدأت في إجراءات الحصول على جواز سفر». هل يفكر بجديّة في ذلك ؟ أيرغب في العيش بالقرب مني فعلا ؟ آه، رباه ! لم أعد أستطيع الانتظار، لابد من تسريع الإجراءات كي يحصل على جواز السفر «الملعون»، إنها

وثيقة نادرة وشبنة في ليبيا. ولكن يمكن شراء كل شيء بالمال. وأسرعت للاتصال بوالدي. وأخذت أعاتبه : «إنك لم تترك لي إلا 1000 يورو ! هذا مبلغ زهيد جدا ! كيف تريدني أن أندبر أموري؟». في الغد، أرسل لي مبلغ 2000 يورو. فميت بتحويل نصفه إلى هشام.

هنالك. على الشانزليزيه سيقودني القدر للتقاطع مع بعض الأشخاص. والذين ستكون تداعيات معرفتي بهم على درجة من السلبية على حياتي في باريس. بل إنني اليوم على وعي بأن ذلك قد أفضي بي إلى طريق مسدود فيما يتعلق بإقامتي هناك. وحتى أكون أكثر دقة، إلى الفصل الكلي لمشروع هجرني إلى فرنسا.

من المؤسف الاعتراف بذلك. ومن المؤلم الإقرار بأنني فرطت في فرصة ذهبية. كيف كان ذلك ممكنا ؟

يبدو أنني أخطأت في منح ثقتي لمن لا يستحقها. وأنني فميت باختيارات سيئة. لقد كنت على درجة مأسوية من السذاجة. ولكن هكذا كان..... فقد وصلت إلى باريس في شهر فبراير عام 2009. وأنا لم أبلغ سن العشرين بعد. ولم أكن أعرف من الحياة أي شيء: غير الخمول والانحراف والآعيب العالم الصغير الذي كنت سجيبة بين أسواره. لا أعرف شيئا عن عالم العمل أو العلاقات الاجتماعية أو توظيف الوقت. أو التصرف في المال. أو العلاقات المتوازنة بين الرجل والمرأة. لا أعرف كيف أخوض في الدنيا. فأنا لم اقرأ صحيفة أبدا...

كنت جالسة على مقعد عمومي «بالشانزليزية»، عندما اقتربت مني امرأة شقراء، وقالت :

- أهلا. هل المكان شاعر ؟

- نعم، قلت لها. ثم سألتها بالفرنسي : «ما اسمك؟»، وكنت أعرف هذه الجملة.

- أسمى وردة.

- آه. هذا اسم عربي !

كانت الفتاة من أصول جزائرية، وبسرعة تواددنا، وقالت لي : «يبدو أنك وصلت إلى باريس منذ فترة قصيرة، من أين قدمت؟».

- تخمني....

- من المغرب؟

- كلا، من بلد لا يمكن أن تفكري فيه أبدا.

- من تونس ؟ من مصر ؟ من الأردن ؟ من لبنان ؟

- كلا، من بلد متوسطي واستراتيجي.

- من الجزائر مثلي ؟

- كلا،

- إذا لا أعرف

- من ليبيا

- آه ! من بلد القذافي، رائع ! إنه بطلي المفضل، لا

تتصورني كم هو جذاب ! حدثيني عنه !

- معجبة بالقذافي ؟ اجتاحنتي رغبة عارمة في البكاء.
وقلت لها معترضة : «بل هو وغد ! وخبث !».

- أتمزحين ؟ هل استمعت إلى خطاباته ؟ هل رأيت
كيف يتحدى أمريكا ؟ إنه عربي أصيل ! ويملك كاريزما
جنونية!«.

تابعنا نقاشنا في مقهى. حيث التحق بنا صديقها. كان
يشتغل حارسا بملهى ليلي بمنطقة «مونتروي». وبدأ
يخططان لبرنامج السهرة. واقترحت علي ورده مرافقتهما.
أعجبتني الفكرة. وقلت في نفسي : «يا له من حظ
سعيد!«.

كان المكان الذي أخذوني إليه عبارة عن مطعم عربي.
يتحول بعد منتصف الليل إلى ملهى ليلي. به أوركسترا
موسيقية وراقصة. آه ! لم يكن المشهد غريبا عني ! كل
من المشرفين والزبائن أثرياء شرقيون يتخاطبون باللغة
العربية. كنت مغنبطة. ومنبسطة. وراغبة في الاحتفال.
أشارت لي ورده «انظري إلى بيمينك، في الطاولة المحاذية.
هناك رجال ينظرون إليك».

= ماذا في ذلك ؟ لا أريد أن أنظر !

- كوني مهذبة ! إذا كنت لطيفة. سيدفعون ثمن شرابك
وأكلك. ثم قالت لي «نعالى ارقصي!».

تبعنها عن دون طيب خاطر. وقد كنت جد محتارة.
حيث لم أكن أدري نحو ماذا كانت تستدرجني ؟ وسرعان
ما التحق بنا على حلبة الرقص عدد من رواد الملهى.

الذين أخذوا يتوددون لنا. ويتجراؤون مع الوقت أكثر فأكثر.... حتى إن بعضهم صار يرشقنا بالأوراق النقدية. كما يفعلون مع الراقصات المحترقات. هنا اجتاح الفضـ رأسي. وتوجهت لوردة وأنا أقول ليا : «تعالى. لا أرغب في ذلك!». على أنني، وأنا أغادر الحلبة. وجدت نفسي وجها لوجه مع مدير الملهى. والذي سألني : «هل أنت بالفعل ليلية؟». وعندما أجبت بالإيجاب : هم بالمكرفون : وأخذ يقول : «سيداتي ساداتي. لنحبي جميعا ليليا. والعقيد القذافي!» عندها وددت لو أن الأرض ابتلعتني. لكنه واصل : «تعالى! تعالى غني معي أغنية للعقيد!» وأخذ يرددن إحدى الأغاني المقرزة التي تتردد في الإذاعة الليلية : «بـ قائد ثورتنا على دربك طوالي.....». كنت أريد أن أمحر من الوجود. هل من المعقول أن يلحقني شؤم القذافي إلى هنا ؟

أسرعت نحو الحمام. وأغلقت الباب على نفسي وأجهشت بالبكاء.

*

بقيت حبيسة غرفتي مدة أسبوع كامل. مشوشة. لا أخرج إلا لشراء السجائر ورصيد الهاتف. حيث أدركت أنني لم أفق من الكابوس بعد. وإن شبح القذافي لا زال يتابعني أينما حللت. هل لباب العزيزية عيوننا وأذاننا في كامل الكرة الأرضية ؟. ألم يتمكن جواسيسه من اغتيال رموز المعارضة في أقصى بقاع الدنيا ؟ إذا...هل بإمكانه الإفلات من براثنه ؟.

فرغم أنني لم أصل إلى باريس إلا منذ قليل، إلا أنني بت
أشعر أنني أنخرط في طريق مسدود. ومما زاد الحطين بله،
أنني لمحت في إحدى اللبالي فأرا في غرفتي، الأمر الذي
أصابني بذعر شديد. وكان تيارا كهربائيا قد صعقتني أخذت
ألملم أغراضني، وهرولت نحو مكتب الاستقبال. وسددت
ما علي. ثم اتصلت بصديق والدي «حبيب». وأنا أرتعد من
الخوف. فقال لي عندما أخبرته بما جرى : «تعالى. اقضى
الليلة في منزلي. وسنرى غدا ماذا يمكن فعله».

ذهبت للمبيت عنده. حيث أعطاني إحدى الغرف. إلا
أنه، وفي الرابعة فجرا، نسلل إلى فراشي! نعم : صديق أبي
حاول اغتصابي. فصرخت. وحميت حقيتي، ونزلت من
السلم بسرعة. ولذت بالفرار. كان الطريق مقفرا ومثلجا.
أين سأذهب يا رب ؟ فكرت في وردة، واتصلت بها. لكنها
لم ترد. فقصدت محطة الميترو وانتظرت أن تفتح لأفترش
إحدى مقاعدها. غير إن أحد صعاليك المكان، والذي كان
مخمورا حتى الثمالة : جاء يزعمجني. لأغرق أكثر فأكثر في
نعاستي : ودموعي التي صارت تنهمر دون انقطاع. اتصلت
بهشام، لكنه لم يرد كذلك. حاول صديق أبي الاتصال بي.
كان يعاود الاتصال دون انقطاع كالمجنون دون أن أرد على
مكالماته.

مع مطلع الصباح، صعدت إلى سطح محطة الأنفاق،
اندسست في مقهى «بورت دو شوازي» التي شرعت في فتح
أبوابها، وطلبت قدحا من القهوة، فجأة. اقتحم عشرات
من البوليس المكان. ذعرت. هل أصدر القذافي أمر توقيف
دولي بشأنني ؟

كانت وردة قد نصحتني بتجنب «حملات المراقبة البوليسية الروتينية!». لكنني لم أكن في وضع يسمح لي بالفرار. فهم أمامي وقد توجهوا نحوي. قدمت جواز سفري بيد مرتعشة. ابتسم لي شرطي من أصول مغاربية، وقال لي: «لماذا أنت خائفة؟ لديك تأشيرة، ووضعتك قانونية!». كنت أشعر بالشلل التام، عاجزة عن النطق ولو بحرف واحد. فدرس الشرطي رقم هاتفه في يدي وهو يغمزني بطرف عينه، وهو ما أشعرني بالنفور التام منه.

دخلت المقهى مجموعة من الفتيات. كن على درجة من الأناقة والثقة بالنفس. وكان يبدو أنهن على الأرجح زميلات في نفس المؤسسة. فأخذت أراقبهن بإعجاب. وأنا أقول في نفسي إن الفرنسيات يملكن ذوقا رفيعا! مكياجاً راقياً، وملابس أنيقة..... وأنهن يرتدن المصايف، ويدخن، ولديهن شغل محترم مثل الرجال.... ولكن فجأة، استدارت إحداهن نحوي وهي تصرخ في وجهي: «لماذا تحديقين بي هكذا؟ هل لديك مشكلة؟» آه! هذه الجملة! بقيت تطرق رأسي، رغم أنني لم أفهمها في حينها. كان وجهها ينبض بالازدراء والحقد؟ لماذا كل هذه الشتائم؟ ما أنا إلا معجبة. وإذا كان وجهي يبعث على الريبة، فهذا لأنني لم أنم طول الليل.

كان النادل ودودا. يتكلم العربية أيضا، قلت له: «علي تعلم الفرنسية، إنها مسألة مستعجلة!». نصحتني بالذهاب إلى «الأليانس فرنسيز» التي تقع في منطقة مونبرناس. وكتب لي العنوان على قصاصة ورق. فركبت الميترو وحقيبتني في يدي. ونزلت في محطة قرب برج إيفل. طبعا لم أعرف

المكان. فوجدت نفسي نائمة. ولاحظت باستغراب إن لا أحد من سكان هذا الحي يتكلم اللغة العربية. جلست في مقهى. ولكن على حين غرة ظهر أمامي شخص ما كنت أتوقع أن أراه هناك ؟ إنه حبيب، صديق أبي ! والذي كان يشتغل في إحدى المؤسسات القريبة. فبادرني بالسؤال: «ثريا، لماذا لم تردي على مكالماتي ؟ لقد قلقت عليك كثيرا»!

- لا تنطق باسمي. ابتعد عني. وإلا سأخبر أبي بما فعلت!.

لكنه لم يبالي بتهديدي وجذب كرسيه وجلس أمامي. وهو يقول : «هدئي من روعك، كل ما أرغب فيه هو مساعدتك، وأعدك بأنني سأجد لك شغلا، وبطاقة إقامة».

- أغرب عن وجهي...! أو دلني بالأحرى على مكان الأليانس فرنسيز.

كانت الأليانس فرنسيز لا تبعد كثيرا من المقهى الذي كنت فيه. بالداخل وجدت مجموعة من الجزائريات، تسأل عن تكاليف التسجيل. في الواقع هن من نصحتني بالاستفادة من الدروس المجانية في البلديات. واقترحت إحداهن أن ترافقني بسيارتها إلى بلدية الدائرة السادسة التي لم تكن تبعد كثيرا عن مقر المدرسة. كانت قاعة الانتظار بالبلدية مكتظة بالعرب والأفارقة، غير أن أحد الأساتذة قال لي على الفور : «أنت محظوظة، فقد بدأ أول درس منذ قليل، ادخلي بسرعة!». وجدت بالفصل امرأة واقفة، تنهجي حروف الأبجدية المكتوبة على الصبورة :

A-B-C-D-E... كنت اعرف الحروف منذ الإعدادية في «سرت». لذلك أخذت أفكر بأنه لو يجب علي أن ابدأ من جديد من الصفر. فهذا يعني بأنني سأقضي شهراً لكي أتعلم الفرنسية، في الوقت الذي لم أجد فيه بعد حتى مكان أقيم فيه ! لذلك صرفت النظر عن دروس الفرنسية !

هنا، اتصلت بي وردة، وأخبرتها بأنني في الشارع. فقالت بعنفوية : «تعالى اسكنى عندي ! فأنا أقيم بمفردي مع ولدي الصغير». هكذا وجدت مؤقتاً سقفاً أوي إليه (بيورت دو منتروي)، وصديقة (تدربني قليلاً على استعمال اللغة)، وبينة (عربية). كان كل ذلك مصدر طمأنينة في البداية. ولكنه سيكون مصدر خسارة بالنهاية.

*

منذ الليلة الأولى، حاولت وردة إقناعي بالذهاب معها من جديد للملهى العربي. رفضت في البداية، ثم استجبت لها خوفاً من أن أجد نفسي في الشارع من جديد. هناك عرفتني على شاب تونسي في منتهى اللطافة والأناقة أسمه عادل، والذي سرعان ما سيقع في غرامي، لكنني كنت واضحة معه منذ البداية. وأخبرته بأنني مرتبطة بشخص آخر. وأنتي سأبقى وفية له. في الواقع هو لم يتعجل معي الأمور. واكتفى بالاهتمام بي بكل رقة وأدب. حيث واصل المجئ إلى «الملهى»، ودعوتي للأكل أو الشرب. كانت وردة تستهلك مع أصدقائها كميات كبيرة من الخمر. أما أنا فكانت أطلب عصير الفواكه. لقد استحلقتني هشام بالقرآن أن لا أضع قطرة كحول في فمي. هكذا، قضيت

الأشهر الثلاثة الأولى من إقامتي الباريسية على هذا النحو الجنوني. ثم انتهت مع نهاية هذه الأشهر، المدة القانونية للتأشيرة الفرنسية. وأخذ الخوف يصعد لرأسي. وصرت أتحرك بحذر شديد، وأخفي جواز سفري في غرفتي، حيث لم أكن أريد المجازفة، وانقطعت بالتالي عن الذهاب إلى «الملهى». وعندما أعلمت وردة بأمر التأشيرة، ضحكت، وقالت لي: «لا عليك! كل فتيات الملهى في مثل وضعيتك!». ولكن المال الذي كان معي قد أخذ بدوره في النفاذ، وتدهورت علاقتي بوردة إلى حد أنها أخذت تمنعي من لمس ما يوجد في الثلاجة، وكانت تقول لي: «إنها لأبني!». استنجدت بأبي لينقذني، فهاجمني: «كيف تبذرين أموالك؟ ابحثي عن عمل يا ثريا! اغسلي الصحون حتى!». لقد جرحني ما قاله أبي، فقلت له: «إذا أردتني أن أعود مباشرة إلى باب العزبية! فإن ذلك لا يزعجني!». هكذا أرسل لي 500 يورو. لم يبقى منها إلا 100 يورو، بعد جولة قصيرة مع وردة في السوبرماكت لتعويض ما كانت تتصور أنني استهلكته من الثلاجة.

اقترح علي عادل أن أسكن عنده، كانت شقته كبيرة بها فيه الكفاية، حيث قال إنه سيمنحني إحدى الغرف. وأكد لي بأنه يمكن لي أن أتناقص معه الشقة دون أن أخشى على نفسي منه. «رائع، إن هذا هو الحل الأمثل». قالت وردة، الأمر الذي كان يعني ببساطة: إرحلي عن بيتي.

هكذا قضيت قرابة ستة أشهر في منطقة «بانيو» في الضواحي الباريسية. ستة أشهر من الهدوء النسبي مع عادل، الذي يدير مؤسسة مقاولات صغيرة، التزم خلالها

بأن يبقى صديقا لطيفا ومهيذا. يذهب صباحا إلى عمله. ويترك لي 50 يورو لأكلي. ولشراء ما يلزم للبيت. كان يعلم أنني مفرمة بشخص آخر. ورغم أنني أعرف إن ارتباطي بآخر كان يحزنه، إلا أننا نجحنا في التعايش في إطار صداقة متناغمة. كنت أثق فيه. وحين قصصت عليه مأساتي مع باب العزيزة، صدقني على الفور. حيث كان لديه أصدقاء ليببون. سبق وأن حدثوه عن اختطاف الفتيات من المدارس. بينما رفضت وردة تصديق حكايتي من أساسها. يا إلهي يالي من غيبة لأقص عليها حكايتي! فقد كانت تدافع عن القذا في بحماس المؤمن. وكنت أمرض لمجرد سماع ما تقول. «إنه شرف العرب، أنه الوحيد الذي رفع رأسه. وحمل المشعل. إنه قائد بآتم معنى الكلمة، والقائد لا تصدر منه تصرفات وضيعة. وكم هو تصرف وضيع من طرفك أن تنسجي لنفسك أسطورة على حسابه». وكان يصعب عليّ احتمال هذا الخطاب.

وفي إحدى الليالي. بعد أن عدنا من حفلة عيد ميلاد عادل، نظمها في «الملي» قرب ساحة «ناسيون». التحق بي في غرفتي. ضغط علي وألح بشدة. فاستسلمت له. بدت مشاعره صادقة ومؤثرة. ويبدو أنه صارح أصدقاءه برغبته في الزواج مني. لكنني بقيت صارمة وثابتة في موقفني. فأنا لست حرة. وسيلتحق بي صديقي حالما يحصل على جواز السفر. خلال بضعة أسابيع. بدأت الغيرة تنخره. وفي أحد الأيام. بينما كنت استحجم. ردّ عادل على مكالمة من هشام. وتعالّت النبرات ثم ارتفع الصراخ. حين أسرعته إليه مذعورة. قطع المكالمة، وهو يصرخ: «ولد الق...!»

لم أقبل هذه الخيانة. بأي حق يرد علي هانفي ؟ اتصلت بهشام مرارا. لكنه رفض الرد علي مكالمتي. هذا التصرف من عادل جعلني أنفجر غضبا. لقد دام الوضع «غير الواضح فيما بيننا». أكثر من اللزوم. وكان علي أن أرحل. وأبحث عن شغل.

قدّمني أحد المصريين كنت قد قابلته لدى تاجر تونسي. إلى منار، قناة مغربية تشتغل في مطعم-حانة. يملكه قبانلي. في شارع صغير «بمونتروي». تعلمت صنع القهوة. وتقديم الجعة المضغوطة. كنت أتقاضى يوميا 50 يورو وقد بصل دخلي إلى 100 يورو في اليوم مع الإكراميات ! وهو راتب معقول جدا. خاصة وأنهم قد وفروا لي السكن مع مغربية أتقاسم معها «استديو» في الحلاق العلوي. هكذا اشتغلت مدة شهر ونصف في هذا المنهى. دون أن أنتبه إلى الجانب المشبوه في هذا المكان. فقد كان المالك يسدل الستائر أحيانا. حيث كانت مجموعة من النساء ترقص عاريات. وما زاد من حفيظتي أن شريكني في السكن كانت تسرقني. فقررت أن أغادر المكان ببعض الملابس التي تبقت لي. وانصلت بوردة التي بقيت علي تواصل معها. فعرفتني بتونسية تشتغل في حانة بمنطقة «بورت دي ليلا» بباريس. حيث يشرت العمل بغسل الصحون في المطبخ. ثم تدربت على تسجيل الطلبات وتلبيتها. وذلك قبل أن يلاحظ صاحب الحانة أن هناك زبائنا صاروا يأتون خصيصا من أجلي. فطلب مني البقاء في القاعة. الأمر الذي استفز التونسية. في هذا الجو كان البعض يعاملني كصيد سهل. بينما كان البعض الآخر يعاملني كخادمته. ومرة أخرى.

عندما عدت من العمل لغرفتي التي أنقاسمها مع فتاة مغربية، اكتشفت أن ملابسي وأغراضي قد سرقت.... فأخذت حقيبتي وغادرت المكان.

هكذا وجدت نفسي من جديد في الشارع، مشردة. لا أعلم بمن أتصل. ففكرت في المصري. الذي استقبلني في شقة كبيرة يقطنها مع العديد من الأشخاص. لم يطلب مني شيئا. لكن أحسست بحرجه. كنت في نقطة الصفر. أين مستقبلي؟ أي دور أريد تأديته في باريس؟ فأنا لم أنعم الفرنسية. وإقامتي غير شرعية. إي أنني مهددة بالإيقاف في كل لحظة. أنا لم أنجز أي شيء. وحين اتصل بي هشام. وظهر اسمه على شاشة التلفون. شعرت بجرعة أمل تسري في جسمي. تذكرني في اللحظة التي أكاد أغرق فيها. سألته يالحاح «متى تأتي؟. أنا في حاجة إليك!»

- لن آتي أبدا. هل تسعينني؟ لن آتي أبدا! فأنت لم تستطعي أن تبقي وفية لي!

أصابني الدوار. اتصلت مباشرة بأمي. وأخذت أصرخ عبر الهاتف: «كل ما حدث لي من تحت رأسك! إنه خطوك. حياتي كلها زيف. آه يا أمي. أنا بائسة. أنا بائسة! لا أعرف ماذا أفعل؟ لا أعرف فيمن أثق؟ أو أين أذهب؟ لقد انتهيت. وكل هذا بسببك أنت».

- بسببي أنا؟

- لم أكن لأهاجر. لو قبلت بهشام!

- آه يا ثريا لا تقولي مثل هذه الترهات. عودي إلى المنزل. واضح أن فرنسا لا تلائمك. عودي إلينا.

لم يخطر ببالى حتى تلك اللحظة فكرة العودة إلى ليبيا. أعود ؟ ولكنى لست فى نزهة سياحية ! ولا حتى فى هجرة طوعية ! لقد كنت فارة وهاربة ! ويبحث عني أحد أعتى الرجال فى العالم !. فى الواقع أنا صبيت جام غضبي على أمي. لكنها ليست السبب فى ما أصابني من جحيم. بل هو القذا فى من كان السبب. إنه السبب الرئيسى فى رحيلى. وقلت لأمي : «ولكن ألا تعنى العودة مجازفة خطيرة جدا. يا أمي. فهم سيعودون للبحث عني. ولن يتركوننى فى سلام أبدا».

- سنتدبر أمر إخفائك. فقد تعرض أبوك إلى إزعاجات كثيرة. ولكن ستعيشين معى فى «سرت». هم يبحثوا عنك كثيرا فى البداية. وأعتقد أنهم قد هدؤوا الآن. لا أريدك أن تبقى تعيسة فى باريس.

بتصميم غريب. أخذت قرارى فى بضع ثوانى. فأنا لم استوعب نظام العمل فى فرنسا. هذا البلد يعجبني. لكنه لا يلائمنى. وأنا حتى لم أتعلم اللغة الفرنسية. وقد استحسننت ورده فكرة عودتي لليبيا. لكنها ذكرتني بانتهاء صلاحية تأشيرة الدخول. الأمر الذى يعنى بأننى يجب أن أدفع غرامة كبيرة فى المطار. واتصلت بأحد معارفها : وهو شرطى بمطار «رواسي شارل ديغول» ليسهل لي إجراءات الرحيل. بعد ثلاثة أيام. ولأتجنب منعي من العودة إلى التراب الفرنسي. سلمته 1500 يورو : وصعها فى جيبه. هذا ما فهمته على كل حال. الحمد لله. إن والدتي كانت قد أرسلت لي 2000 يورو فى ذاك الصباح.

في 26 مايو 2010، ركبنا الطائرة المتجهة إلى ليبيا، وفي يدي حقيبة شبه فارغة، لا تضم إلا بعض الثياب، لا كتاب، ولا حتى مجرد صورة، فأنا لم أخرج من الأشهر الخمسة عشر التي قضيتها في مدينة النور، حتى بذلك البورتريه. الذي رسمه لي أحد الرسامين، في يوم ربيعي تحت برج إيفل. فلقد احتفظ به عادل للذكرى.

تشابك

لم يكن أحد في انتظاري بمطار «طرابلس». حرصت
ألا يعلم أحد بقدومي. لم أتعرف على أحد في البهو الكبير.
ولم ألاحظ أي نظرة مشبوهة لا من الجنود أو من رجال
الشرطة. بمعنى أنني صرت نكرة. أو لعل باب العزيزة قد
أهمل مراقبتي.

وانصلت على الفور بهشام. كان مذهولا : «أنت هنا ؟ في
ليبيا ؟... ابقِ حيث أنت. أنا قادم !». أتى مسرعا في سيارة
رباعية الدفع مع صديقين. نزل وهو يتنسم. حمل حقيبتني
الصغيرة. لم نحتضن بعضنا البعض بشكل مكشوف. لما
نظرت إليه. استعاد ثقته نوعا ما. كبر قليلا مقارنة بصورته
في ذاكرتي، وهذا ما جعله مطمئنا أكثر.

توجهنا إلى المسكن نفسه الذي استعرناه سابقا من أحد
أصدقائه. ودار بيننا نقاش طويل حول مختلف الأشياء. في
الواقع لم يخف هشام غضبه. وخيبة أمله فني : لأنني

سكنت مع رجل آخر في باريس، لكنني أكدت له : «لم يكن أكثر من صديق لا غير!».

- الصداقة مستحيلة بين رجل وامرأة!.

هو ذا ليبي بامتياز ! ثم حدثني إن جماعة باب العزيرة بحثوا عني في منزل عائلته. وتعرض أخوه للسجن. بينما هرب هو إلى تونس، وأنه قد تعرض لمختلف أنواع التحرش؛ سواء التهديد بالقتل، أو مراقبة هاتفه، وتعقب خطوه أينما توجد. وأنه لوحق في عمله، وانتشرت قصتنا كإنتشار النار في الهشيم. وصار على نحو ما بنعت بـ«عاشق قحبة القذافي»، حتى أصدقاؤه المقربون قالوا له : «في نهاية المطاف، لا يمكن لك أن تتزوج من مومس!».

عندها ارتجفت من الخوف. ووالدي ؟ ما الذي حدث لهما ؟ ما هي الضغوطات التي سلطت عليهما ؟ ما هي التهديدات التي تعرضا لها ؟ وما هي العقوبات التي وقعت عليهما ؟ لقد تخلبت عنهما. ولم أفكر إلا في حماية نفسي. كيف اقتص منهما القذافي لأنهما سماحا لي بالفرار ؟ وقلت لهشام : «أنني أريد رؤيتهما بسرعة. أعدني إلى المطار. سأتصل بوالدي وأخبرهما أنني وصلت للتو».

قطعتنا الطريق في صمت مطبق. وكان هشام يلقي بنظرات حزينة نحوي. بينما غرقت في هواجسي وأفكاري. كيف تخيلت أن باب العزيرة يمكن أن يتركني بسلام إلى الأبد ؟ وما أن وصلنا المطار حتى اتصلت بوالدي. هناك صعدنا لخبر عودتي المرتجلة. وجلست في الطائرة أنتظر قدومهما.

فجأة. تقابلت مع أمال «ع»، والتي كانت قاصدة تونس مع أختها الكبرى.

- ثريا ! يا لها من مفاجئة ! أين ذهبت ؟ سمعت أنك في باريس..!

- لا أبدا !

- لا تكذبي ! فمت بنحرياتي. قابلت هشام. وحدثني صديق في المطار كيف استطعت المغادرة.

- برافو للتصامن !

- تخطئين ! احتفظت بالمعلومات لنفسي. ولك أن تتصوري كم كان معمر ومبروكة هائجين....

قدم أبي مع أختي الصغيرة التي لم أرها منذ فترة طويلة. وأكد لي إن باب العريضة قد فتشوا طويلا عني، وأنهم مارسوا شتى أساليب التهديد ليجدوني. لم يقل أكثر من ذلك. حيث يفترض إن أختي الصغيرة لا تعلم شيئا. انشغالي الأكبر كان حول ما سأخبر به أخي عزيز العائد من بريطانيا. كيف علي أن أنصرف كي لا أقوم بهزوات أمام الناس. كيف أبدو فعلا كأنني راجعة من إقامة مطولة لدى أعمامي وخالاتي في تونس.

لما بقينا بمفردنا. أطلق أبي العنان لغضبه معبرا عن السراة التي كان يتجرعها : «لماذا عدت ؟ لماذا تلقين بنفسك في فم الذئب ؟ لماذا يا ثريا ؟ لقد تحملت كافة المخاطر، وعرضت نفسي للموت حتى أنقذك». وواصل: «تعرفيني إني هنا لا أستطيع أن أحميك. وهذا يجعلني

كالمعتوه! لقد استطعت أن أضعك في مكان آمن. وفي بلد حر. لكنك أفسدت فرصتك! إنه جنون أن تعودني إلى ليبيا! جنون أن تعرضي نفسك من جديد لأذى باب العريضة!». في صباح الغد. توجهنا باكرا نحو «سرت». دامت رحلتنا فراية الخمس ساعات. لم تتبادل فيها سوى بضع كلمات. لا زال أبي حائفا علي. قابلت أمي في صالون الحلاقة. احتضنتني بين ذراعيها. «هزيلة أنت، ولكنك جميلة جدا...». تأملتني وهي تتراجع إلى الخلف، ويداي بين يديها. «بشرتك اسمرت قليلا!». لم أصارحها بأن هذه السمرة ناتجة عن «جلسة شمس صناعية» دفعتني وردة للقيام بها قبل رحلتي. هذه السحنة الخلاسية اللون كالأفريقيات، لم تعجب هشام كذلك.

- نشغلين كالعادة يا أمي! أنك تكدحين دون توقف! لماذا لا تأخذين قليلا من الراحة؟ أنك تبدين جد مرهقة.
- في أي عالم تعيشين يا ثريا؟ كيف تنفق على عائلتنا؟ كيف كنا نرسل لك المال في باريس. لو لم يكن هناك الشغل في صالون الحلاقة؟

ما إن وضعت حقيبتي في شقتنا. حتى لاح لي رقم مبروكة على هاتفي كطعنة خنجر. تجاهلت النداء. لكنها طلبت ثانية وثالثة.... مسلوية الإرادة. وكأنها قابعة معي في الغرفة. انتهيت للرد عليها:

- ألو؟

- أهلا بالأميرة!

-

- قمنا بجولة قصيرة في فرنسا ؟
- من قال لك أنني كنت في فرنسا ؟
- هل نسيت أننا الدولة. وإن أجهزتنا تعرف كل شيء.
- تعالى بسرعة لسيدك !
- أنا في «سرت».
- كذب ! بحثنا عنك في «سرت».
- حالياً أنا في «سرت».
- حسناً. نحن ستكون في سرت أيضاً الأسبوع القادم مع سيدك، تأكدي أنه سيجدك.

*

- بعد بضعة أيام. اتصلت مبروكة من جديد : «أين أنت؟
- في صالون الحلاقة عند والدتي.
- ها أنا قادمة.

كنت كالطريدة. ولم اتمكن بالكاد من ان اقول لامي
كلمتين بهذا الخصوص. وقد اعتراني الرعب : حتى رن
الهاتف من جديد : «أنا هنا. اخرجي فوراً !»

كانت سيارتها واقفة أمام باب الصالون. وبابها الخلفي
مفتوح، وما أن دلفت داخلها. حتى انطلق السائق كالسهم.
ها هو الكابوس قد عاد من جديد. فقد كنت أعرف إلى أين
تسير السيارة، ولا أشك فيما كان ينتظرنى. ولكن ماذا كان
يمكنني أن أفعل غير الخضوع لذلك، كي لا تدفع عائلتي
ثمناً باهظاً ؟

استقبلتني سالمة ميلاد بابتسامة مشحونة بالازدراء،
بينما اخذتني فتحية من ذراعي وهي تقول : «تعالى بسرعة
إلى المختبر. لا بد من إجراء تحاليل شاملة». لم أقاوم. لم
أحتج. فقد تلاشت غريزة الحياة لدي. وتحولت إلى إنسان
آلي. ثم انتظرت ساعتين أو ثلاثة. قبل أن تأمرني سالمة،
«أصعدي إلى سيدك!». كان في لباس رياضي أحمر. أشعث
الشعر. ونظراته شيطانية. حالما رأي أني أرعد قائلاً : «تعالى
يا فحبة».

قضيت بقية الليلة في الغرفة نفسها التي سبق وأن
خُصصت لي أثناء عبورنا بسرت. بجانب فريدة. كنت
مُهشمة من كل ناحية. كنت انزف بغزارة. وقد كرهت
نفسي لأنني عدت إلى ليبيا. كنت ألوم نفسي على فشلي
في فرنسا. وكيف أنني لم أعرف كيف أتدير أموري ؟ أو
كيف أنصرف ؟ وكيف أنسج علاقات مفيدة ؟ وكيف
أحصل على شغل ؟

منذ اليوم الأول في «الشانزليزيه» اعتبروني فتاة سهلة.
أو «فحبة» كما يقول القذافي. كان هذا النعت يبدو وكأنه
يا فطنة مرسومة على جبيني. بدأت فريدة تستهزئ بي
وتلعب بأعصابي. وتقول : «أعرف فتيات أخريات ذهبن
إلى الخارج يشتغلن مومسات. حقيرات ! بلا شرف. بلا
وفاء. وبلا قيم. فتيات مجاري، قبل أن يرجعن لرؤية آبائهن
ورؤوسهن مطأطأة...».

لم أستطع التحكم في نفسي. انفجرت. ووثبت عليها
وضربت بها بهوس. لقد كنت في حالة هيجان قصوى لم أعش

مثلها بتاتا. حاولت مبروكة أن تفصل بيننا. لكنني كنت
كلبوة ترفض التخلي عن فريستها. وتشبثت بفريضة التي
كانت تبكي من الرعب. ورفعت مبروكة صوتها وحاولت
إبعادي. فزارت في وجهي : «أنت. أغلتي قفك!». أصيبت
بالوجوم. لم يخاطبها أحد من قبل بهذا الشكل. انسحبت
كل الفتيات بهدوء أمام المعلمة الكبيرة. هرعت سالمة
نحوي : وصفعتني صفعة بشيت أثارها مدّة طويلة على
خذي. وقالت لي : «من أنت حتى تخاطبي مبروكة بهذا
الشكل؟». اعتقدت للحظات أن دماغي قد تفكك جراء
الصفعة. ثم جرتني عبر مئادة من الممرات المجهولة : نحو
حجرة صغيرة مظلمة وقذرة. بلا نوافذ. بلا هواء مكيف
في الوقت الذي كانت فيه الحرارة تفوق الأربعين درجة
في الخارج. اختنفت بالرائحة الكريهة المنتشرة في أرجائها.
وأرعبتني الصراخ التي كانت تتسارع أمام ناظري. بكيت.
تفتت شعري. وصرخت إلى أن خارت قواي. متهالكة على
فراش عفن. بعد ساعات. فتحت فتحة الباب : «سيدك
بناديك». صعدت لأجد فريضة متكورة على العقيد.
رأسها على صدره تداعبه وتقبله متأوهة : «ثريا شريفة
ومجنونة. لو تعرف سيدي كيف كانت تضربني!». كانت
تتكلم وهي تلقي بنظرات متوعدة تجاهي. قال لها :
«لك الحق في صفعها. القحبة». فهبت تجاهي وصفعتني
صفعتان. فصرخ فيها : «قلت لك صفعة واحدة !
لرحسلي!». وطردها بنظرة من عينيه الحارقتين. والتفت
نحوي. وقال : «آه ! يعجبني توحشك ! أحب هذه القتالية !
وهذا التنمر!». ثم مزق ثيابي وألقى بي على الفراش.

«أرجوك ! أرجوك ! لا تلمسني ! أحس بآلام شديدة !

- تناقشين، أيتها النمرة ! أحب مزاجك الجديد. إنها فرسا، التي غرست فيك هذا الهوس !.

كانت الدماء تسيل مني بغزارة، أخذ مندبله الأحمر ومسح به الدّم، وهو يقول، وبعاد العصف بي : «أوه، كم هو لذبذبا!». صرخت : «يكفى أرجوك، أشعر بأوجاع شديدة!». عندها جذبني إلى زاوية الحمام، وتبول فوقي. ولولوت من الألم، ضغطت على الزر، أنت الأوكرائية كلوديا مسرعة بوجهها الملائكي المشرب بالحمرة، حملتني نحو المخبر وأعطتني مسكنات للألم، كانت حركاتها آلية، كمن تعود على ذلك. أردت العودة إلى غرفتي، واضطرت إلى تغيير الطريق، حتى لا ألتقي مع أعضاء وفد إفريقي كبير أتى لمقابلة العقيد في خيمته.

في الغد، أخذ الجميع يستعد للتوجه إلى طرابلس، تسمرت أمام مبروكة، وفي داخلي شيء من الصلابة، وعناد فولاذي. وقلت لها : «سأبقى هنا، أنا مريضة، لن أذهب معكم».

- أصبح رأسك كراس بغل، متعجرفة، لا تطاقي، ولا تصلحين لأي شيء ! عودي إلى أمك !.

أقلت سلمى بـ 1000 ديناراً نحوي، مثل مومس تتلجج أجرتها بعد أن تنهي مهمتها الوسخة، وقالت لي : «ارحلي! السائق في انتظارك».

ارتفعت داخل السيارة، وألقيت بنظرة على هاتفي، فإذا بعشرات المكالمات والرسائل من هشام، قرأت في إحداها، نصا كان يقول : «إذا لم تردني، يعني أنك مع الآخر، سينتصر دائما. وأنا لا رغبة لي في أن أعيش قصة مفرغة، من الأفضل أن أقطع هذه العلاقة». فتحت النافذة وألقيت بالجوال، وضعتني السيارة أمام منزلنا، وجدت أمي وقد ضجرت من الانتظار، وكانت قد حاولت الاتصال بي مرارا، دون جدوى، لم تعد تحتمل، وأوشكت على الانهيار التام. قلت لها : «أريد أن أغير حياتي، يجب أن انطلق إلى عالم آخر، وفضاء جديد مغاير. أود أن أمحو من ذاكرتي كل صور الماضي من باب العريضة إلى هشام».

- قابلت هشام من جديد ؟ كذبت علي مرة أخرى ؟

- يا أمي ! لقد منحني هذا الشخص القوة لأتشبث بالحياة، لا يمكن أن أنساه.

نظرت إلي باشمزاز كمتومة لا كضحية، كأن هشاما والقذافي ينتميان إلى نفس عالم الفسق والفساد، وهو ما لا يمكنني القبول به.

صار مناخ المنزل مكهربا، ومجرد حضوري يثير حنق أمي. لم أعد ابنتها، لست إلا امرأة عبث بها الرجال، وتفتقر إلى كل قيمة أخلاقية. توجه نظراتها، وتأوهاتنا وأفكارها، أصابع الاتهام لي. وإن لم تكشف حقيقة ما تفكر فيه نحوي صراحة، وكبت كل تلك الأحاسيس في أعماقها.

وذاك يوم، انفجر بركان غضبها : «لم أعد قادرة، هذه ليست حياة، بل لم تعد لنا حياة أصلا، لا أنا، ولا أبوك ولا

إخوتك ، نستحق كل هذا ! أصبحت كل العائلة موضوع
تندر لدى الجيران».

- عمن تتحدثين ؟ إذا اطلع الناس على الخبر، فذلك
يعني أنك أنت من تكلم في هذا الصدد !

- ليسوا أغبياء يا ثريا ! فقد لا حظوا مسلسلات
غيايك، ومواكب سيارات باب العزيزية. يا للعار ! لقد
كنا أسرة محترمة. آه يا لها من ضفوفات.... ! يا لها من
خسارة... !

فضلت الذهاب إلى «طرابلس» مع أبي. وهي مدينة
أكبر. لعلني أشعر فيها باختناق أقل. حاول هشام إعادة
الاتصال بي. وقف أمام منزلنا وشغل منبه السيارة. ثم
هانفني واضعا يديه حول فمه وكأنه مكبر صوت : وهو
يناديني : «ثريا». خشيت ردود فعل الجيران، فسارعت
للانصال به من رقمي الجديد. لكن ما الفائدة من رؤيته؟
كيف يخاطر، مما يعرضه إلى غضب القذافي وشرطته؟
أعرف أنه قد يُقتل من أجلي.

حين وصلت أمي إلى «طرابلس» لتقضي معنا عطلة
الجمعة. تجرأت للحديث معها بشكل مكشوف عن مشكل
في ثديي بفعل دعهما المتواصل، وسحقهما وعضهما، كأننا
ثدياي متدليين ويؤلمانتي.

أصابها الذعر، لا بد من الذهاب إلى طبيب مختص في
تونس بأسرع وقت ممكن. سلمتني 4000 ديناراً، ونظمت
سفري برفقة أخي الصغير، فالمرأة المحترمة لا تسافر
بمفردها أبداً...

عند رجوعي. كانت في انتظاري أخبار سارة : زواج أخي عزيز بفتاة من «سرت». ويفترض أن أكون سعيدة، فحفلات الزواج فرصة للبهجة والتفارب. فالفتيات في سني مولعات بهده المناسبات. لإبراز ملابسهن الأنيقة وحلاقة شعرهن الجذابة، وإظهار زينتهن... حيث قد يقع نظر خاطية أو معجب من أحد الأقارب. بينما لم أحضر أنا أغلب الحفلات العائلية السابقة، فكيف يمكن تجنب النظرات والأسئلة والإشاعات التي أثارها غيابي ؟

اجتاحتنني كآبة سوداء. وأحسست بدبيب الغيرة في جوانبي. لماذا لا أعترف بذلك ؟ ستكون العروسة جميلة وعذراء ومحترمة. أما أنا فهيمن علي شعور بأنني مستعملة ومستنفدة. أكاد أقول غير صالحة للاستعمال... ألتظاهر بالتحفظ والبساطة، ومحاولة عدم جذب الأنظار. وأن أتسلل دون ضجيج. ورغم قلبها المكشوف وجروحها العميقة. حثتني أمي أن ألبس فستانا طويلا. إلا أنني فضلت قميصا ملونا على سروال جينز أسود أنيق، ورحبت بالضيوف وخدمتهم برصانة. وأعددت إجابات جاهزة لكل الأسئلة الطارئة : درست في إحدى مدارس «طرابلس». ثم التحقت بكلية طب الأسنان. الحمد لله، كل شيء على أحسن ما يرام في حياتي. أوه، الزواج ؟ أكيد، يوما ما إن شاء الله... نبي يسهل، ووشوشة بعض خالاتي في أذني «لدينا عريس لك». كنت أرد بابتسامات فائرة. هكذا مر العرس بسلام.

استعادت الحياة نسقها الطبيعي في «طرابلس»، وعاد عزيز ليعيش مع زوجته في الغرفة الكبيرة، وأنا في غرفة صغيرة. وبدأ أخي يلعب دور رب العائلة. جزع من سجاثري،

موع

لك

ت

لقد

من

ينة

ادة

ثم

هو

ست

ته؟

نه؟

للة

كل

لانا

في

ت

فر

وحاول ضربي. رغم أنني لا أدخن إلا في الحمام. لقد كانت علاقتنا باردة، ويبدو أنه إحساس متبادل.

أتى سائق باب العزيزية للبحث عني عديد المرات، دون جدوى. كانوا بجيبونه بأنها ليست هنا. استغربت عدم إلحاحهم. غير أنني سرعان ما قمت بخطأ كان من شأنه أن يدمر ثقة أمي بي نهائياً. فقد استعملت حجة الذهاب لباب العزيزية كغطاء للتسلل مع هشام في أواخر سنة 2010. يا لها من مهزلة ؟ نعللت بمكالمة من مبروكة وقلت لأمي : «من المحتمل أن أبقى ثلاثة أو أربعة أيام». كان الأمر مقرفاً. لكني لم أكن أملك إلا هذه الحجة لأتنسم قليلاً من الحرية.

لما عدت. وجدت حرباً معلنة في المنزل. فقد طلبوني بالفعل في باب العزيزية. واكتشف أهلي أنني إذا لم أكن هناك. هذه المرة انتهيت تماماً في نظر عائلتي.

التحرير

في 15 فبراير، نزل سكان «بنغازي» إلى الشوارع، وخاصة كثير من النساء بالأساس. من أمهات وأخوات وزوجات المساجين السياسيين الذين قتلوا سنة 1996 في سجن أبو سليم. محتجّات على الاعتقال المفاجئ لمحاميهن. لقد أدهش الخبر كل العالم. وكنت أعلم أن العديد من الناس يستعدون للنظاير في «طرابلس» بعد يومين ؛ حيث حدد الليبيون يوم 17 فبراير «يوم الغضب». وكنت أرى ذاك الحماس، وتلك الرغبة في الثورة التي صارت تجتاح السكان، وأنا أقول في نفسي : «يا للروعة». ولكن لا أحد كان يمكنه تخيل إلى أي شيء يمكن أن يؤدي ذلك. أو مآلات هذا الحراك. فقد بدا لي معمر القذافي خالدا، لا يتزعزع. وكنت أسجل باندعاش تصاعد وتيرة الاحتجاجات ضده وسقوط احترامه، وتصاعد السخريات والتهم تجاهه. ورغم ذلك الخوف؛ المغلف بازدراء وحقد دفينين. الذي كان يجثم فوق الصدور ؛ حيث كان القذافي يملك حق الموت والحياة

في ليبيا. إلا إن أهالي «طرابلس» أخذوا يعبرون تدريجياً عن مشاعرهم بشكل مفتوح.

يوم 16 فبراير، خرجت من المنزل مدفوعة بهذه الثورة الجينية. لأقوم بثورتي الشخصية. ألا يعتبروني مومساً؟ ولا أصلح لأي شيء، إذا سأفعل بحياتي ما أشاء. هكذا تركت عائلتي وذهبت للعيش مع الشاب الذي أحبه، وذاك قرار غير معقول ومرفوض، بل غير قانوني في ليبيا. فكل علاقة خارج مؤسسة الزواج كانت ممنوعة تماماً. ولكن ماذا أفعل بالقانون بعد الانتهاكات التي تعرضت لها، من يحمي القانون؟ هل يتجرؤون على محاكمتي لأنني أرغب في العيش مع الرجل الذي أحبه، بينما كان سيد ليبيا يحتجزني ويغتصبني مدة سنوات؟

استقر بنا المقام أنا وهشام في استراحة صغيرة كان قد شيدها بيده في منطقة «عين زارة»، بضواحي «طرابلس». كان هشام يشتغل بحارا يفوص لصيد الأخطبوط. وكنت أنتظره في البيت وأعد له الطعام. ولم أكن أطلب أكثر من ذلك. وددت المشاركة في مظاهرة 17 فبراير الكبيرة، إلا أنني كنت بعيدة جداً. واكتفيت بالتسمر أمام التلفزيون، حيث كانت قناة الجزيرة تبث صور الثورة وأحداثها مباشرة. كنت في حالة ذهول! يا له من حراك! يا له من تحدا! ها هم الليبيون ينتفضون. ها هي ليبيا تستيقظ. أخيراً! محوت من جوالي كل أرقام باب العزبية. فاليوم صارت لديهم من المشاغل ما يكفيهم للبحث عني. حرص هشام بفضل علاقاته ببلدية «طرابلس» على إصدار عقد زواجنا بشكل سري. لم تكن هناك حفلة ولا حضور لعائلتي.

على كل. ما كانا ليوافقا على زواجنا ومباركته. طمأنني ذلك مؤقتا. رغم أنني اكتشفت فيما بعد أن الوثيقة لا قيمة قانونية لها.

ذات يوم بثت قناة الجزيرة صور الشابة الليبية إيمان العبيدي وهي تفتح قاعة المطعم بفندق ريكسوس «بترابلس» في حضور الصحافة العالمية. وهي تصرخ بأن كتائب القذافي قد اغتصبتها. كانت تلك لقطات غير مسبوقة. كنا نراها تصرخ بحكايتها. ورجال الأمن والبرتوكول يسرعون لإخماد صوتها. لكنها كانت مصرة على إتمام حكايتها. تبكي وتقاوم. حاول الصحافيون مساعدتها. لكنها في الأخير. انتزعت بالقوة. تاركة كل العالم في حالة دهشة. صعقتني شجاعتها. وقلت في نفسي : «أكيد سيفولون أنها مجنونة. أو أنها مومس». لكنها في الواقع قد رفعت الستار عن مآسي آلاف النساء الليبيات. حيث لم أشك من طرفي لحظة. في أن قوات القذافي. تتصرف تماما على شاكلة سيدهم.

أصدقاء هشام أخبروه أن باب العزيزة يقوم بعمليات «تنظيف». للقضاء على «فتيات» الطابق السفلي. وإزالة كل الشهود لما كان يجري داخل الجدران وفي الأقبية. وعلمت أن رجال القذافي المسلحين أو «الكتائب المشهورة» أتوا للبحث عني في المنزل. وأنهم هددوا والدي. وحققوا معه بشدة. وعندما قال لهم أنني قد سافرت مع أمي. قالوا له : «يجب أن تأمرها بالعودة!». في حين أن أمي التجأت إلى المغرب مرعوبة. وطلبت للحماية. كما هاجمت الكتائب عائلة هشام. وسألوا هناك : «أين ثريا؟». وكانت إجابة

جبا

ثورة

سا؟

كذا

ذاك

فكل

لكن

من

غيب

يبيا

قد

ن».

نت

من

إلا

ون.

رة.

ها

يا!

ت.

سام

جنا

ينا.

العائلة بأنها لا نعرفني. واستدعي هشام إلى مركز شرطة الحي، عندها جاء إلي مرعوبا : «لا بد أن تغادري إلى تونس. لا يجب أن نضيع ولا دقيقة».

عهد بي إلى أحد أصدقائه، سائق سيارة إسعاف. هكذا استطلعت اجتياز الحدود، للالتحاق بأقاربي في تونس. كنت أتابع ما يجري على الأرض يوما بيوم. ودقيقة بدقيقة. ضربات الحلف الأطلسي. وتقدم الثوار. والمشاهد الوحشية للحرب. وكنت أعيش كل ذلك في قلق شديد. وكلّي رغبة في العودة إلى ليبيا. لكن هشام كان يرفض بشدة. كان خائفا أن يعتبرني الثوار من أعلام القذافي. أو واحدة من أفراد الدائرة الأولى التي كانت حول العقيد، بكل ما يتبع ذلك من شكوك واتهامات بالفساد والتجور. بدت لي هذه الفكرة غير منطقية ولا معنى لها! أنا شريكة ومتواظنة؟ أنا التي اختطفت واسترقت؟ أنا التي لم يعد لي أمل في حياة طبيعية إلا بالإطاحة بالقذافي ومحاكمته؟ صرخت في الهاتف إن مخاوفه سخيفة ومهينة. وأنها الضربة التي لا بعدها ضربة أن يتم الخلط بيني : أنا «الضحية» وبين أعلام جلادي ! غير أنني بعد ذلك : وعندما تنامي لسعي شائعة مقتل نجاح وفريدة، بدأت أشعر بالفعل بالخوف.

في شهر أغسطس. ومع بداية شهر رمضان الكريم، تنبأت عرافة بموت القذافي وتحرير ليبيا بتاريخ 20 رمضان، فرجعت إلى ليبيا. والتحقت بهشام في مسكننا الصغير. لكن الوضع كان على درجة من الصعوبة. والحياة في المكان كانت لا تطاق. حيث لم يعد هناك لا ماء ولا غاز ولا كهرباء ولا بنزين. بينما استمرت ضربات النيتو

وتصاعدت ونيرتها. كان الوضع بالفعل كارثي. في يوم 8 أغسطس. اتصلت مجموعة من كتاب القذافي بهشام وأخيه للمشاركة في عملية ليلية قرب الزاوية. أعتقد أنها كانت تتعلق بتفريب عائلة في سفينة. لكنني لا أعرف تماما حقيقة التفاصيل حيث لم يخبرني هشام كي لا يزيد في نوتري. كان لدي انطباع أنه لا خيار له. وإن المهمة فرضت عليه. هكذا ذهب في قلب الليل. وكانت تلك الرحلة التي لن يعود منها أبدا.

حيث تلقيت بعدها اتصالا هاتفيا من أصدقائه يخبرونني: إن سفينتهم قد تعرضت لقصف جوي من قوات النيتو. فأسرعت تحت وقع الصدمة إلى بيت والدة هشام. فوجدتها تكي بحرق. وأخذتني بين ذراعيها. والله يعلم كم رفضتني في السابق. وكيف أنها لم تقبل بعلاقتنا على الإطلاق. ضغطت عليها بالأسئلة. لكن يبدو أنها لم تكن تملك أكثر مما أعرف من المعلومات. حيث كانت الأخبار التي وصلتها جزئية ومتضاربة. كل ما رشح منها أن هشاما أُغتير في عداد الموتى. بينما سبح أخوه مدة تسع ساعات حتى بلغ الشاطئ بخير. مع جروح طفيفة في الرجلين. لكنه لم يكن قادرا على إعطاء أي معلومات إضافية.

كل ما هناك أن هشام قد اختفى. وأنه يجب اعتباره قد فارق الحياة رغم عدم العثور على جثته. عكس الآخرين الذين لا قوا حتفهم على ظهر نفس المركب وتم التقاط جثامينهم. هكذا أقيم لهشام مجلس عزاء. بينما أصابني الأمر «بدمار شامل» : وأنهرت كمن صعبه القدر.

يوم 23 أغسطس تم تحرير «طرابلس». وخرج جميع السكان إلى الشوارع والساحات. وقد استبد بهم مزيج من المشاعر في آن... كانوا في حالة قصوى من النشوة والغبطة والإرتياح. خرجت النسوة مع أطفالهن. تلوح بألوان رابتنا الجديدة. وكان الرجال يتعانقون، ويرقصون. ويطلقون العبارات النارية من الكلاشينكوفات في الهواء، ويرفعون أصواتهم بالتكبير.... «الله أكبر». بينما كانت مكبرات الصوت ترفع في سماء البلد أعذب الأناشيد الثورية.

كان الثوار فرحين رغم انهاكهم. يستقبلون استقبال الأبطال. وقد فتحوا السجون، وافتحوا باب العزيزة! لقد كان المشهد يتجاوز الخيال. أطلقت الزغاريد. وصفت لمواكب سياراتهم. وحمدت الله على هذا اليوم الذي سيبقى أعظم يوم في تاريخ ليبيا. ولكنني كنت أبكي في أعماقي. كنت منسحقة وضائعة.... هشام لم يعد هنا.

استمرت التلفزيونات تبث كامل الليل، والأيام الموالية؛ صوراً مذهشة لدخول الثوار إلى باب العزيزة، وافتحام منازل وفيلات زمرة الغدافي. وهم يستعرضون أمتعة العقيد وتمائله البشعة. والاستهزاء بذوقه السيئ. والأملاك الفخمة لأبنائه. شوهت تماثيله النصفية، ووطئت صورته بالأقدام وبقرت. وعندما تم عرض منزل صفية على أنه «المنزل العائلي»، حيث يفترض أن غرفة العقيد مجاورة لغرفة زوجته : هزرت كنفي نيكما. لا أحد لديه فكرة عما يبدو خلف البوابات القولاذية لباب العزيزة. لا أحد قادر على تخيل عيشة المساكين في تلك الأقبية الموحشة.

سكنت مؤقتا لدى صاحبة أحد أصدقاء هشام. إلا أن أبي خاف علي. هكذا في يوم 28 أغسطس. قبلت السفر معه إلى تونس. ولم أعد إلى «طرابلس» حتى آخر شهر سبتمبر.

ماذا أفعل بحياتي ؟ كيف أستعيد زمامها وأوجهها ؟ فأنا، رغم أنني لم أتجاوز سن الثانية والعشرين بعد، براودني الإحساس بأنني شأهدت كل شيء. وأنتي عشت طويلا. وإن عيناى وجسدي قد نعا. استنفدا. ولم تعد لي طاقة على الحياة، ولا دافع، ولا وسائل. لقد فرغت من كل رغبة. ومن كل أمل. وأصبحت أتوجه إلى طريق مسدودة. لا مال لدي وبلا تعليم ودون وظيفة. وأصبح الأمر مستحيلا أن أعيش مع عائلتي. فإخوتي صاروا يعرفون الحقيقة. أين سأعيش إذا ؟

فلا يوجد فندق في ليبيا يسمح باستقبال امرأة بلا محرم. ولا مالك محترم يمكن أن يؤجر غرفة لإمرأة غير متزوجة. فربيتي التونسية «حياة»، وهي جد متضامنة معي، قد قبلت مرافقتي لفترة في «طرابلس». ولكن فيما بعد ؟

سمعت أن محكمة لاهاي الدولية قد أصدرت مذكرة إيفاق ضد القذافي ؛ بتهمة جرائم ضد الإنسانية. وضعت أملي في قوة شهادتي. ينبغي أن يتم الاستماع إلي. لا بد أن أكون مقصتي. وأن أرفع دعوى ضد جلادي. أريد مشاهدته خلف القضبان وأرغب في مواجهة أخيرة معه وجها لوجه. وأن أنظر إليه في عينيه مباشرة وأسأله بمرودة : لماذا ؟ لماذا فعلت بي ذلك ؟ لماذا اغتصبني ؟ لماذا احتجزتني،

ضربتني. خدرتني، شتمتني ؟ لماذا علمتني شرب الكحول
والتدخين ؟ لماذا سرقت حياتي ؟ لماذا ؟ لماذا ؟.....

ولكن الآن ها هو قد لاقى حتفه في 20 أكتوبر.
قتلوه الثوار، بعد دقائق من خروجه من مخبئه في قنوات
الصرف الصحي. يا لها من سخرية القدر، أن يكون
مصيره كالجرذان أمام هؤلاء الذين كان يصفهم بالجرذان!
رأيت وجهه مغطى بالدم في التلفزيون، وجهه معروضة في
حجرة تبريد في «مصرانة»، كقطعة لحم تالفة. ولا أدري
أي المشاعر كانت أقوى، من ذلك المزيج الذي اجتاحني،
إحساس عارم بالارتياح لهزيمته النهائية، أو الرعب من
مظاهر العنف، أو الغضب الشديد لرؤيته وقد أفلت من
المحاكمة، ما يمكن أنؤكدده هنا، هو أن الغضب الشديد
دون أدنى شك هو الذي اعتراني. فقد مات دون أن يقدم
كشفاً بأفعاله وجرائمه إلى الشعب الليبي، الذي داسه
أكثر من اثنين وأربعين سنة، ودون الوقوف أمام العدالة
الدولية، وأمام العالم، وخاصة أمامي أنا.

هكذا، أكون قلت كل ما لدي. كنت بحاجة إلى ذلك، بل
كان ذلك واجباً. تأكدوا أن الأمر لم يكن هيناً. كان لابد من
مقاومة مشاعر الخوف والحياء والحزن والمرارة، والتفرد،
والتمرد، المتصارعة في دماغي، والتي لم تتركني بسلام.
يا له من غليان !.

في بعض الأيام، تمنحني كل هذه المشاعر قوة استثنائية،
ونعطيني نوعاً من الثقة في مستقبلي، ولكن غالباً، ما يرهقني
كل ذلك. ويفوص بي في بئر عميقة من الشجون والأحزان.

لقد أصبحت فتاة ضائعة. وأفسدت حياة عائلتي. فتاة
مرشحة للقتل. في نوايا إخوتي. فشرفهم في الميزان. هذه
الفكرة تجمد الدّم في عروفي : أن بذبحني إخوتي : حتى
يثبتوا للناس أنهم رجال محترمون. فإن قتلني وحده ما
سيكون من شأنه أن يفسل العار. فأنا نجسة. هالكة. ولا
أحد سيبكي موتي !.

من جهتي. أنا أريد أن أعيد بناء حياتي في ليبيا الجديدة.
لكنني أتساءل هل ذلك سيكون ممكناً ؟

الفصل الثاني

التحقيق

على خطى ثريا

ثريا لا تكذب. هي تروي ما رآته وما عاشته وأحسسته. دون أدنى تردد في الإقرار بما لا تدركه. لا تفهمه. أو لا تعلمه. لا تحدوها أية رغبة في تهويل الأحداث أو تضخيم دورها. هي لا تعتمد التخمين قط. وعندما أطلب منها مزيداً من التفاصيل كانت غالباً ما تواجهني بالقول: «أسفة. ليس لدي أدنى فكرة. لم أكن أتواجد هناك». هي لا تبحث عن لقب الصادقة : بقدر رغبتها في أن نصدق. وكان ذلك الالتزام حيويًا بمعنى ما. فقد اتفقنا أنا وهي على مبدأ أساسي : الصمت أفضل من التخمين أو الكذب. فقد تطيح أقل مغالطة بمصادقية الشهادة برمتها. لذلك روت ثريا كل شيء مصححة والدها إذا ما لاحظت أدنى تدبير للأحداث في أقواله. أحياناً. وعند الحديث عن بعض المواقف مع الغدافي. كانت تعتذر لاستعمال ألفاظ سوقية كانت تعتبرها مهينة. ولكن هل من بديل ؟ كانت تستمتع حين تلمح صعوبات في الترجمة : «أتساءل أي مفردة

ستستعملين للتعبير عن هذا! أنا لا أسهل عليك مهمتك.
أليس كذلك؟»

يا لها من راوية مميزة ! لقد تقدمت للحوار بإرادة استثنائية، وشجاعة أبهرتاني. كنا نلتقي يوميا. في مطلع هذه السنة 2012، في شقتها بطرابلس حيث كانت تقيم مؤقتا. وبدرجة أقل كثيرا في غرفتي بالفندق. كانت تنغمس بشغف في حديثها. تغوص في المواقف وتحاكي المشاهد فإذا هي «سكاتشات» متتالية. مُشكلة الحوارات من جديد. مشيرة بيديها. رافعة صوتها. مقطبة حاجبيها. وكانت تنتصب أحيانا واقفة لتحاكي مختلف الشخصيات. من القذافي إلى مبروكة أو ... توني بلير.

كيف أنسى تأثيري لرؤيتها وهي تعيش من جديد بعض المواقف العصبية التي لم تتخلص بعد من بشاعتها ؟ كيف أنسى حزني لسماع بأسها المنفجر؟ كيف أنسى حيرتي عند تصور مستقبلها ؟ أو ضحكنا الهستيري أيضا عندما كانت. في ختام كل محادثة مطولة، تعدل التلفزيون على محطة للموسيقى المصرية، وتعتقد بخصرها منديلا مزركشا يقطع معدنية لماعة، وتصرّ بكل إثارة وفتنة على تعليمي رقصة هز البطن ؟ «قفي مستقيمة أنيك. افتحي ذراعيك! ارفعي صدرك! ابتسمي يا غراء! هيا انطلقني! تمايلي! تأرجحي!»

تعمّرت علاقة ثريا بعائلتها مما أجبرها على المزيد من العزلة. لم تحبذ أن أقابل والديها مرة أخرى قبل مغادرتي طرابلس. لحسن الحظ كنت قد قابلت والدها في يناير 2012. كان رجلا مربوع القامة، تلوح عليه ملامح الإرهاق.

كان يأتي لزيارتها مساءً، خلسة تقريبا، دون أن يُعلم زوجته، وكان ينظر إليها بحنان لا متناهي. وقال : «هي من كان يُضيء البهجة في المنزل منذ صغرها. كانت مَهْرَجَة بالفطرة ! منذ يوم اختفائها، غرق المنزل في حزن لم يغادره أبداً». كان غاضبا من نفسه لأنه لم يكن متواجدا بسرت يوم زيارة القذافي لمدرسة ثريا : «لو تعلمين كيف تخيلت مشهد باقة الورد، وكم كررته في رأسي مئات المرات ! أنا متأكد أن المتواطئين قد مرّوا بصالون الحلاقة فلاحظوا ثريا. أشك أيضا أن مدير المدرسة كان متواطئا مع جماعة القذافي لكي يتم اختيار مجموعة من الفتيات اللاتي سيعجبهن بكل تأكيد. بكفي بعد ذلك اخلاق أيّ عذر لتقديمهنّ له. أنا على يقين الآن، في كل منطقة من ليبيا، كان للقذافي عصاية من المجرمين للقيام بالمهام الوسخة».

كان يلوح بقبضته من الفصيص ويهز برأسه، تائها في خواطره، في أسفه وأحزانه. لو كنت هناك، لما كنت تركت ثريا تغادر أبدا مع أولئك النسوة الثلاثة بمثل ذلك العذر السواهي : لا معنى لذلك ! عندما أخبرتني زوجتي، دون أن تجرأ على مدّي بالتفاصيل عبر الهاتف - فقد كانت ليبيا يرمتها تعلم أنها تحت التنصّت - توجهت مباشرة من طرابلس إلى سرت، ووبختها بما فيه الكفاية. كان الجو قظيما، انتظرنا ليلة، اثنتين، ثلاثة، ثم جنّ جنوني. كنت أتمنى أن تنشق الأرض وتبتلعني. كانت زميلاتها، وأسانذتها، والجيران، وزبونات صالون الحلاقة، كلهم يسألون : «أين ثريا؟». هكذا عدت إلى طرابلس، واستطاعت والدتها أن تجيب : «ثريا عند والدها».

رفع شكوى ؟ لمن ؟ لماذا ؟ لقد غادرت ثريا في سيارة تشريفات، محاطة بالحرس الشخصي للقائد. لم يكن أي احتجاج واردا. «من ذا الذي يفكر في رفع شكوى في الجحيم ضد الشيطان؟». انهار الوالدان عندما تلقيا تأكيدا بأن خوفهم الأكبر تحول إلى حقيقة. وأن القذافي جعل من ثريا فريسته بالفعل. يشرح والدها : «كان البديل واضحا: العار أو الموت. لأن التنديد. والاحتجاج وتقديم الشكوى يساوي حكم الإعدام. لذلك دفنت نفسي بطرابلس ونسيت طعم السعادة إلى الأبد».

كان يتمنى أن يتم إنصاف ابنته. وأن تعود مرفوعة الرأس. «نظيفة الشرف» أمام العائلة الموسعة. ولكنه كان يعلم أن ذلك مستحيل : «كل من يحيط بنا كان يشك في أمر ثريا. وصار الجميع يعتبرني «لست رجلا». وهو النعت الذي لا يوجد لدينا أسوأ منه. والذي ينسحب أيضا على أبنائي. والذين أصبحوا منهارين. معقدين. غير قادرين على تصور مخرج آخر للظهور كرجال حقيقيين إلا بقتل أختهم! لم يعد لديها أي حظ في ليبيا. مجتمعنا التقليدي غبي وقاسي جدا. هل تعلمين ؟ رغم كل الوجع الذي قد أحسه أنا والدها. أحلم أن تتبناها عائلة أجنبية.

※

كان عليّ الذهاب إلى سرت. بلدة القذافي. كنت أريد رؤية العمارة التي ترعرعت فيها ثريا. صالون الحلاقة الذي تديره والدتها بنشاط. والمدرسة حيث وقعت حادثة باقة الورود. لم تكن ثريا متحمسة ولم أكن أظنها تريد

مرافقتي، لكنها كانت متفومة. كانت هي نفسها تتساءل عما أصبح عليه معقل القذافي الموجود على بعد 360 كلم عن طرابلس. كانت سرت في السابق قرية صغيرة للصيادين. وكان سيد ليبيا يحلم بتحويلها إلى عاصمة للولايات المتحدة الأفريقية. قبل أن تصبح في يناير 2011 مسرحا للمعارك الضارية والدموية. وللقصف الشديد من الحلف الأطلسي. ولم يعد الآونة الحديث عنها ممكنا إلا باعتبارها مدينة أشباح. متأكلة من الخوف، ومريضة بأحلام العظيمة التي أعدمها الحاضر. بات واضحا أن القذافي لم يُسد لها خدمة بفراره اللجوء إليها في ساعة الحسم. جالبا لها طوفانا من حديد، وغبار، وثار...

كانت الطريق طويلة، ومضجرة جدا. كانت نثر عبر فضاءات صحراوية شاسعة حيث كانت تبرز تحت سماء نحاسية، فقلعان خرفان أو بعض النوق الرمادية والشاردة. كانت بعض القطرات تتساقط أحيانا، فتتنظف الزجاج الأمامي للسيارة. ثم تحركت الرياح، وحملت معها أعاصير رملية. استحالت معها قيادة السيارة. أشباح من البدو تقف على حافة الطريق ظهرت أمامنا فجأة، واليد تمسك بالوشاح الذي يغطي الوجود. وكنا نخشى في أي لحظة الظهور المفاجئ للحيوانات. عند نقاط التفتيش، كان الثوار يرتدون غطاء واقيا للرأس ونظارات شمسية لتفادي الرمل. وكانوا يشيرون لنا بالمرور بإيماءة بسيطة بالكلاشينكوف. دون تشدد في التثبت من هويتنا. كان الطقس سيئا جدا للقيام بمثل هذه الزيارة، فريح الصحراء كما يقال نصيب بالجنون. على أن الشمس سرعان ما أخذت في البزوغ

تدرجيا، وظهرت سرت. أو بالأحرى هيكلا عبر الأفق. صفوف من منازل قفزة، مدمرة ومنهوبة، بقايا عمارات. حيطانها مسودة ومحقرة من أثر قصف الصواريخ وقذائف الهاون، كانت بعض المنازل والمباني خربة أو لنقل بالأحرى مفتتة. فقد كانت المعارك هنا يائسة ووحشية. بعيدا، كان الوضع يبدو أقل خطورة. كانت العمارات السليمة قليلة، لكن كنا نشاهد هنا وهناك، على طول الشوارع العريضة المصطفة بالنخيل، بعض الدكاكين المفتوحة. أفادني أحد التجار : «لقد عادت الحياة بسرعة، البعض فر طبعاً ولن نراه مجدداً. لكن 70 % من السبعين ألف من سكان سرت عادوا. يتأقلمون. ويصلحون، حتى لو كلفهم ذلك تكوم عشرة أفراد في الغرفة الوحيدة السليمة تقريبا من البيت. ما العمل؟».

كان الشارع الذي توجد فيه شقة عائلة ثريا في حالة جيدة. عمارات بيضاء مصطفة ومتشابهة، لا تتجاوز الثلاثة أو الأربعة طوابق، تظهر قليلا من الندوب. سيارات بورش أعيد طلاؤها بالأخضر (لون يرمز لنظام القذافي بات محظورا في كامل البلاد : ربما تم التخلي عن مخزون طلاء قديم) ومغازات ملابس، ومواد غذائية، وصيدلية ومحلات تجميل مفتوحة تحت الأقواس. في شارع مجاور، كان صالون والدة ثريا، وقد أصابته بعض الشظايا النارية. وكان الستار المعدني مسدولا حتى تصورت أن المحل مغلق. لكن أحد الجيران أفادني أن ذلك لحماية الزبونات من أنظار المارة؛ لأن الواجهة الزجاجية تحطمت ولم يتمكن أصحاب المحل من تعويضها. في الداخل، كانت هناك عاملة بصدد تسريح

خصال فضية لشعر زبونة شابة معقدة الهياة. عاملة أخرى تقدمت ناحيتي مبتسمة وأخبرتني أن دفتر المواعيد محجوز إلى آخر النهار.

كانت هناك ثلاث نساء محجبات تنتظرن وتحملفن في. ولم تكن حينها صاحبة المحل متواجدة. أقيت نظرة على المكان محاولة التقاط أي تفصيل قد يذكر بشريا، ولكن لم يكن على الحيطان السوداء والوردية أي صورة أو زخرفة تشد الانتباه، فقط بعض المرايا البيضاوية الشكل التي تمنيت أن أجد فيها خيالها،

*

أسرعت إلى المدرسة وكلي لهفة. «مدرسة الثورة العربية». مبنى ضخيم بني اللون يبدو سليما أو حسن الترميم. تجاوزت الساعة الواحدة بعد الظهر وكان عشرات الأطفال: صبيان وبنات، يتزاحمون في الأروقة، صيحاتهم تدوي في السلالم المطلية حديثا. في الخارج، تلاميذ آخرون تفرقوا في الساحة الداخلية المعبدة بألواح وردية والممتدة إلى قاعة رياضة وملعب. كانت الفتيات يرتدين اللباس الموحد تماما كما وصفته ثريا : سروالا وسترة سوداوين، مع وشاح أبيض يغطي الشعر. فاجأني صغر سنهم؛ لقد وصفت لي ثريا مدرسة لا تستقبل إلا السنوات الثلاث من التعليم الثانوي، أي تلاميذ في سن ما بين الخامسة عشر والسابعة عشر. ترى هل كنت في المكان الصحيح ؟

طمأنني رجل ذو وجه شاحب، موسوم بشارب ضخمة. وهو يشرح : «لقد دمر النانو مدرستين في مدينة سرت؛

استخدمنا لتخزين الأسلحة. فكان من الضروري اعتماد نظام المناوبة للتلاميذ : حتى يتسنى لمعظمهم الاستفادة من المباني السليمة. هكذا يكون في الصباح مدرسة. وبعد الظهر مدرسة أخرى. اتصلنا من هاتفه الجوال بمدير المدرسة الثانوية. الذي كان متواجدا في الصباح وغادر المكان. أتى في بضع دقائق ، كان طويل القامة ضخما تحيط بوجهه لحبة كثيفة. وبدا باردا وقلقا. جلسنا في أحد الفصول الفارغة، وفسر لي طوفان الصعوبات التي كان لا بد من مواجهتها حتى يضمن العودة المدرسية لـ 913 تلميذا يوم 15 يناير. أي أسبوعين فقط بعد بقية المدارس بليبيا».

يعتبر ذلك إنجازا : بما أن المعارك طالت أكثر مقارنة بالأمكن الأخرى. فقد تجند الأولياء بروعة. كان الكل كان على الأرض لإزالة الأنقاض. وإعادة تركيب الأبواب. التوافذ. والمرافق الصحية. وطلاء المبنى برمته. فقد تعرض كافة التجهيزات المدرسية : من ميكروسكوبات. وأجهزة التلفزيون. وأجهزة الحاسوب. للسرقة. أما المكاتب والمكتبات والمخابر فقد نهبت بالكامل. وبسبب نقص المساعدات الحكومية. تجندت كل العائلات لتقديم الدعم.

كانت سرت مكدومة. منهكة. وشاحبة. ولكن لم يكن هناك أي داع لأن يدفع الموسم الدراسي الضريبة. كانت الأوضاع قاسية جدًا بما فيه الكفاية : «لا أحد يمكنه تصور درجة الصدمة لدى أطفالنا. بعض العائلات فقدت خمسة أفراد في المعارك الأخيرة. وكان واردا أثناء الدرس أن نصاب

بعض الفتيات فجأة بأزمات هستيرية، أو أن يغمى عليهن. إذ إنَّ أيَّ كلمة أو صورة من شأنها أن تفجّر شلالات من الدموع. ولم تعد المرشدة الاجتماعية كافية. نحن بحاجة إلى أطباء نفسانيين».

كانت المدرسة تشكو من نقص في عدد الأساتذة. فبعض المدرّسات اللاتي فقدن أزواجهن في معركة سرت، لا ترغبن في مباشرة الدروس أو أنهن لا يفدرن على ذلك. جزء من المواطنين قد اختفى. ولا أحد يعرف إذا ما ماتوا ؟ : «بل لقد غادروا». ردّ ببساطة. فالمدير السابق مثلاً، «غادر ليبيا ولا نملك أية أخبار عنه». من الواضح أنّه كان مناصراً جداً للقذافي. بحيث لا يمكن له أن يأمل في حياة دون متاعب. لهذا عين محمد علي مفتاح بديلاً له. المدرّس المخضرم، والذي عين بالمدرسة منذ تسعة عشرة سنة، والذي كان يشعر أنّه قادر على تحمّل المسؤولية الجديدة. إضافة إلى ذلك وخلافاً للإشاعات، أكّد أنّه لن يقع أيّ مساس بالبرامج المدرسية. فانتصبت واقفة. ألم يصرح وزير التربية الجديد، على العكس من ذلك، بضرورة القيام بثورة بيداغوجية كاملة، والعمل على إعادة هيكلة جميع البرامج، وإحداث لجنة خبراء نهتمّ بإعادة صياغة جميع الكتب المدرسية ؟ بعض الثوّار تحدّثوا أمامي عن بعض الانحرافات في البرنامج التعليمي كما تصوّره القذافي. دروس الجغرافيا مثلاً تصوّر العالم العربي على أنّه كتلة واحدة، والخرائط تشير إلى أسماء المدن فقط. دون أن ترسم أية حدود لمختلف البلدان. كما كانت دراسة الكتاب الأخضر تستهلك عديد الساعات في الأسبوع وتمتد على

سنوات عدّة. وكان تعليم اللغات الغربية مثل الإنكليزية أو الفرنسية قد منع في مستهلّ السنوات الثمانين لفائدة لغات جنوب الصحراء مثل «السواحلية» و «اليوسا». أمّا عن تاريخ ليبيا فهو يبدأ مع العقيد القائد دون أدنى إشارة إلى الحكم الملكي لعائلة السنوسي قبل 1969. «تعليمها ذو طابع علمي». رد المدير بجفاء. «لذلك لسنا مهتمّين جدًا بالتغييرات. إضافة إلى أننا نتبع منهج تدريس مستورد من سنغفورة. أمّا بخصوص التعليم السياسي. فقد تم حذفه».

عندها طرحت السؤال الذي طالما أرقني منذ تواجدي بين حيطان هذه المدرسة. في شهر ابريل عام 2004. قام العقيد القذافي بزيارة المدرسة. وقدم له باقات ورود وهدايا من طرف بعض التلميذات الجميلات. ثم تمّ اخنطاف إحداهن بعد أن لمحها العقيد القائد. لتصبح جارية لإشباع نزواته الجنسية. هل لدى مخاطبي أي علم بذلك ؟

توهجت عيناها السوداء وان جمرا. وما إن أنهيت سؤالتي حتى صرخ : «هذا زيف ! هذا خيال ! هذه حماقة !». عفوا ؟. لكنه واصل : «ليس لقصتك أي معنى ! لم يكن العقيد القذافي يزور المدارس أبدا». كان مشبّزا ومغتاظا جدا. لكنني تابعت بصوت هادي : «لقد قابلت الفتاة وشهادتها جدّية. لقد قدّمت لي جميع التفاصيل». لكنه تابع رافضا لما أقول : «قلت لك هذا كذب وبهتان». لقد أصبح مخيفا بصياحه المتكرر. ولكنني واصلت : «ليبيا برمتها اعتادت رؤية العقيد يزور المدارس والجامعات. وذلك حتى في خضم الثورة. كانت الصحف تنشر الصور

والتلفزيون بيت التسجيلات...». هنا قاطعني في غضب:
«ليس في سرت... هذه كانت مدينته، مدينته! التي عاقبونا
بسببها بنا فيه الكفاية! وهو لم يأت إلى أي مدرسة بسرت
بنانا! أؤكد لك ذلك!». تمّيت لحظتها لو كانت ثريا معي.
فتناطحه وتفحمه بدقة شهادتها. تخيلتها بعد ثلاثة أيام،
حين سأنقل لها الموقف وأريها صوراً للمدرسة، ستعلق
عليها بقوة ذاكرتها، وستكون مكبلة من الحزن قبل أن
يتفجر غضبها. لذلك زاد إصراري: «كان للعقيد في هذه
المدرسة أطفال لأبناء عمومته، أفراد من عشيرته. وإذا ما
علمنا درجة اهتمامه بالتعليم الذي حدد بنفسه قوانينه،
فإنّه ليس من المستغرب أن يؤدي لهم زيارة ودية...».

لم يهدأ محمد على مفتاح، «إطلاقاً! هذه أكاذيب!
قد يكون توجه إلى التلاميذ عبر تسجيل فيديو كنا نبثه
على شاشة عملاقة، هذا كل ما في الأمر!». أدركت حينها
بأنه لا جدوى من الإلحاح. وأتني لن أتحصل منه على أية
إضافات. خاصة وأنه بدا لي فجأة من الخطر الإدلاء باسم
ثريا - الغريب أنه لم يسألني عنه - ما من شأنه أن يعرض
عائلتها إلى الخطر. لقد بات واضحاً أن سرت لم تطوي
الصفحة بعد.

كنت على وشك المغادرة حين لمحت فجأة في غرفة
صغيرة تفتح على ردهة الطابق الأول مجموعة من
المدرّسات الشابات. لا شك أنها فترة الراحة بين الحصص،
وأنهن كنّ هناك لاحتساء الشاي. أو لوضع حقيبة أو للمزاح
مع الزميلات. تسللت بينهن وسرعان ما أحطن بي... وفي
غضون لحظات، وما إن أغلق الباب حتى تحولت الغرفة

ليزية
مائدة
«أما
شارة
لميما
تمّين
نورد
د تم

جدي
قام
دايا
لاف
سباع

إالي
!«
كن
ظا

ناة
ئنه
«
بيا
ت،
ور

الصغيرة المملّآى بشعارات الثورة إلى قفص عصافير. كانت تتكلم جميعهن في الوقت نفسه، وتتنافسن في سرد الروايات. والذكريات والتعبير عن السخط، وإذا بدأت إحداهن الحديث. تقاطعها أخرى لتواصل، قبل أن تتدخل ثالثة بدورها صائحة : «انتظرن لدي ما هو أسوأ!». حتى أنني وجدت صعوبة قصوى في تدوين شهادتهن المتدفقة كالسيل. اختطاف فتيات ؟ : «كانت سرت برمتها على علم بذلك!». سرت المناصرة للقذافي ؟ حاولت جميلة. وهي شابة مكحولة العينين ومهذبة الحاجبين أن تفسر لي الأمر : «كان للقذافي تأثير كبير على أبناء مدينته، وعشيرته، وعائلته. وكانت المدرسة تُربّينا على تقديسه. ولكن كان الكل يعلم أنه كان منحط الأخلاق، وإنه لكاذب كل من يتكبر معرفته السابقة لذلك». أقرت زميلاتها الخمس الرواية في ضجة. مبيدات اشمنزازا من أقوال المدير : «فرّ المدير السابق بعد أن كان ضمن المربع الأخير لناصرى القذافي. وللأسف للمديرين الجدد نفس التوجه، تماما مثلما هو الحال بالنسبة لمديرتنا السابق : [المشرف على المدرسة التي وقع الحاقها بالمبنى نفسه بعد الظهر]. قبل أن نجبر الوزارة على إقالته إثر إعلامنا لها بأنه كان يواصل انتقاد التدخل الأجنبي ويسمم عقول الأطفال». وأكدت إحدى الشابات أنها كانت تلميذة بالمدرسة الثانوية نفسها التي كانت فيها ثريا. وأنها شاهدت بنفسها القذافي «يتبختر» في قاعة الرياضة، ثم أشارت عبر النافذة إلى المبنى الذي يقع في الناحية الأخرى من الساحة. لم تكن تتذكر ثريا. ولكنها كانت جازمة : «لقد زار العقيد هذا المكان». كانت زميلتها ذات الوجه الضاحك. في حجابها الأحمر. قد استمعت

إليه منذ سنتين يلقي خطابا مملا بجامعة سرت: «عندما وصل. أغلق الحي. وتوقفت الدروس... وتوقف الزمن».

لقد أكد لي أن كل المناسبات كانت فرصة بغتتها العقيد لمقابلة الفتيات. وكان يفرض نفسه لحضور حفلات الزواج في آخر لحظة: دون أن توجه له الدعوة: «كان معظم الضيوف يشعرون بالفخر. وأضافت إحداهن. لكن عمومتي. رغم انتباههم لعائلته. منعوني بصرامة من الظهور». كان دائما يستدعي التلاميذ لحضور المهرجانات التي ينظمها بكتيبة الساعدي حيث كان يقيم: «ذهبت مرة مع المدرسة ليوميين متتاليين إلى هناك. ثم منعني والدي من العودة. كان مكانا محفوقا بالمخاطر. فسر لي أخي. إذا لم يأت الخطر من القذافي. فإنه آت من شلته. أو من القياديين. أو من الحرس. أو من أي جندي. كانت أخلاق القذافي معدية!». كان يتظاهر بالمرض حتى تأتي بعض الطالبات لمواساته. «كان عمري ستة عشر سنة وكنت في معهد الفكر الرائد عندما أعلن لنا أحد الأساتذة أن الأب معمر مريض. أرسلت لنا حافلة لتقلنا إلى الثكنة حيث استقبلنا تحت خيمته. كان يلبس جبة بيضاء وقبعة من القطن بنية اللون. عانقنا الواحدة تلو الأخرى: كنا خائفات ولم يكن يبدو مريضا على الإطلاق». مدرّسة أخرى كانت تذكر أنها سيقّت من طرف مدرّستها إلى الكتيبة نفسها لتحية العقيد الشاذلي بن جديد. رئيس الجزائر: «كان من الضروري للقذافي أن يحاط بجو نسائي من الفتيات الشابات. كنا بالتسبة له وسيلة دعاية وإشباع نزوات».

وأخيرا روت لي إحدى المعلومات انه في يوم من الأيام، نظمت جماعة من أصل مصري حفلا ضخما لأداء البيعة للقائد. كان يعشق هذا النوع من التظاهرات بما أنه كان دائم القلق بشأن دعم مختلف القبائل له. وفي إحدى هذه الاحتفالات، لمح صديقة عزيزة لي، وفي الغد، توجه عدد من الحرس لجلبها من مدرستها. لكن المدير رفض متعللا بأن الوقت غير مناسب. إذ كانت بصدد إجراء امتحان، لكن في مساء اليوم نفسه، اختطف في حفلة زواج، واختفت مدة ثلاثة أيام، اغتصبها القذافي أثناءها، ثم إبان عودتها تم تزويجها إلى أحد حراسه الشخصيين : «والدها، وهو أستاذ، أخبرني ذلك بنفسه راجيا مني توخي الحذر».

ولما دق الجرس معلنا بدء الدروس، انصرفت المدرسات بسرعة راجيات ألا أذكر أسماءهن. لا شيء بسيط في سرت، العديد من السكان يجترّون بمرارة انهيار مدينتهم، يملوهم الحقد والتشاؤم، مقتنعين أن السلطة الجديدة ستنتقم منهم بسبب علاقتهم الدموية بالعقيد.

*

لم يكن السير على خطى ثريا بالشيء اليسير خصوصا أنني كنت أخشى جلب الانتباه لها ولعائلتها، أو إيقاظ غضب إخوتها والقضاء على مستقبلها في ليبيا. بات من الضرورة القصوى الحفاظ على سرية قصتها، فقط «حياة» ابنة خالتها التونسية، وحافضة أسرارها الوحيدة والوفية، بدت مضيافة وشاهدة على محاولات ثريا للفرار وللحياة، وللخروج من المشاكل العائلية. للأسف لم يكن

هناك مجال لأقابل الفتيات اللاتي كن معها في باب العزبية. الأولى أمل. متزوجة. ترجو أن تتركها وشأنها. الثانية أمل «ع». والتي تعيش اليوم بين الجنس والخمر على ذكرى رجلها العظيم. نكره فكرة أن تشي به ثريا. سائق في باب العزبية واثنان من النسوة اشتغلتا بإدارة التشريفات. وفي خضم المحادثة. لم يتذكروا من ثريا سوى أنهم التفوا خيالها الهارب. فقط. قليل جدا من الأشخاص كان بإمكانهم المرور إلى الطابق الأرضي الكريه.

أخيرا. في باريس. قدم لي صديقها التونسي عادل بعض المفاتيح حتى أفهم جيدا فشل محاولتها الفرار إلى فرنسا. قابلته في مقهى في بورت دورليون. قصير وممتلئ. ذو شعر ممشوط إلى الخلف فوق وجه هادئ جدا. حدثني بحنين ورقة عن ثريا : «جاءت منكسرة. مضطربة. دون أدنى دراية بالعمل. أو الموافقت. والانضباط والحياة الاجتماعية. مثل الطغلة الصغيرة التي نسيت ما تعلمته عن العالم. أو القصفور الصغير الذي رغم حرصه على الطيران. يعود ليتحطم مرارا على زجاج النافذة». اعثنى عادل بها بقدر المستطاع وذلك باستضافته لها عندما لم يعد بإمكانها البقاء عند وردة. جاهدا أن يحصل لها على عمل - بما في ذلك دورة تدريبية صغير لدى صالون حلاقة-. كانت الفترة للأسف قصيرة جدا لأن ثريا لا تتكلم الفرنسية. كذلك قام بالإجراءات لدى محامية قصد تمكينها من بطاقة الإقامة. وسهر على تلبية حاجياتها طوال أشهر عدة : «كان من الصعب رؤيتها تتخبط وتفشل دائما. ضحية للوعود الرائقة من رجال مهمهم الوحيد استغلالها».

كان خلطوها بالطبع هو عدم إصرارها على تعلم اللغة الفرنسية إثر قدومها مباشرة. كان ذلك خطأ لقاءاتها الأولى. وردة وبعض العلاقات الأخرى في المطعم اللبناني. حيث ذهبت ذات مساء، والذي يتحول، منذ منتصف الليل إلى مطلع الفجر. إلى ملهى ليلي شرقي. كان من السهل عليها الحياة في جوفة باللغة العربية. لكن ذلك منع عنها كل اندماج في المجتمع الفرنسي. وكل إمكانية لإنشاء علاقات للدراسة أو للعمل.

في الواقع، لم تثر ثريا. وقد كانت غير قادرة على النوم قبل الرابعة صباحا. أو الاستيقاظ قبل الساعة الحادية عشرة ظهرا. متمردة على أي انضباط أو تعليمات من أي كان. كأن لا أحد. بعد الفذافي. يمكن أن يدعي الحق في ممارسة أي سلطة عليها. كان عادل الأكبر سنا بين أخوته الثلاثة. تدرب باكرا على لعب دور رب الأسرة بعد أن فقد والده مبكرا بقباس. كان قد تخلص عن دراسته لإعانة عائلته. فهاجر إلى باريس. وبعث مؤسسة صغيرة للبناء وتجديد الشقق. تعب جدا من أجل إنجاحها. وهو قد استقبل ثريا «كمولود جديد للعائلة». كانت ضعيفة وتوجب عليه الاعتناء بها. في شيء من الفرام بطبيعة الحال. ومن لم يكن مفرما بثريا. وشعرها الأبنوسي. وضحكاتها المفهقة ؟ لقد كانت متحررة ومثاقفة جدا. كانت تغيظ بقية الفتيات لكنها كانت تحطم أرقاما قياسية في الشهرة بين جميع العاملين بالمطعم.

خلال النهار. كانت تدخن وتهاتف وتشاهد التلفزيون وتبكي أحيانا حين تكون فريسة لبعض الذكريات والأسئلة

والمخاوف. كان يبدو أنه بإمكانها أن تبوح بكل شيء لعادل الذي أخبرني أن في حديثها عن القذا في «مزيجا عجيبا من الحقد والغضب والاحترام». وقد نعرض ثريا عند ذكر آخر كلمة. ولكن لماذا نستغرب أن يكون هناك نوع من الاحترام ممزوج بالرفض والخوف نجاه من كان يملك. في هذه السن الحاسمة. الحق في حياتها أو موتها ؟

«أعلم أنها ربما كانت تحبذ أن أخصص لها وقتا أكثر وأن أرافقها خلال النهار وأجاريها في نسقها الليلي. دون أية قيود. لكن لم أكن أقدر على ذلك ! كنت منهكا : فليس من السهل النجاح في فرنسا عندما تكون مهاجرا. هذا يتطلب رغبة وجهدا جبارا. ولم تكن ثريا تفهم ذلك، لم تكن مستعدة لفهم ذلك». لذلك صار إنهاء التعايش معها ضروريا.

لم يهملها عادل حين وجدت عملا في حانة أولى. ثم ثانية. كان يزورها في حجرتها ويتسوق لها قبل زيارتها: «كنت ألاحظ جيدا أنها لم تتجاوز صعوباتها». لم يصدقها عندما اتصلت به لتخبره أنها كانت في طريقها إلى المطار لتستقل الطائرة إلى ليبيا. وقلت لها : «لن تفعل هذا ؟ غير معقول !». لكنها اتصلت به مجددا بعد بضع ساعات من طرابلس، وقال لها : « ثريا ! لقد اقترفت خطأ جسيما».

لا أملك خيارا آخر.

فلتحملي إذا مسؤولية ذلك.

لغة
انها
ابي
مف
من
منع
شاء

يوم
دية
من
تق
ين

ند
نه
رة
و
نة
ة
ة
ة

ليبييا، ليلى.... والعديد من الأخريات

كنت أود أن أحكي قصصا أخرى. أن أنحدث عن مآسي أخرى لفتيات مأساتهن أنهن اعترضن في يوم ما طريق «القائد» لتتقلب حياتهن في لحظة رأسا على عقب. كنت أود أن أبرهن أننا أمام نظام يتضمن تواطؤا ودسائس عديدة وممتدة في الزمن. ولكن لم يكن من السهل العثور على النساء المعنيات.

العديد منهن فررن من ليبيا. خائفات عند تحرير طرابلس من فكرة اتهامهن بالتواطؤ مع القذافي. ألم يكن يقطن في باب العزيزية ؟ ألم يكن يرتدين الزي العسكري؟ ألم يكن يتمتعن بامتيازات ضخمة مخصصة أساسا لشلة الدكتاتور ؟ ألم تكن هذه التسمية «بنت القذافي» مقلقة؟ من دون شك. لم يكن الظهور اليوم على السطح من مصلحتهن. ومعظمهن لا يجرؤن على محاولة التبرير للثوار أنه لم يكن لديهن الخيار. أية رحمة بأملن من كن يوصفن

بعاشرات القذافي من طرف الشعب الليبي، الذي لم يكن يتصور لهم مصيرا غير السجن ؟ بعد أن قطعن منذ زمن بعيد كل أواصر القرابة مع عائلاتهم. حيث يحاول العديد منهن اليوم الارتزاق في تونس، ومصر، وبيروت بممارسة النشاط الوحيد الذي تعلمنه لدى القذافي، والقادر على در الأموال.

أخريات، كن قد انصهرن في المشهد الليبي قبل الثورة. وغالبا بتزويج القذافي لهن قسرا بأحد حراسه كلما سجن منهن. أحيانا قليلة كن بتزوجن ابن العم دون إخباره بأي شيء. وذلك بعد أن يقمن بعملية جراحية لإصلاح غشاء البكارة. وأحيانا أخرى، تبقى هاته النسوة عازبات. وهي وضعية صعبة جدا في ليبيا ومحل كل الشبهات. وبما أن العلاقات الجنسية خارج إطار الزواج ممنوعة بالقانون، فإذا ما ثبت أو اشتبه أن لديهن عشيقا، كانت هاته النسوة عرضة للزج بهن في السجن أو في إصلاحيات تحت سلطة الدولة؛ حيث لا يمكنهن المغادرة إلا إذا تعهدن عائلاتهم بسجنهن في منازلهن، أو إذا طلبهن أحد للزواج. ولكن في مجتمع محافظ كالمجتمع الليبي، من ذا الذي يجرؤ على الاعتراف بإقامة علاقة جنسية مع القذافي، حتى ولو كان ذلك تحت التهديد ؟ سيكون ذلك بمثابة الانتحار الاجتماعي.

هذا غير خطر القتل الذي يلاحقهن لو أنهن تحدثن، سواء من قبل ذكور العائلة الذين سيعتبرون ذلك عارا لا بد من غسله، أو من قبل الشوار، وعائلات شهداء الثورة المتعطشين للانتقام، وكذلك من طرف مناصري

القذافي الذين عرفنهن في باب العزيزية. والذين يخشون شهادتهن.

امراة واحدة نهضت لتكشف عن كل هذا في أبريل 2011. وفي خضم المعارك. ممهابة. ومن تلقاء نفسها. كانت حارسة شخصية قديمة للقذافي. تبلغ اليوم 52 سنة من العمر. ظهرت على شاشة التلفزيون بينفازي. واطعة نظارات كبيرة ومحاطة براية الثورة. لتروي مأساة اللاتي مثلها افترفن. في السنوات 70. خطأ الانضمام إلى القوى الثورية معتقدات في صدق القائد. وكيف انتهكن واغتصبن لسنوات طويلة من قبله. كانت تتوجه إلى الكاميرا. تملأ الشاشة بأكملها. وتصبح أكثر مما تتكلم. متوسلة أنصار القذافي أن يستفيقوا ومتوجهة بالنداء إلى الشعب الليبي. والعربي. وإلى جميع العالم بأن يثاروا لهؤلاء النسوة المغتصبات. أذهل هذا الظهور التلفزيوني. وفي أوج المعارك. الرأي العام. لأول مرة يقدم أحدهم لمحة عن الواقع المعيش «للأمازونيات». وينطق بكلمة «اغتصاب» : موجهة أصابع الاتهام إلى الدكتاتور بعينه. ولي عهد النفاق ! استيقظ أيها الشعب الليبي ! ثم اختفت.

لم أستطع الاتصال بتلك المرأة إلا في أبريل 2012. كانت لا تزال تتمتع بنفس الروح القتالية. وقدمت لي بعض الأشلاء من حياتها الضائعة. اضطرتها التهديدات بالموت التي لحقت ظهورها في التلفزيون للهروب إلى مصر : حيث قدمت للشوار الليبيين وللناتو كل المعلومات التي بحوزتها. ورغم أنهم قد حاولوا اغتيالها. ولكن يبدو أن لاشيء كان قادرا على إيقافها. كانت قد طلبت الذهاب إلى الجبهة

وحملت السلاح في سرت مقاتلة حتى نهاية المعارك، وقالت لي : «ذلك هو المكان الذي كنت أحس فيه بالحماية»، لكن ذلك لم يجعل مني بطلة. فضيحة اعترافاتها المتلفزة خلف زلزالا في عائلتها. أجبر إخونها. وقد طالهم العار وتلخّخ منهم الشرف. على بيع منزلهم. وصلتها للتو رسالة: «اسمك على القائمة السوداء. سنقتلك قريبا. الله. معمر. وليبيا. وبس».

مجموعة من النساء الأخريات - مرعوبات - قبلن أيضا أن يبحن لي بحقيقتهن. قابت بعضهن بنفسي لبرهة من الزمن. فيما أخريات. غير قادرات على مواجهة عيون أجنبية أو الحديث إليها عن قصة لم تحك من قبل حتى للمؤتمرات على أسرارهن. فضّلن روايتها لسيدة ليبية كانت تدعم مشروعي. سامحات لها أن تطلعني مباشرة على شهادتهن. ومقتنعات بأهمية إصدار كتاب يناول هذا الموضوع. شريطة ألا تذكر أسماءهن أبدا. أو يقع تقديم أي تفصيل يمكن من التعرف على هوياتهن.

قالت إحداهن : «سأنتحر مباشرة إذا ما علمت أن زوجي أو أبنائي قد يكتشفون يوما ما هذا الماضي». وأنا على يقين أنها ستفعل. وإليكم إذن حكاياتهن كما رويت لي. دون رابط بينهن. كالمادة الخام التي لن تحصل عليها للأسف أية محكمة.

ليبيا

اقترحت السيدة التي ظهرت على شاشة التلفزيون أن أسميها ليبيا. هذا طبعاً ليس اسمها الحقيقي. فالإدلاء به

كان بمثابة الانتحار. هي تودّ التعبير عن أملها في وطن تخلص عن عبودية القذافي. لقد قضت ثلاثين سنة عند الدكتاتور. قالت يهدوء : «عمر بأكمله ! حياتي... الضائعة». كانت لا تزال في المعهد بينغازي عندما طلب منها بعض الناشطين الذين يفوقونها سنًا بقليل أن تلتحق بالحركة الثورية. كان ذلك في نهاية السبعينات. في الوقت الذي يؤكد فيه الفصل الثالث من الكتاب الأخضر الصادر حديثًا «للأخ العقيد» : على دور المرأة وحقوقها في المجتمع الليبي. كانت الدعاية تنصبّ في كل مكان. نحث الفتيات على «التحرر من قيودهن». يجب على كل الفتيات أن يخدمن الثورة وأن يصبحن أفضل الحليقات لرؤسائها. كان الاستقطاب من طرف اللجان الثورية يقدم على أنه امتياز. وبوابة عبور إلى نخبة البلاد. مما جعل ليبيا تحس بالإطراء رغم إحساس والديها بشيء من القلق. على أية حال. لم يكن لديهما الخيار : «الرفض كان سيسوقهما إلى السجن». كانت الاجتماعات كثيرة. والخطابات مثيرة. وكان القذافي يظهر أحيانًا ليفذّي حماس الفتيات المستعدات لأي شيء من أجل خدمة محدّثهم ذي المظهر الرسولي. اقترب موعد الذكرى العاشرة لوصوله للحكم. وكان يريده حدثًا عظيمًا. يحضره العديد من رؤساء الدول في بنغازي. ستثبت النساء المحاربات أنهن رأس الحرية للثورة الجميلة.

تركت ليبيا المدرسة وانخرطت بقوة في اللجنة الثورية. تتدرب على الخطوات العسكرية وعلى قذف الصواريخ. وفكرت أن القذافي على حق حين راهن على النساء وعلى تعليمهن لكسر العرافيل أمام المرأة. حتى لو أغضب ذلك

والوالدين. إلى الجحيم أغلال التقاليد ! الحرية تفتك ! ولا تمنح. كانت سعيدة أنها لم تعد تنام لدى عائلتها. وإنما مع رفيقاتها في مركز التدريب. في مساء الأول من سبتمبر 1979. وأثناء الاستعراض الكبير الذي كان يبث على جميع شاشات التلفزيون. تلقين خبرا مفاده أن العقيد بصر على تحيتهن. ابتهجن كثيرا. وتم اختيار عشرة منهن لمقابلته بمقر إقامته. حيث بدا جذابا ومعسول الكلام. قبل أن ينسحب إلى حجرته. حينئذ طلبت مؤطرات المجموعة من إحداهن. ذات الخمسة عشر ربيعا. أن تلحق به. ألبسها الزي التقليدي مؤكدين لها ضرورة التودد إليه وتسجيل الثورة التي قام بها. دخلت الصبية نملؤها السعادة. وخرجت كشيبة... والدماء شلال بين فخذيهما. لقد أصاب المنظر مجموعة المناضلات الشابات بحالة ذهول.

استأنفت الحياة مجراها. وعادت ليبيا مجددا إلى عائلتها. ولكنها أصبحت أقل انضباطا في المدرسة. وتابعت بخوف متزايد اجتماعات اللجنة تحت قيادة ناشطات في الجامعة. مررن جميعهن على الأرجح بمخدع العقيد. وخلال أشهر طويلة. استدعي العديد من رفيقاتها. الواحدة تلو الأخرى. للالتحاق بالقذافي في طرابلس. سرت أو مصرانة. يأتي سائق مباشرة لاصطحابهن في السيارة. وأحيانا في الطائرة. وكان ما يروينه حين عودتهن يزيد ليبيا كربا على كرب. لكن ماذا تقول ؟ كيف الفرار ؟ جاء دورها سنة أشهر بعد الاحتفال بالفاتح من سبتمبر. أثناء زيارة القائد لبغازي. ذات مساء. جاءت مناضلات لاصطحابها إلى مقر إقامته. جردوها من كل ثيابها. ودفعوها إلى غرفته

رغم بكائها وتوسلها : «ستقتلني أمي. الرحمة!». كان ينتظرها في بيجامة من الحرير. ثم اغتصبها دون أن ينبس بكلمة. قبل أن يطردها بضربات على الأرداف. وهو يقول: «أحسنت يا صبية!». لم تخبر والديها. ولم تبد أي اعتراض لدى اللجنة الثورية. التي كان أعضاؤها. يوميا. يهددون بالسجن «المخربون» الذين قد يجروون على انتقاد القائد. «الصديق. الحامي. محرر جميع النساء». انزلت ليبيا. وأصابها الاكتئاب. مسببة حيرة والديها اللذين ظنّا أنها حزينة أو مغرمة. فقررا تزويجها دون استشارتها. في أحد الأيام. وحين عودتها من المدرسة. اكتشفت أن حفلا يقام في منزلها. حيث احتشد الضيوف. وحضر المأذون. ثم قدم لها عقد زواج : «وقّعي هنا!».

في الليلة نفسها. وحين اكتشف الزوج أنها لم تكن عذراء. اغتاظ وقرر الطلاق. كان بإمكانه طردها. لكنه تفهم موقفها وانتظر أسبوعين. أحست ليبيا بالعار ولم تعد تحتمل أية نظرة تجاهها. مرعوبة لفكرة العودة إلى منزل عائلتها. لذا هاتفت... باب العزيزية. ألم يكن القذافي. بتشجيعه للفتيات على قطع أواصر القرابة مع عائلاتهن «المتخلفة». يذكرهن دائما بأنه سيكون متواجدا من أجلهن ؟. قالوا لها ببساطة : «استغلي حالا الطائرة إلى طرابلس». واستقبلنها نساء في المطار. وأقلنّها إلى باب العزيزية. إلى ما كانت ليبيا تصفه بـ «الحريم» الكبير: حيث وجدت مجموعة من النساء يتعائشن هناك في غرف مزدوجة أو فردية تحت رحمة العقيد. ورهن مزاجه المتقلب. وأحلامه الشبقية. وجميع أوامره. وأغلب أولئك

النسوة جُلبن عبر اللجان الثورية الشهيرة، واغتصبن. ولم يكن لهن أي منفذ آخر للهروب من الخزي العائلي إلا المكوث في خدمة القذافي الذي سيوفر لهن على الأقل الأكل. والمسكن. واللباس (الزي العسكري للحرس). لا شيء ممنوع في إقامتهن حيث الاستهلاك الفاحش للكحول والسجائر والحشيش. البرنامج هو نفسه على مدى الأيام والليالي : «تأكل. وتنام. وتمارس الجنس». إلا عندما ينتقل العقيد إلى سرت أو إلى مدينة أخرى : حيث يجبر البيت الصغير على مرافقته. أو عندما يسافر إلى الخارج حيث لم تكن ليبيا. ويا لا حسرتها، من المدعوات. «كان يخشى أن أغتتم الفرصة وأهرب». البعض قمن بذلك. ثم عُثر عليهن في تركيا. فجُلبن إلى البلاد. محلوقات الرأس. واتُهمن بالخيانة ثم عرضن بالتلفزيون على أنهن عاهرات يمتهن الدعارة. قبل أن يُعدمن. تعرف الإقامة يوميا مرور فتيات يأتين. فيقضين ليلة ثم يرحلن. البعض عن طوع وأخريات تحت الإكراه : «كان القذافي يضغط عليها لكي تجلب له أخواتنا. وبنات العم. وحتى بناتنا».

في أحد أيام سنة 1994. حذرت ليبيا إحدى النساء من نوايا القذافي بخصوص بنتيها الجميلتين جدا. من الصدمة، أسرت الساذجة بذلك إلى القذافي فجن جنونه؛ لقد خرقت ليبيا قاعدة التزام الصمت ودفعت حياتها ثمنا لذلك. هربت، استقلت طائرة عسكرية إلى طبرق، ثم من هناك سيارة إلى مصر حيث قبض عليها لعدم امتلاكها التأشيرة. ولكن تمكن بعض المعارضين الليبيين من تهريبها إلى العراق حيث مكثت أسبوعين. ثم سرعان ما التحقت باليونان

خوفاً من حزب البعث. لكن شبكات القذافي توصلت إليها. وقامت بنرحيلها إلى ليبيا. أين أودعت مدة سنة ونصف سجناً تحت الأرض. بإحدى الضيعات. قبل أن تعود إلى باب العزيزية وتمكث هناك حتى بداية ثورة 2011. كانت تقول عن نفسها : «الجارية العجوز جنباً إلى جنب مع المستعبدات اليافعات». ستبقى عالقة إلى الأبد.

ليلي

ليلي الآن في الأربعين من عمرها. ولديها الإحساس أنه تم إنقاذها. تزوجت ابن عمها عن حب وربت أطفالها وعاشت على هاجس أن يكتشف أحدهم يوماً ما السر الذي قضى على شبابها. كانت تبكي حين روت قصتها وهي تصرح بذلك للمرة الأولى في حياتها.

كانت رفيقتها في المدرسة. في فترة المراهقة. ابنة أخ الصديق والعضد الأيمن للعقيد القذافي. ومن ساعده على تولي الحكم في انقلاب الفاتح من سبتمبر 1969. كانت تنشطان معاً في إحدى اللجان الثورية. وعندما بادرت صديقتها بتنظيم لقاء مع العقيد بمجموعة من التلميذات. كانت ليلي منحمسة. نقلت حافلة صغيرة الفتيات إلى باب العزيزية حيث استقبلن ببهو كبير بالطابق الأول الذي كان حينها إقامة العقيد. والذي سيدمر جزئياً أثناء القصف الأمريكي سنة 1986. كان معمر القذافي يبدو جذاباً وودوداً. كان مسترخياً. يأخذ الوقت الكافي للاهتمام بكل فتاة. طارحاً أسئلة على أصل العائلة. والقبيلة. والمنطقة. كانت الفتيات تحت تأثير سحره.

بعد أيام من هذه الرحلة. أقبلت عاملة تبحث عن ليلي في القسم وأخذتها إلى مكتب المديرية التي أخبرتها بانهباء شديد أن سيارة من باب العزيزية تنتظرها أمام المدرسة. لم تفهم ليلي ما يجري. لكن لم يشكك أحد في ضرورة مرافقتها للسائق. في البداية، انتظرت المرافقة لوهلة في الصالون، ثم قادها أحمد رمضان، السكرتير الخاص للقذافي، إلى مكتب القائد. كان يرتدي جبة بيضاء، فأقبل للقاءها. وأسبغ عليها عبارات المجاملة مثنياً على جمالها. ثم بدأ بلامسها وينحس جسدها. ذهلت ليلي وتصلبت. ولما أمسك صدرها بكلتا يديه، جمحت، وصرخت. وانتفضت ثم هربت. كان أحمد رمضان ينتظر من الجانب الآخر من الباب فسألها ببرود : «هل انتهيت ؟» كانت ليلي تبكي حين أضاف : «يجب توديع القائد قبل الرحيل». وفتح لها الباب مجدداً. فإذا بالعقيد جذل. ومنتصب القضيبي. أعادها السائق إلى المدرسة. ولم يطرح الأساتذة أو المديرية أي سؤال. بل ظهرت لديهم بعض العلامات لشكل جديد من الاحترام.

في مساء اليوم نفسه، اتصل بها أحمد رمضان في المنزل : «إنه لشرف عظيم أن يختارك القائد. كان بكاؤك سخيفاً، لقد أراد أن يكون لطيفاً معك». ولم تخبر ليلي والديها. وبعد أسبوع، أتت مجموعات من اللجان الثورية، وحاصروا المنزل العائلي. ونهبوه بالكامل بحثاً عن وثائق خطيرة حسب ادعائهم. وقد أهين والدها. وعُنف وجُرّ على الأرض. كانت العائلة في حالة صدمة. ومن الغد، اتصل أحمد رمضان : «علمت ما أصاب عائلتك، لكن اطمئني»

سنحملك بما أنك نشتغلين لدى القائد». أخبرها أنه أرسل لها السائق قريبا جدا من المنزل. شعرت ليلي أنها وقعت في الفخ. فاخترعت حجة لتبرر خروجها. ثم وجدت نفسها في باب العزيزة. وجها لوجه مع القذافي :

- رأيت ما حصل لعائلتك ؟ قد تنعكر المسائل أكثر. الأمر موكول إليك، نستطيعين تقديم النفع لهم. كما يمكنك أن تلحقني بهم ضرا كبيرا...

- ما الذي يجب أن أفعل ؟

- كوني مطيعة ! أنا أكاد أجزم أنني أشير غرائذك. قدم لها عصير غلال أجبرها على شربه. والتصق بها وقبلها بشراهة ثم اختفى.

عادت السيارة لنقلها بعد بضعة أيام. أدخلها أحمد رمضان لصالون صغير حيث بقيت تنتظر لساعات طويلة. بعد ذلك ساقها إلى مكتبة ليظهر القذافي أخيرا : «اخترت هذا الديكور خصيصا لك لأنني أعشق الطالبات والكتب». ومباشرة. طرحها فوق فرش كان على الأرض. واغتصبها. كانت الصدمة شديدة وعنيفة لدرجة أنها أصيبت بالإغماء. ولما استعادت وعيها. وجدته يشتغل على مكتبه. وانفجر ضاحكا : «سنجدين منعة في ذلك لاحقا!».

واصل دعوتها واغتصابها لمدة ثلاث سنوات : «أنا سيد ليبيا ! كل الليبيين ملكي. وكذلك أنت ! أنت ملك يميني. ويجب أن تعلمي بأن هناك سورة في القرآن تقر بأن للسيد الحقوق جميعها». تذكرت ليلي. ثلاثة أعوام من المعاناة القسوى. كانت تنطوي على نفسها. تهجر المدرسة. تعاقب وتعنف في المنزل بسبب غيابها الذي لم يعد بإمكانها تبريره.

اتَّهميها والداها بالمجون، لكن الفذافي كان يكرّر لها ، «كلمة واحدة منّي ولن تري والدك مجددا!» ذات يوم، أخبرته بأن العادة الشهرية قد انقطعت عنها منذ مدّة. لم يمنعه ذلك من موافعتها مرّة أخرى. ولكن بعد مدّة، قدّم لها أحمد رمضان مبلغا من المال واقترح عليها التحول إلى مالطا. كان المبلغ زهيدا. ولم يكن هناك شيء مرتّب مسبقا. كان عليها أن تعتمد على نفسها، وأن تجد فندقا ومستشفى. عندما أجهضت، قدّر الطبيب أن «حالتها سيئة جدا». واقترح عليها القيام بعملية إصلاح غشاء البكارة بعد أيام. تمّ إنقاذها. وخلافا للعادة، لم يعاود باب العزيزية الاتصال بها أبدا.

هدى

كانت هدى أيضا. ولسنين طوال، واحدة من بين عشيقات العقيد بالإكراد. لم تكن تقيم في باب العزيزية، لكنها كانت تُستدعى في أي وقت. كانت حيائها جحيما. كانت تبلغ سبع عشرة سنة في التسعينات، وتقوم بمراجعة الدروس استعدادا لامتحانات الشهادة الثانوية مع مجموعة زميلات اعتدن المراجعة معا. عند بعضهن البعض. في يوم ما، لمحتها سيدة كانت تزور أمّ الزميلة التي كن لديها، فأثنت عليها كثيرا، وقالت لها : «كم أنت جميلة!». انزعجت هدى كثيرا. وراوغت مخاطبتها المحذقة بها. لكنها التفتها لاحقا فجددت لها عبارات المجاملة : «أعتقد أنّك رائعة. أنهى امتحاناتك بسرعة. عندي اقتراح لك». تضايقت هدى كثيرا وظننت أنّ محدّثتها تبحث لها عن زوج.

اعتقل شقيقها بعد ذلك بفترة وجيزة. كان يتردد بانتظام على المسجد، هو إذن محل شبهة بالتأكيد. واتصلت إثر ذلك السيدة الغريبة الأطوار قائلة : «أعرف أناسا بإمكانهم إطلاق سراح شقيقك. فلنلتقي. سأخذك إليهم». أفلتها في السيارة وأدخلتها إلى ساحة باب العزيزية. لقد اعتادت السيدة المجيء على ما يبدو، في حين كانت هدى مندهشة. نساءل رجل في المكتب الأول : «أهذه هي الجديدة ؟» تلقت هدى سؤاله كإنذار بالخطر. لكنها لم تكن تتصور ما سيحدث لها. قدم إثر ذلك أحمد رمضان : «ها هي إذن الفتاة التي وقع شقيقها في ورطة ! هيا اتبعيني!». فادهما إلى مكتب كبير حيث ظهر فجأة معمر القذافي وهو يقول : «شقيقك خائن ! أتمنى أنك ثورية حقيقية. وأنتك لن تصبحي مثله!». ثم اقترب منها وتمر يداه على كامل جسدها، ثم عانقها وألصق جسده بها : «سأفكر في حل لمشكلة أخيك لأنني أعتمد أنك رائعة». قبلها من رقبتها، وحاول الإمساك بثدييها. ثم أخرج إبره. انتهزت الفتاة. وبجانبيها كانت السيدة تجلس القرفصاء وتربت على وجهها : «أفريقي ! إنك سخيضة ! هذا سيدك ! إنها فرصتك!». اقترب القذافي ليلمسها من جديد، فقاومت وأطلقت عقيرتها بالصياح. عندئذ أمسكها من ملابسها وألقى بها بعنف في زاوية الغرفة. ثم أحكم قبضتيه بشراسة على السيدة الأخرى. وواقعها بسرعة، فاصفا التلميذة بنظرة مليئة بالوعيد : «في المرة القادمة سيكون الدور عليك !».

في السيارة التي أفلتها للعودة. كانت هدى مصدومة جدا. ولم تقدر على التفوه ولو بكلمة. فسرت لها مرافقتها: «للسيد جميع الحقوق علينا، سيضاجعك. ويطلق سراح شقيقك. وتستطيعين حينها الحصول على منحة جامعية». لم نخبر هدى والديها بما حدث لها. لقد كان ذلك مستحيلا. لكن عندما صنعتها والديها وقد تملكها الغضب من تأخيرها، ردّت باقتضاب ودون أي تفاصيل: «لقد قبضت علي الشرطة واستجوبتني بشأن أخي».

مرت أيام ثلاثة. ثم هاتفها السيدة. وقالت لها: «لا أستطيع الذهاب معك إلى باب العزيزية. ولكن سيارة تشريفات سنأتي لتقلّك. فكّري في شقيقك». وجدت هدى نفسها إذن أمام أحمد رمضان يستجوبها بخصوص أخيها ويدون أقوالها. طمأنها ذلك. ربما لم تكن محاولتها دون جدوى. ولكن كان يجب رؤية القائد مرة أخرى. دخلت مكتبه: «هل كنت تتصورين أننا سنطلق سراح خائن بهذه السهولة؟ أنت تحلمين! ذلك ليس بالشيء البسيط. إضافة لكونك عنيفة وستصرخين مجددا إذا لمستك».

- كلاً. لا أود إغضابك. لكن متى يمكن لأخي مغادرة السجن؟

- لن تصرخي؟ هل تعديني بذلك؟

وبحركات سريعة، جرّدها من ثيابها. وطرحها على الأرض بجانب المكتبة. واغتصبها. ثم ابتعد دون أن ينطق بكلمة. لم يأت أحد لرؤيتها أو يهتم لمصيرها. ولم تكن

تعرف كيف الخروج، فتملكها الرعب ومكثت طوال الليل في المكتب. وجدها أحمد رمضان في الغد وقادها إلى غرفة صغيرة في الطابق السفلي، وما إن داعب النوم أجفانها حتى التحق بها القذافي. فاغتصبها مجددا وعنفها، وعصيا! تزفت بغزارة، وبقيت محتجزة ليومين دون أكل أو شرب. في اليوم الثالث، أرسلها أحمد رمضان إلى منزلها وأخبرها أنه سيعاود الاتصال بها.

فزع والداها من الهيئة التي كانت عليها ابنتهم حين عودتها إلى المنزل. لقد كاد القلق يدمرهما وهما يكتشفان ابنتهما في حالة يرثى لها. لم تكن هدى ترغب في الكلام، ولكن أمام ضغط الأسئلة، همست أنها كانت في قسم الشرطة. تملك الذعر العائلة التي تصورت أنه من المؤكد أن ذلك علاقة بالابن الموقوف، فأحاطت بها تواسيها. وأصرت على نقلها إلى المستشفى. فحوصها الطبيب. ثم سألها :

- لقد تم اغتصابك.
- نعم. ولكن أتوسل إليك ألا تخبر والدي.
- يجب تقديم شكوى.
- كلاً، مستحيل.
- هذه علاقة جنسية خارج إطار الزواج، القانون يجبرني على إبلاغ الشرطة.
- هل تريد أن تلقى حتفك؟...

لم يتركها القذافي في سلام. تحملت لسنين طوالا أوامره. جنونه. عنفه، وتخيالاته الشبقية. لم تقدر على التخطيط لأي مشاريع. وعاشت منزوية خائفة من انكشاف أمرها. اشتبه والداها أخيرا في أمرها. إذ لم تعد سيارات التشريفات تأتي لنقلها سرّا كما السابق. كان القذافي يشترط حضورها أثناء جميع خطابه. واكتشفت هدى أثناءها ثلة من النساء اللاتي كنّ مثلها. كنّ يتبادلن النظرات دون أن يتحدثن. كيف سي طرحن الموضوع ؟ من منهنّ محل ثقة ؟ طلب منها القذافي ذات يوم، في إطار الإعداد لحدث شعبي، أن تهرول تجاهه وتقبله أمام عدسات الكاميرات. تظاهرت بالمرض.... فاتصل بها ليلا، وهددها مشروطا عليها ملابس معينة. وجاهزية مطلقة. أصابها الاكتئاب وفقدت لذة العيش. بعد عدة سنوات تعرفت على رجل أحبته فجنّ جنون القذافي. لكنها تزوجت بحبيبها. ورفضت منذ ذلك الوقت الذهاب إلى باب العزيزية. رغم الأوامر والمخاوف. سبيتسم لها الحظ. فإن الكثير من العرسان - ممن لم يخترهن سيد ليبيا بنفسه ليحلوا محله لدى محظياته - لم يعمرن حتى موعد زواجهن من حبيباتهن.

زوجة الجنرال وابنته

سيكون الحديث. هذه المرة. عن ابنة جنرال كشفت أمرها إلى صحيفة أسبوعية. هي «ليبيا الجديدة». والتي أكد لي رئيس تحريرها. محمود المصراتي، صحة شهادتها. كان القذافي يستفسر دائما عن الوضعية العائلية لأتباعه وعن أناقة زوجاتهم. فعلم أن لإحدى جنرالات جيشه زوجة

بالغة الجمال. هل هو من أصدر الأوامر بنفسه ؟ أم أن الفكرة جاءت من مبروكة ؟ ولكن الذي حدث أن ثلاثة من حارساته ذهبن ذات عشية إلى منزل الجنرال. وسلّموا زوجته دعوة إلى حفل نسائي تنظمه في مساء اليوم نفسه صفية فركاش، زوجة العقيد. بدا الجنرال حذرا. فلم يصل إلى مسامعه خبر هذه المبادرة. ولم يكن يحبذ فكرة ذهاب زوجته إلى باب العزيزية. اتصلت أحد الحارسات برقم ما. ثم سلمته الهاتف. كانت مبروكة على الطرف الآخر من الخط. والتي أخذت تقول له : «هذا شرف عظيم بكرمك به العقيد! وهو الدليل على أنه يدرك درجة ولائك له، ويعتبرك ثوريا حقيقيا. ستكون حفلة رائعة، حصريا للمتزوجات». اطمأن الجنرال وسمح لزوجته بالذهاب، لكن إثر عودتها. بدت غريبة وغامضة. تقول ابنتها : «كان يبدو على أمي شيء من الانكسار». ثم تتألف الدعوات، وخاصة في فترات غياب الجنرال. وبعد عدة أشهر. عادت الزوجة بمفاتيح شقة جميلة. وأعلنت أنها «هدية» من زوجة العقيد. مؤكدة أنها أصبحتا صديقتين حميمتين. غيرت العائلة محل سكناها. وتحسنت ظروف العيش بدرجة واضحة. الحياة حلوة بأموال باب العزيزية. لكن ذات مساء، أقيمت مبروكة واثنين من النسوة حاملات هذه الترة دعوة من عائشة، البنت الكبرى للقذافي. إلى بنت الجنرال. شحبت الأم وحملت يديها إلى وجهها. بدت مرعوبة، في حين كانت ابنتها في قمة السرور : «الليلة ؟ بكل سرور ! يبقى المشكل الوحيد أنني لا أملك فستان سهرة!». ابتسمت مبروكة. ثم استدارت وأشارت إلى حقيبة. «سنجدين في هذه الحقيبة كل ما يلزمك لتكوني في أبهى حلة». ارتدت الفتاة الفستان

بأناقة. وتزينت، ثم رافقت مبروكة دون أن تفهم لماذا ودّعنها أمها دامعة العينين. بدا الجنرال نفسه مرتبكا. سيتضاعف ارتبাকে عندما ستعترف له زوجته باكية أن دعوات صغية كانت غطاء للقدافي. وأنّ الأموال. والهدايا. والشفقة لم تكن إلا مكافأة لعلاقة جنسية إجبارية. ثار الجنرال، صرخ، وقرر الذهاب فورا إلى باب العزيزية، لكنه انهار أرضا. ضحية جلطة دماغية. ونقل إلى المستشفى.

في تلك الأثناء، استغربت ابنته ظهور القدافي بالصالون حيث مكثت طويلا. فسألت: «أين عائشة؟» فأجابها ببرود: «أنا عائشة!». ودون أن يحاول إغراءها. ولا حتى التظاهر بذلك. اغتصبها وعنفها وأهانها مرارا وبقدر المستطاع. ولم تغادر باب العزيزية إلا بعد أسبوع لرؤية والدها يحتضر في المستشفى. سيسهل موته الأمور. عندما أصبحت مبروكة تتصل بانتظام لاستدعاء البنت. كانت تطلب من الأم إعدادها حسب ذوق العقيد وطللاء أصابعها بالحناء. وهي تقول لها :

«تعرفين ما يجب فعله!»

*

الشهادات عديدة. وليس بإمكان المجتمع الغربي تصور تكلفة هذه الاعترافات. ليس بمعنى الصدمة الشديدة، التي كانت نفسها في كل مكان، ولكن بمعنى ما يمكن أن تواجهه أولئك النسوة وعائلاتهن من مخاطر. إنّ الفوضى التي تعم ليبيا - المأوى بالأسلحة - ووطأة الشعور الديني يقصيان حاليا كل نقاش هادئ حول الموضوع. ذلك ما

يفسر أنه رغم قواعد الصحافة الأساسية التي تشترط التعريف بالمصادر، فقد قبلت احترام طلبات معظم النساء المذكورات في الكتاب والحفاظ على سرية هويتهم.

الأمازونيات

ساهمت حارسات العقيد القذافي، اللاتي كانت الصحافة العالمية تسميهن بـ«الأمازونيات»، بصورة كبيرة في صنع أسطوره. وشهرته الإعلامية. حيث كان منظرهن من حوله يعلق بالأذهان، أكثر حتى من أزيائه الغربية، والتي ما فتئت تزداد غرابة في المدة الأخيرة. أو نظارات «الروك ستار» الشمسية السوداء التي لا تفارق عينيه، وشعره الأسود المنفوش، ومحيا المجعد كوجه مدمن كوكابين رغم حقن البوتكس، ورغم طبقات المكياج التي تحاول إخفاء ما أفنسه الدهر. وكن يتبعنه في كل مكان، في أزياء عسكرية متباينة الألوان، والتفصيلات. بعضهن تحمل السلاح، بينما لا نرى أي سلاح لدى البعض الآخر. وقد انسدل الشعر على الكتفين أو لفّ بعناية داخل فتحة، أو طاقية، أو كاسكت، أو عمامة : غالبا ما كن في مكياج كامل، ويتزين بأقراط في الأذنين، وفلائد عليها صورة العقيد، وينتعلن

الأحذية العسكرية. أو المدنية ذات الكعاب العالية. وفي بعض الأحيان نراهن في أحذية ناعمة.

كان القذافي يحتاجهن لإثارة الانتباه، وليعطي لنفسه هالة من الأهمية. حيث كن نقطة جذب لعدسات المصورين. ومثار افتتان لرؤساء الدول والوزراء. الذين يكونون في استقباله على سلم الطائرة. أو عندما يستقبلهم في خيمته بباب العزيزية. ولم يخف وزير الخارجية الفرنسي الأسبق رولان دومو بهجته بأن تحرسه. هكذا. «فتيات في منتهى الجمال» وهن يمشقن السلاح». أما ابتسامات الرئيس الإيطالي سلفيو برلسكوني الشبقة. فقد كانت تعكس مدى ارتياحه لوجودهن حوله. ولكن رسالة القذافي. من وراء ذلك. كانت شديدة الالتباس. لقد كان يسعى دون شك لتأكيد «تميزه» على الصعيد العالمي. فقد كان العقيد الموهوس بالعظمة واستفزاز الآخرين. يولي أهمية قصوى لصورته. وما تتطلبه زيارته الخاطفة وخطاباته من إخراج مسرحي. فهو يريد أن يكون «فريدا». لا يشبهه أحد. ولا ينافسه أحد. ولا أن يُقارن بأحد. حتى أنه كان يمنع في ليبيا أن يبرز أي اسم آخر غير اسمه : (فليس ثمة من كاتب أو موسيقار. أو تاجر. أو اقتصادي ولا سياسي) ليبي استطاع أن يفرض نفسه في عهده. وكان يحرم على المعلمين الرياضيين في القنوات الليبية ذكر أسماء اللاعبين. والاكتفاء أثناء نقل المباريات بالإشارة إلى أرقام قمصانهم. وبالتالي فإن فكرة لفت أنظار العالم بأسره. إليه باعتباره رئيس الدولة الوحيد الذي يتكون حرسه الشخصي بالكامل من النساء : كانت ترضي ذاك الطموح.

من ناحية أخرى، كان توظيفه للنساء لحراسته، تجعله يبدو متوافقاً مع ما يدعو له من أفكار تقدمية بشأن حرية المرأة. وأنه لم يتقاعس في تطبيق أفكاره التي دار حولها عدد لا يحصى من المؤتمرات ومن الخطابات ! والدروس الموجهة إلى الغرب وإلى العالم العربي بكامله ! فقد كان جد حريص على تأكيد هذه الفكرة : العقيد القذافي «المناصر الحقيقي للنساء». وقد حرص خلال كافة تنقلاته الرسمية؛ سواء داخل ليبيا أو خارجها، على برمجة لقاء بذاته مع مختلف المنظمات النسائية ليشدد على هذه الرسالة.

في الواقع، كان العقيد القذافي قد طرح بعض من ملامح وجهة نظره التقدمية بشأن المرأة، في الجزء الثالث من الكتاب الأخضر الشهير، والتي نتحدث عن (المساواة بين الجنسين، ومكافحة التمييز غير المبرر، وضمان الحق في العمل للجميع : شرط أن تحترم «أنوثة» المرأة...) ولكن خطابه ازداد راديكالية بسرعة كبيرة. وسيغير رأيه بالنسبة للنقطة الأخيرة. حتى إنه أصدر قراراً بتأسيس أكاديمية عسكرية للنساء عام 1979. وبعد ذلك بسنتين، وبمناسبة الاحتفال بتخرج أول دفعة من صفوفها، ذهب للقول: «إن هذه الأكاديمية، الفريدة في العالم، تؤسس لمفخرة عظيمة. وإن جرأة الشابات الليبيات اللاتي كن ينتسبن إلى الأكاديمية بأعداد غفيرة، تمثل الدليل الساطع على انقلاب العقليات». وكان لابد من المواصلة !.

في هذا السياق، سيهض القذافي يوم الفاتح من سبتمبر عام 1981، لإطلاق دعوة مذهلة مفادها : إن «الرجال والنساء في الأمة العربية خاضعون لمحاولة استعباد.

ولكن داخل الأمة العربية خضعت النساء. في الحقيقة. لسلطة قوى الاضطهاد والإقطاع والاستغلال. ونحن ندعو إلى ثورة لتحرير نساء الأمة العربية وهذه قبلة ستزلزل المنطقة العربية كلها وتدفع سجينات القصور والصفقات إلى الثورة على سجانينهم ومستغليهم ومضطهديهم. ستجد هذه الدعوة. بلا شك. أصداء عميقة وستكون لها انعكاسات على الأمة العربية كلها وعلى العالم. اليوم ليس يوما عاديا ولكنه بداية النهاية لعصر الحریم والرقيق وبداية تحرير النساء في الأمة العربية». وكانت النساء المسلحات تبدو. وفق هذا المعنى. كما لو كانت أجمل زهرات الثورة. وبالتالي أن يعهد إليهن أمر حراسته وضمان أمنه : يؤمس بالأحرى لأكثر من مجرد معنى رمزي في هذا الاتجاه. بل ذلك يعكس عمق إيمانه... بقضية النساء. ووفق هذا التصور على كل حال. كان تفسير الغرب لتمسك القذافي بالحرس النسائي.

يا لها من سخرية !

وأخيرا بزر كش النفاق الأمازוניات حول العقيد لحراسته. الصورة التي يروج لها عن نفسه «كمعبود النساء». وبالتالي لإطلاق العنان لمختلف التصورات. والخيالات بشأن علاقته بهن. في الواقع كان سيناريو الحرملك الشرقي أقرب لتصوير علاقة العقيد بحارساته. أي بعكس خطاباته التقدمية بشأن حرية المرأة وتحررها. خاصة مع غياب سيّدة ليبيا الأولى صفية فركاش : التي كان قد تزوجها سنة 1971 (بعد زواج وطلاق خاطف) وهي أم سبعة من أولاده. من المشهد العام. ففي سياق هذا الحرملك.

تجد كل هؤلاء الشابات رهن خدمته، ورهن إشارته. وهن مستعدات لأن يفدنه بحياتهن بكل شجاعة... إني أن خطاب نصير المرأة ومحررها، قد شابه هنا... لنقل الكثير من التشوُّبش.

ولكن من هؤلاء النساء اللاتي كانت تحيط بالقذافي مرتديات الزي العسكري. حارساته المقربات. والواجهة البراقة التي يطل منها على العالم ؟

إن ما حكته لنا ثريا، يمثل تفنيدياً جارحاً لكل الأوصاف المهدية لهذا الحرس الذي يفترض أنه منمرس ومنقن لجميع تفنيات القتال. ألم تجبر على ارتداء الزي العسكري غداة اختطافها مباشرة ؟ ألم تدمج أوتوماتيكيا في هذا الجهاز الذي اشتهر بكونه من النخبة، وتؤمر عند تنقلات القائد وسفرائه، بأن تقلد سائر الحارسات، وتمثل، مثلهن، دور الحارسة المنهمكة في مراقبة كل ما يدور حول القائد. لأن حياته رهن يديها في تلك اللحظة ؟. كانت ثريا تقول وهي ترفع عينيها إلى السماء : «يا للسخرية!». يا له من نعد على الوظيفة !

في الواقع إن المراقب لتصرفات الأمازونات اللاتي كن بصحبة العقيد عند زيارته لباريس في ديسمبر 2007، سينحو بالأحرى إلى تأكيد تهمة «التحايل على المهنة» من طرفهن : حيث كن يقفن أمام عدسات المصورين على سطح قارب سياحي. وهن بضحك مثل تلميذات المدارس الإعدادية، قبل أن يذهبن للتسوق في متاجر فوبورغسانت هونوري والشانزليزيه، كلاً، إن هؤلاء الفتيات

لم يكن خريجات الأكاديمية العسكرية. بل، لقد كن بالآخرى عشيقات القذافي، ومتعه الجنسية، محظياته أو جواربه. يقول سيد قذاف الدم ابن عم القذافي، والذي شغل في عهده منصبا في الجيش الليبي، من سجنه بمصرانة : «لقد كان منظرهن يقرقني».

البحث في هذا الشأن في طرابلس بدأ صعبا، فلم يكن أحد يرغب في الخوض في موضوع هؤلاء الحارسات الشهيرات. لقد اختفين مع العقيد. تلاشين ! ولم يعد ذكرهن يثير إلا الانزعاج والازدراء. كان أول مكان قصدناه لتقصي أمرهن هو وزارة الدفاع الليبي، والتي لن يكون الولوج لداخلها ممكنا إلا بعد الدوس على سجّاد تتوسطه صورة القذافي. السيد أسامة الجويلي: أحد قادة ثوار الزنتان، والذي عين وزيرا للدفاع بعد مقتل العقيد، أوضح لي بهذا الشأن: «لقد أثر وجودهن حوله تأثيرا بالغ السلبية على صورة الجيش الليبي. يا للعار! ويا للصفعة الموجهة إلى العسكريين الحقيقيين، أولئك الذين كانوا يملكون فكرة نبيلة عن مهنتهم. وعن شرف الدفاع عن بلادهم!».

وواصل : «كان القذافي يضعهن في المقدمة لجلب الأضواء ولتلميع صورته، ولكنهن لم يكن عسكريات. كان الأمر مجرد كذبة كبيرة. وهو في أثناء ذلك كان يدمّر جيشه. لقد كان الأمر بالنسبة لنا خارج القدرة على الاحتمال..... وانتهيت من طرفي إلى كره هذه المؤسسة. وقدمت استقالتني في أول فرصة سنحت لي. إلى أين كنا نتوجه ؟ كيف كان ممكنا أن نحمل هؤلاء النسوة اللاتي كان يلتقي بهن في عالم الرجال، على محمل الجد ؟ من كان يستطيع أن يصدق ولو لخل

لحظة أنه يعهد إليهن بحمايته بالفعل ؟! في الواقع لم يكن لهن أكثر من دور استعراضي. أو للترفيه عن المحيطين به. أو لكي يملأ بهن أوقات فراغه. لقد كان ذلك مقرفاً.

ردّة الفعل نفسها نجدها عند رمضان علي زرموح. رئيس المجلس العسكري بمصراته، ثالث أهم مدينة في ليبيا. وهي بالتأكيد إحدى أكثر المدن تعرضاً لعصف الحرب. والذي كان قد استقال بدوره مبكراً جداً من جيش القذافي : رغم رتبة العقيد التي بلغها. وهو أيضاً كان يندّد «بالمسخرة»، و«المسرح المثير للشفقة». ليس فقط فيما يتعلق بالحارسات الشخصيات. ولكن كذلك بكل المجنّدات. وهو يشدد في هذا الصدد : «أؤكد لك أنهن فتيات مسكينات فقد كنّ يصلن فجأة إلى صفوفنا. مشحونات بخطابات هذا السافل : الذي كان يجعل منهن مجنّدات لذر الرماد في العيون أمام العالم. إنما في الحقيقة كل ما يريد منهن هو إشباع رغبته الشخصية ! لذلك هن لم يحصلن على تعليم عسكري حقيقي، ولا على تدريب كاف يؤهلن لخوض غمار العمل العسكري. وفي كثير من الأحيان تكون الفتاة قد شفت عصا الطاعة على أهلها. لأنهم رفضوا السماح لها بالالتحاق بالكلية العسكرية. فإنه يصعب في الواقع على أهل السماح لبناتهم بولوج عالم الرجال هذا. على هذا النحو ؟ وفي ليبيا ! يالها من نقمة !. لذلك نحن نعتبرهن بالأحرى ضحايا. بينما كان هو يعتز بنشرهن حوله : عشيقات، ودمى غير قادرات على حمايته. وكان يجب أن يقف وراءهن بالضرورة حراس حقيقيون من رجالاته».

كانت هذه الأحكام الراديكالية. يشترك فيها كل العسكريين والثوار الذين أمكن لي أن أحاورهم. فهل وراء ذلك نزعة ذكورية ؟ ثمة شيء من ذلك بلا شك. فاندماج نساء لبيبات في الجيش لم يكن بلاقي على الإطلاق القبول الحسن في صفوف العسكريين. أو لدى المجتمع التقليدي الليبي. يجب أن نقول إن العقيد القذافي كان قد حرق المراحل في بلد كانت فيه النساء، زوجات وأمّهات، سجنات الببوت. فهو انطلقا من سنة 1975. كان قد تآدى بمفهوم «الشعب المسلح» ودافع عن فكرة أنّ السلاح لا ينبغي أن يظل حكرا علي جيش نظامي مآله الزوال. بل ينبغي أن يوضع بأيدي كل المواطنين والمواطنات الذين ينبغي أن يدربوا على السلاح في الحال.

في سنة 1978. أصدر قانونا يتعلق بالتدريب العسكري الإلزامي، والذي يجب أن يخضع له كل الشعب، بما في ذلك طلاب المدارس والمعاهد، أولاد وبنات. كانت تلك في الواقع ثورة صغرى؛ حيث كان من الضروري أن ترتدي الفتيات، أمام ذهول أوليائهن، الزي العسكري ويتلقين التدريب العسكري على يد مدربين من الرجال. بهذا الخصوص سيصرّح العقيد في أحد خطاباتّه : «إن زينا فتاليا ترتديه امرأة؛ أكثر قيمة من كساء من حرير ترتديه بوجوازية جاهلة، حمقاء، سطحية وغير واعية بالتحديات التي تواجهها هي نفسها، والتي يواجهها بالتالي أبناؤها». وفي سنة 1979 أسس الأكاديمية العسكرية للنساء. وأرسل إلى مدارس البنات حشدا من المروجين للالتحاق بالسلك العسكري. ممن يملكون قدرة خاصة على الإقناع. وذلك لتحريض البنات

على الالتحاق بهذه الأكاديمية. كان يجب التحرك بسرعة؛
فالنساء المحررات والمسلحات سيؤسسن لواجهة دعائية
استثنائية له. أما البرامج المقترحة فكانت : ثلاثة أشهر من
التدريب لكي تتخرج برتبة جندي. للملتحقات بالأكاديمية
بعد الشهادة الإعدادية : وستنان من التدريب لكي تتخرج
ضباط صف للملتحقات بعد الشهادة الثانوية.

وأخيرا. جاءت في عام 1981. فكرة حركة «الراهبات
الثوريات» : والتي كانت مفتوحة لجميع النساء. مدنيات
وعسكريات : لتؤسسن لـ «نخبة النخبة». ولكي يتم قبول
المرأة فيها. ينبغي أن تكون مستعدة للزهد في الزواج وتكريس
حياتها. كل حياتها. للدفاع عن أهداف الثورة دون سواها.
وبالأحرى أن تكرس نفسها للقائد. تلك كانت «الفننازيا»
الكبرى للعقيد القذافي. ولهذا نجده قد نهض بنفسه. في
خطاب ألقاه يوم 13 فبراير عام 1981؛ أمام رائدات
الحركات الثورية النسائية، للتحريض على هذا الخيار.
حيث قال : بعد التطرق لنموذج الراهبات النصرانيات :
«اللاتي يرتدين اللباس الأبيض. رمز النقاء، واللاتي يكرسن
حياتهن للمسيح، مثلون الأعلى»، وفي نبذة مستنكرة : «لماذا
تترهبين النصرانيات وأنتن تفضلن الجلوس متفرجات؟ هل
الراهبات النصرانيات أعظم من الأمة العربية؟». وأضاف:
«وعبر نكران الذات تصبح الراهبة الثورية مقدسة، نقية.
وترتقي فوق مرتبة الأفراد العاديين. لتكون أقرب إلى
الملائكة».

لم أتمكن من مقابلة أي من الراهبات الثوريات : فهن،
ومتذ عهد القذافي. كنّ قد انصهرن في المجتمع. ولم ينجح

أحد في تقدير عددهنّ. وغني عن الذكر بأنه ليس ثمة اليوم إي امرأة تقول عن نفسها إنها راهبة ثورية. ولكنني بالمقابل تمكنت من مقابلة ضابطتين برتبة عقيد : كانتا قد استجابتا في صفرهن لنداء القائد، والنحفن في حماس كبير بالجيش الوطني. إحداهن. التحقت بالثوار ضد القذافي. وهي اليوم قد استعادت احترامها لبدلتها العسكرية. ودورها كضابط في الجيش الليبي الحر. وذلك بعد أن كانت قد فقدت كل إيمان بدورها في هذا الجيش في عهد القذافي. والأخرى موجودة في السجن حاليا. في انتظار محاكمتها بتهمة جرائم القتل أثناء الحرب الأهلية. والتي تتنازعها الآونة مشاعر الحنين والغضب.

لقد تطلب إقناع العقيد فاطمة بالحديث إلينا أياما عدة. لم يكن لديها. مبدئيًا ما تؤاخذ نفسها عليه. ولكن؛ لقد كانت عسكرية. وكغيرها من المجندات. ضحايا التاريخ. صدقت لوهلة برسالة القائد. وصار قدرها أن تواجه عدم تقبل الليبيين. رغم كل الحملات التعبوية من طرف نظام العقيد. للنساء المجندات. وهم. منذ ثورة 2011 صاروا يعبرون بوضوح عن نفورهم منهنّ. لذلك لم يعد الأمر سهلا بالنسبة إلى سينات الحظ الناجيات من عهد القذافي. واللاتي صرن يتجنبن اليوم أن ينصdern الشهيد. ومع ذلك فإن العقيد فاطمة كانت ترفض فكرة أن تستبعد النساء نهائيا من الجيش. وأن تستغل تجاوزات القذافي ومغالطاته لإقصائهن. ففي ذلك ظلم وإهانة في آن. على إن العقيد فاطمة. قد قبلت أخيرا أن تفتح قلبها لنا. وجاءت بقدها المياس. في إحدى الأمسيات الطرابلسية لفرفتي بالفندق.

متلفة في معطف أحمر. يعلوه وشاحا أسود اللون يغطي رأسها في أنافة. كانت متوترة بعض الشيء، لكن المكان بدأ لها هادئا ومحابدا، مما ساعد على أن تأخذ راحتها في الحديث، وباشرت بالقول : «بعد زمن الادعاءات. حان زمن الحقائق».

«كان المجتدون الذين جاؤوا إلى معبدي في نهاية السبعينات قد سيطروا على عقلي : الفكرة التي يقدمونها عن التطوع بالجيش كانت من البريق إلى حد أنني لم أعد أرى مستقبلي إلا في الجيش. فلا شيء أكثر إثارة للحماس من فكرة الدفاع عن الوطن: رجالا ونساء: متحدين وعلى قدم المساواة. فيا لها من فكرة مثيرة... وثورية! خاصة وأنهم كانوا يستشهدون بنموذج الثورة الجزائرية التي شهدت بطولات العديد من الفتيات أمثال جميلة بوحيرد، ممن خاطرن بأنفسهن كل المخاطرة كضابطات ارتباط. ومقاتلات. من أجل تحرير الوطن. لقد كن بطلات رائعات. نساء رفعت الرأس. وكنت أحلم بأن أقوم بدور مماثل». وكان التدريب العسكري في المدارس قد اكتسب منذ فترة قريبة أهمية بالغة. من تمارين رياضية، والتدريب على الأسلحة. وندوات. واختبارات. وكانت فاطمة تتفانى في ذلك كل التفاني، وهي مقتنعة بأنها تشارك وفق هذا الانخراط في تطبيق فكرة «الشعب المسلح»، الذي ينادي به القذافي. بينما كان أهلها معترضين على فكرة فرض الزي العسكري «الرجالي» على طالبات الثانوية. الأمر الذي لم يكن مقبولا في المجتمع الليبي. تقول فاطمة: «لم يكن المجتمع الليبي جاهزا. ولكن نحن الشباب وقعنا في الفخ. ثم عندما

صارت الخدمة العسكرية من جديد إلزامية. وصار على كل مواطن ليبي أن يخضع لعدة أسابيع في السنة للتدريب العسكري. كان علينا أن ننخرط جميعاً في المشروع».

هكذا صار لكل ليبي بطاقة عسكرية. الامر الذي انتج نوعاً من السوق الموازي، تدور فيه تجارة هذه البطاقات، والتي كانت تسمح، في الواقع، للثريات بأن يفلتن من التدريبات. ولكن فاطمة كانت تجهل هذا الامر في حينها. التحقت فاطمة إذن سنة 1980 بالأكاديمية العسكرية بطرابلس، ضمن طالبات الدفعة الثانية. هذه التي ضمت في حينها فتيات عربيات أيضاً : من مصر، ومن لبنان، ومن الجزائر ومن السودان. وكان الأساتذة المسؤولون على التعليم ما يزالون أساساً من الرجال. وكان المنهج الدراسي على درجة من الجدية : من ذلك التدريب على استعمال التواصل بتوظيف إشارات مورس، وعلم الخرائط، كذلك العسكرية، والتكتيك العسكري، واستعمال السلاح. بالإضافة إلى التطبيق الميداني والقيام بالمناورات الحربية. بما في ذلك المناورات الليلية، أو أثناء العواصف. «ولكن كان كل ذلك يسعدنا!» تشرح العقيد فاطمة، وتواصل: «لقد تحولنا إلى نقطة جذب للعالم بأسره. وكانت فرق التلفزيون تأتي إلينا من كل حدب وصوب. وكنا في الواقع نكاد نحطّر من الفرح. لقد أصبحنا نحن المستقبل ورائدات الحداثة!». وبطبيعة الحال، كان كل خطاب من خطابات القذافي يثير حمّة النساء أكثر. لقد كان البطل الوطني في أعينهن، ولم يكن يشكّكن في أنه بالفعل يسعى إلى تغيير حياة الليبيات، وأن بعضهن قد تصل يوماً بفضله إلى مرتبة الجنرالات.

ثم كان يوم الاحتفال بالتخرج. وضرورة الاستعراض العسكري. بتلك الخطوات المنسقة التي تدربت عليها الفتيات ألف مرة.... «لكنني كنت جد منهكة، حتى أنني لم أستطع متابعة خطاب القذافي حتى النهاية!». ولكن لم يمرّ شهر على تخرج فاطمة حتى تراجعت أوهامها. «لقد اكتشفتُ أن الأمر برمته كان مجرد خدعة. ولم تكن تلك الوعود إلا أكاذيب. فقد كان القذافي يكره جيشه بالذات. ولم يكن ينتظر شيئاً من النساء بطبيعة الحال. ليس أكثر من منظر خلفي. يساهم في صنع «أسطورة» القذافي.... ويضمن له لقيفاً من العشيقات من حوله».

عيّنت الضابط فاطمة مسؤولة عن التدريب العسكري بالمدرسة المجاورة لباب العزيزية. ولكن حتى هذه المهمة لم تتمكن من القيام بها. وذلك لأن مجموعة من «طالبات المدرسة من زمرة القذافي»: تكفلن بذلك بكل غرور. «كنت أرندي البدلة العسكرية في البداية. ورتبة ضابط صف أعلى الكتفين... لكنني اكتشفت على الفور أنني لا أملك أي نفوذ». نُقلت فاطمة بعد ذلك إلى مكاتب قيادة أركان الجيش. وكان يأتيها السائق كل صباح ليأخذها للعمل. ولكن لم يكن لها أي دور. وظلّت تتقاضى راتباً زهيداً. «هكذا شيئاً فشيئاً اخذ الإحساس بالمرارة، يطفو على كل أحلامنا، نحن خريجات الأكاديمية. حيث اكتشفنا إن دراستنا لم تكن إلا نصباً. وانطلقاً كلياً في أعماقنا ذلك الحماس لخدمة الوطن. وكنا نقول في أنفسنا: لقد خسرنا حياتنا!. من طرفي توقفت عن ارتداء الزي العسكري. بل نسيت كلياً رقمي العسكري الشخصي. وفقدت رشاقتي.

وتبخر كل ما كنت قد تعلمته في الأكاديمية، ولم أعد أعرف حتى تفكيك الكلاشنيكوف!». أم، بطبيعة الحال، لو أنه تم اختبارها ضمن الحارسات الشخصيات للعقيد، لكانت فاطمة حصلت على بعض الامتيازات، في السفر والراتب تحديداً. ولكن كان ينبغي أن تكون طويلة القامة، جميلة، طويلة الشعر... وأن تروق لدائرة القذافي الضيقة. أو للقائد نفسه. كما كان شأن سالمة ميلاد الحاضرة على هذا النحو في حكاية ثريا، والتي لفتت انتباه العقيد عند إحدى زيارته إلى مدينة زليتن، مسقط رأسها. «حارسات القذافي الشخصيات لم يكن يشكلن جهازاً حقيقياً، ليس أكثر من خليط من الفتيات من القوات الخاصة، ومن الحرس الثوري، ومن مدرسة الشرطة، ومن الأكاديمية العسكرية، ومن الراهبات الثوريات و... العشيقات العرضيات. كان القذافي يوظفهن كما يشاء. ولم يكن لأي واحدة إمكانية الرقوض، أو التظلم. ولقد عرفت بعض البارعات منهن كيف تستفيد من الوضع، وحصدت الهدايا والسيارات والمنازل. ولكن أرجوك، انسي ما يتم الترويج له باعتبارهن جهازاً عسكرياً من النخبة! لقد كان الأمر سخيفاً، فحرسه النسوي كان مجرد لوحة استعراضية. كان القذافي يحرص على أن يدرج فيها بعض النساء السود ليثبت أنه لم يكن عنصرياً، وليستفيد من الانفتاح على أفريقيا. أما الحراس الحقيقيون الساهرون على أمنه الشخصي، وأغلبهم من سرت، مسقط رأسه، فلم يكونوا يظهرون في الصورة».

كانت فاطمة تؤكد في تأثر أنها رأت الثورة تتصاعد ضد القذافي في بداية 2011. وكانت قد التحقت بها رسمياً

يوم 20 مارس واطعة كلاشنكوفها «تحت تصرف الثوار». ولكنها بقيت داخل النظام. تنقضى أكثر ما يمكن من المعلومات. وتوزع المناشير في مكاتب الجيش : «لم يكن الفرار خيارًا، وإلا لَكُنَّا أهلي وأنا اليوم في قبر جماعي». لقد أصبحت عضوا في التنظيم العسكري الذي يقوده عبد الحكيم بالحاج، قائد المجلس العسكري بطرابلس، وهي تقول إنها استعادت نشاطها وإيمانها بعملها. ولكنها تعرف أن الأمر يحتاج لكثير من الوقت. حتى يتم إصلاح ما أفسده العقيد، ونسرد النساء حاملات الزي العسكري ثقة أهل البلد.

في سجن الزاوية، وهي مدينة ساحلية صغيرة تقع على بعد خمسين كلم من طرابلس، التقيت بالضابطة الأخرى. كانت ترفض في البداية أن تذكر لي اسمها، ثم بعد نهاية الحوار، ألقت به إلي، بطريقة غير متوقعة بالمرّة، دليلاً على الثقة وعلى سبيل الهدية : «حسنًا، اسمي عائشة عبد السلام ميلاد، وداغيا!». كانت الزنزانة، التي تقع في آخر ساحة صغيرة، مطلية بالأصفر، لها بواب حديدي يغلق بمزلاج ضخيم، ونافذة موصدة بإحكام، وكانت مجهزة بمكانين للنوم : فراش موضوع بشكل مباشر على الأرض، وآخر على سرير معدني متهالك. كان هناك كذلك مصباح خافت الإضاءة يتدلى من سلك كهربائي على حائط جانبي. بينما وضع جهاز تدفئة كهربائي صغير في ركن الغرفة، تعلوه مغلاة للماء الساخن لإعداد الشاي. وكان وجود سيدتين في تلك الغرفة الصغيرة قد فاجأني في البداية، وظننت أنني أمام سجينتين. ولكن المرأة المتكورة فوق السرير،

والتي كانت تبدو : بعينيها الغائرتين، ووجهها المنهك، أكثر
 بؤساً، تبين لي أنها الحارسة. وأنها تفضل مشاركة سجينها
 الغرفة - في السجن- بدل النوم في سيارتها، كما كانت
 تفعل منذ أكثر من خمس سنوات، لأنه كما تشرح : «لا أحد
 كان يرغب في تأجير سكن لامرأة وحيدة، ومسكينة!».

وكانت السجينة، بالمقابل، في حالة صحية حسنة للغاية.
 طويلة القامة، هيفاء، وكان شعرها ملفوفاً في عصابة
 جميلة، كانت يعطي بهاء مضافاً لوجهها اللطيف. كان
 لها شامة على الخد الأيسر. وكانت تلبس في أناقة رياضية
 قميصاً فضفاضاً مخططاً، تحت ثوب متناسب أسود اللون
 من القطيفة. وبينما جلست القرفصاء على فراشها بعد
 أن استقبلتنا، أبدت موافقتها على سرد تفاصيل حياتها
 المهنية، ولكنها كانت حريصة على أن تكون الأمور واضحة
 منذ البداية : لقد كانت عسكرية-محترفة - «وعن اختيار!»
 - ولكنها لم تكن قد انتهت «لزمرة» القذافي، ولا لحارساته
 الشخصيات على الإطلاق. فإذا ما اتضحت هذه النقطة،
 كان بإمكانها أن توضح أنها كانت مفرمة بفكرة الالتحاق
 بالجيش منذ صغرها، وكيف تفاعلت مع وفد الجيش الذي
 جاء لمدرستها بمدينة سبها، عاصمة الجنوب الليبي، وأحد
 أهم مناطق نفوذ قبيلة القذافي. وذلك لتحريض الفتيات
 على الالتحاق بالجيش. هكذا التحقت بالفعل بالأكاديمية
 العسكرية نهاية ديسمبر 1983. ومثل أغلب الطالبات كانت
 تنتمي إلى عائلة كبيرة العدد (تسعة أبناء)، ذات دخل جد
 متواضع، متحفظة كل التحفظ على التحاق إحدى بناتها
 بالجيش وارتداء الزي العسكري، وهي تشرح بهذا الخصوص؛

«كان علينا جميعاً أن نعانء أهلاً لدخول الكلية العسكرية. ولكننا فعلنا ذلك بكل سعادة! فإن الشعب المسلح ينبغي أن يكون نصفه من النساء، وإلا فإن المفهوم سيفقد معناه؛ لأن نصف الشعب مكون من النساء. وهو الأمر الذي يعني بالنسبة لنا إن القذافي صار يثق أخيراً في الفتيات، ويدفع بهن خارج أسوار البيوت!».

لقد تمكنت، في الوقت نفسه، من اجتياز الامتحان في شهادة التمريض ومن التخرج من الأكاديمية، سنة 1985. وانتدبت في الجنوب مسقط رأسها لتشرف على التدريب العسكري في مدارس البنات، وقد ارتقت بسرعة سلم الرتب العسكرية. وعند عودتها إلى طرابلس بعد عشرين سنة، انضمت إلى قيادة الحرس الثوري؛ وهو جهاز مخصص لحماية القائد، ووجدت نفسها مكلفة بأن تختار باستمرار... أجمل بنات الحرس الثوري لينضممن إلى الحارسات الشخصيات للقذافي. «وكانت تلك مسؤولية كبيرة! فهن من كن سيبرهن للعالم بأسره على أن المرأة الليبية كانت مسلحة ومحترمة. هن من كن سيقمن بدور السفيرات! ما كان لي أن أخطئ!»؛ إذن كانت تختارهن «مدهشات». ولكن ما معنى ذلك؟ هل يجب أن يكن «ذوات كاريزما»؟ أم جميلات؟ «لم يكن الأمر كذلك. كنت أريد أن يكون لهن حضوراً، وأن يفرضن أنفسهن. وكنت أفضل أن يكن طويلات القامة، أو كنت أفرض عليهن أن يلبسن الكعاب العالية». وهي تشرح أن الفتيات كن يحلمن بأن يقع عليهن الاختيار. بل هن يطلبن منها أن تعطي لهن الفرصة للولوج يوماً لعالم الأضواء. «وكان يمكن أن يقلب ذلك حياتهن

رأساً على عقب، خاصة إذا لم يكن عسكريات محترفات. حيث كن يرافقت القائد في السفر، فيقبضن مبالغ مالية هامة. إذن صدقيني من فضلك بأنهن لن يقصرن في بذل قصارى جهودهن ليكن في المستوى. تجميل ولباس رائع ... لقد كن على يقين بأن كل آلات التصوير ستكون مصوبة نحوهن».

ولم تكن العقيد عائشة تريد الحديث عن علاقة القذا في مع حارساته الشخصيات. إن هذا موضوع سرّي للغاية. كانت تنجز عملها باقتراح الفتيات الجميلات وينتهي الأمر. وما كان يحدث لهن بعد ذلك لم يكن يعنيتها. ولكنني كنت أصرّ على السؤال : «ألم يكن معلوماً لدى الجميع أنّ العقيد كان يتخذ منهن سريعا عشيقات؟» ولكن عائشة كانت تلتزم الصمت حيال هذا السؤال، وتقطب على الفور وجهها. كانت ترفض كذلك أن تتطرق لشخصية مبروكة، الوحيدة التي لم تكن ترتدي اللباس العسكري عندما تكون خلف العقيد. ولكن الجميع يعرفون أهميتها في تنظيم الحاشية النسائية. «لا أَرْضَى أن يتم مقارنة دوري بدورها. فراتبي المتواضع، والذي لا يزيد عن 832 ديناراً شهرياً [ما يقارب 500 يورو]. يدلّ على أنّه لم تكن لي علاقة بزمرة الحارسات الشخصيات وشغلن!». وبحركة غريبة، انتزعت فجأة فرضا صغيراً كان بثقب أذنها؛ وناولتني إياه قائلة : «هل ترين ؟ ليس حتى من الذهب! حارسات كثيرات صارت لهن ثروة ضخمة. أما أنا فلا أملك شيئاً!».

ولا حتى الحرّية.

كانت لا تخفي إخلاصها الثابت لقائدها، ولجيشها أثناء الحرب الأخيرة. وإنها قد نفذت الأوامر بدقة ووقفت في وجه الثوار. «كاست تلك مهمتها». كما ترى، وهي لا تشعر بأي ندم حيال ما قامت به في هذا الصدد. مدير السجن، أحد رموز ثوار مدينة الزاوية الذين وقفت في وجههم العقيد عائشة، والذي دعاني بعد انتهاء زيارتي للسجينة، لزيارة متحف شهداء الزاوية، والذي يضم صور الدمار وما خلفته الحرب من آثار مريعة، كان بملك وجهة نظر مخالفة تماماً. فقد كان يتهمها بأنها قامت بتعذيب مساجين الحرب، بل قامت بنفسها بقتل الكثيرين منهم بعد التعذيب. وإذا كان الثوار قد أفرجوا عن أغلب الجنديات، فإن عائشة، التي أُلقي عليها القبض يوم 21 أغسطس، ستنتظر طويلاً حتى موعد محاكمتها.

تقول نائبة وزير الشؤون الاجتماعية، نجوى الأزرق، المكلفة بهذا الملف: «إنّ وضعية النساء العسكريات في عهد القذافي كانت محزنة ومرّضية، فقد كانت الأكاديمية العسكرية مجرد حيلة من طرف القذافي، ليتمكن عبرها من الوصول إلى النساء، ثم عندما صارت لديه شينا فشيناً وسائل أخرى للحصول عليهن، لم يعد يهتم بهذه الكاديمية، وتراجع أدائها كثيراً في المدة الأخيرة». ومع ذلك، فإنّ النظام، وعندما صار في ضائقة حربية أمام تقدم الثوار، لجأ إلى تعبئة العديد من الجنديات، والزج بهن في معاركه ضد الشعب الليبي. وقد كنّ حتى ذلك الحين مهملات ومحجوزات في الثكنات، فبعضهن أرسلن للقتال مع جحافل المرتزقة، والتي كان من بينهم كذلك نساء.

والبعض تم توزيعهن. أثناء حصار طرابلس. على العديد من الحواجز الأمنية في المدينة. وذلك لمراقبة الهويات ومحتوى السيارات، أو وضعهن في موقف مخجل لتنظيم طوابير الانتظار الطويلة للتزود بالوقود. وصفاراتهن بين الشفاه. إنهن دُمى القذافي. ورموز نظامه. يبغضهن السكان ويحقد عليهن الثوار. منهن من قرّ. ومن قبض عليهن أو بلغ عنهن. أو أنهن دفعن ثمن التحاقهن بالثورة من حياتهن. أو وقع اغتصابهن. ومنهن كذلك من جيء بهن في مجموعات إلى أماكن قريبة من خطوط المواجهة لإشباع رغبات «ذكور الكتائب». إن قدر الغالبية من حارسات القذافي أن يظلّ مصيرهن مجهولاً. وبعض الجثث التي عُثِر عليها تحت أنقاض باب العزيزية تشير إلى إن الكثير منهن قد تمت تصفيته في شهر أغسطس. في السويغات الأخيرة من حياة النظام. ففي لحظة التفكك والهروب اليأس للقائد؛ صرن عديمات الجدوى.

الحيوان الكاسر

لم يكن بإمكان الدكتور فيصل الكريكشي أن يتخيل على الإطلاق ما اكتشفه، نهاية شهر أغسطس 2011، وهو بسيطر مع عدد من الثوار على جامعة طرابلس، فهذا الأستاذ الجامعي وطبيب النساء الخمسيني، والذي درس الطب في إيطاليا، ثم الدكتوراه في المعهد الملكي بلندن، الهادي والمتزن، لم يكن يجهل، مع ذلك، فساد النظام الجامعي، وشبكات الرقابة والوشاية التي ركزتها اللجان الثورية، وجهاز الدعاية الهائل الذي كانت تشكله مختلف الكليات. وكان يعرف أن ذكرى المشانق التي نُصبت للطلاب في الساحات العامة عام 1984 لا زالت حية عند السكان. وكان يعي أن أي مسيرة جامعية لم تكن ممكنة دون البرهنة على الولاء المطلق للنظام. فلم يستغرب إذن وهو يكتشف، ذات ليلة من القتال المكثف حول الحي

الجامعي، سجننا غير منتظر، كانت توظف فيه الحاويات كزنانات جماعية، ومكتبا لمدير الاستخبارات الرهيب: عبد الله السنوسي، حيث امتلأت أدرجه بالمعلومات حول عشرات الطلبة والأساتذة، مع قائمة بأشخاص ينتظرهم الإعدام. ولكن ما عثر عليه صدفة، وهو يفتش زوايا الجامعة بحثا عن قنّاص محتمل، وراء أبواب شقة سرية تقع تحت «المدرج الأخضر» الذي كان معمّر القذافي يلقي فيه محاضراته التعبوية، كان يتجاوز أسوأ كابوس.

كان هناك دهليز يقود إلى قاعة استقبال فسيحة مليئة بمقاعد وثيرة من جلد بني، ثم رواق يؤدي إلى غرفة نوم بلا نوافذ، مُلبّسة بكسوة خشبية، والتي كانت مجهزة بسرير كبير يتسع لشخصين، ينتهي اللحاف الذي يغطيه إلى سجّاد رخيص مشجّر، والذي كانت تعلوه وسادتان صغيرتان، فوقه السرير كان هناك قنديلان تنبعث منهما أنوار برتقالية باهتة، وكان ملحقا بالغرفة حمام كبير، وهو ما بدأ غريبا- في بناية مخصصة للدراسة وتعليم الكتاب الأخضر- فالمكان أشبه بمسكن رجل عازب، ولكن الغرفة الموالية هي التي أذهلت الزائرين، وجمّدتني عندما أمكن لي أن أستكشف بدوري المكان، ففي مقابل الغرفة، كان هناك باب ضخم يفضي إلى قاعة للكشف الطبي، مجهزة تجهيزا كاملا بكل ما يتعلق بأمراض النساء والولادة... ولم يستطع الدكتور الكريكشي، رغم كونه في منتهى الرراثة، أن يخفي اشمئزاه فقال لي - هذا الاختصاصي الشهير في طب أمراض النساء، والذي تم تعيينه رئيسا للجامعة بعد الثورة - : «كيف يمكن للمرء أن لا يكون مصدوما أو متأثرا؟

لا شيء. لا شيء على الإطلاق يمكن أن يبرّر وجود مثل هذه التجهيزات. فإن كان يُخشى أدنى طارئ، فإن مركز التوليد وأمراض النساء بالمستشفى الطبي. يبعد مسافة مائة متر. فلماذا إذن ؟ ما هي الممارسة غير القانونية والمنحرفة التي كان يتم إخفاؤها هكذا عن الأنظار ويواصل : «أنا أتوقع فرضيتين لا غير: إما عمليات إجهاض. أو عمليات إعادة تركيب غشاء البكارة. أي كل ما هو ممنوع في ليبيا. ودون أن أنطق بكلمة «اغتنصاب». أجد نفسي مقادا لتصور وجود سلوك جنسي مقلق. وراء ذلك».

كان يتكلم بصوت منخفض. وهو يزن كل كلمة. فهو يعني فظاظة ما اكتشفه. وقد اعترف لي هو نفسه أنه كان الطبيب الرسمي لالنتي القذافي. عائشة وهناء : كان يفرّ في ابتسامة حزينة : «لقد جعلني ذاك في وضعية غريبة. فقد كانت عائلة القذافي تحترم كفاءاتي. ولم أكن أطلب أي شيء آخر. وأحيانا كانت الفتاتان تعبران عن استغراب أبيهما من أمري. ألا يطلب سيارة ؟ منزلا ؟ لا. لا أريد أي شيء. لا شيء على الإطلاق!». لقد كان يعرف شهوة معمر القذافي للفتيات. وكان قد سمع بها كان يسميه «اللمسة السحرية». تلك اليد التي كان يضعها على رأس طرائده لينبّه إليهن حارساته الشخصيات. في الجامعة كان الدكتور الكريكشي يدرّس مادة النظم العائلية. وكان يخصص فصلا لدراسة مفهوم «التابو- أو المحظور» كل سنة. وهو يؤكد في هذا الصدد إن سلوكيات القذافي الجنسية : كانت من أكبر «النابوهات» في البلد. ولا أحد كان بإمكانه أن يجازف بالتطرق للموضوع. أو أن يحذّر الطالبات. أو أن يقوم

بتشكيل فرقة لحماية البنات. كان الجميع يفضل تجاهل الموضوع. أمّا ضحايا هذا الوحش الكاسر، فلم يكن أمامهن إلا الصمت، أو مغادرة الجامعة سرّاً.

كان تقدير عدد اللاتي دُعِين إلى باب العزيزية. أو اللاتي تم استدراجهن إلى الجناح الرئاسي المخفي تحت المدرج الأخضر أمراً مستحيلاً. وقد أخبرني الدكتور الكريكشي، يوم اكتشافه المرعب، إنه وجد في الشقة ثمانية أو تسعة فيدوهات تحتوي على صور حية للاعتداءات الجنسية التي ارتكبها القذافي هناك. ولكنه اعترف بأنه أتلّفها على الفور. وكنت مذهولة. أتلّفت؟ ألم تكن أدلة كان من المهم الاحتفاظ بها؟ ولكنه أجابني: «ضعي نفسك في السياق. كانت الحرب ما تزال قائمة. ولم أكن أستطيع أن أضمن أن لا تقع هذه التسجيلات بين أياد غير مسؤولة أو مؤذية. وأن لا نكون موضوع ضغط أو ابتزاز. كان همي الأول حماية الفتيات». إنه ردّ فعل غريب، ومسؤولية ثقيلة. ألم يكن من الأولى أن يتولى القضاء قراراً كهذا؟ ورغم إنّ الكشف عن وجود شقة سرّية للقذافي في وسط الجامعة نفسها، كان قد سبّب صدمة في الحي الجامعي، إلا أن الألسن لم تكن، مع ذلك، طليقة. كان الجميع يذمّ الدكاتور، وكانت ملصقاته المعروضة تداس باستخفاف. ومع ذلك، فإن الطالبات المحجّبات كن يتجنبن الحديث معي كلما حاولت أن أعرف المزيد عن الموضوع. ولم يستغرق كثير وقت؛ حتى عاد نحوي الطالب الذي كنت قد كلفته بسير آراء طلبة الجامعة حول الموضوع، وهو يقول: «أعذريني، لن أستطيع مساعدتك، إن الموضوع بالأحرى من أكبر

التابوهات». ولكن، ورغم كل ذلك ! ثمة بالضرورة شهود. بعض الناس الذين يكونوا قد لاحظوا ما يدعو إلى الريبة، أو سمعوا بفتيات تعرضن لمضايقات ! ألا يوجد أحد ينهض لكشف المستور عن بشائع هذا النظام ؟ في الواقع لم أجد إلا شاب واحد، هو رئيس تحرير جريدة «ليبيا الجديدة» : الذي نجراً على كسر جدار الصمت. وسرد لي قصة أحد صديقاته مع القذافي : «كانت من عائلة ريفية من منطقة العزيزية، وكانت قد جاءت لتدرس الطب بطرابلس. في أحد زيارته إلى الجامعة، وضع القذافي يده على رأسها. وجاءت حارساته في اليوم التالي إلى مقر سكنها، لإعلامها بأن القائد كان قد اختارها لتنضم للحرس الثوري. وعندما رفضت بدأت التهديدات تنهال على شقيقها، الأمر الذي دفع الفتاة للخضوع والذهاب لمقابلته، فاغتصبتها، واحتجزها لمدة أسبوع، قبل أن يخلي سبيلها وفي يدها مبلغ كبير من المال. ومقابل مشاعر الخزي، والعار الذي لحق بهم جراء ذلك، رفضت العائلة عودتها للبيت. وباتت عودتها للجامعة مستحيلة. فانتهدت الفتاة إلى الضياع. وهي اليوم تعمل فيما يفترض في تجارة السيارات، ولكني أعلم إنها في الواقع، تعيش ببيع جسدها».

نسرين ذات السحنة المضبنة، والشعر الطويل المقتول المسترسل على الكتفين، والخطاب المثقف، لم تكن مندهشة. ورغم أنها قد ترعرعت في ليبيا، في إطار عائلة بوجوازية، ووالدة أوربية، كانت على يقين أنه يستحيل عليها أن تعيش في سلام في اجواء نظام القذافي الخائفة والفاسدة. وإن أي صيرورة ناجحة لحياتها لا يمكن أن

تتم إلا إذا سافرت للدراسة في الخارج. قالت لي ذات مساء : «كنا أبعد ما نكون أن نتحيل إمكانية حدوث مثل هذه الاغتصابات. وذلك رغم أن مجنون أولاد القذافي. ومجون أزلامه. كان معروفًا للجميع. غير إن هذا الفساد «الجنسي» صار كسيف مسلط على رأس كل فتاة. والذي قد يهبط عليها في يوم أو آخر. حيث ما انفكت زمرة نساء باب العزيزية تجوب الاحياء الجامعية. وتتربص في دورات المياه؛ حيث كانت الفتيات تميل في ترتيب أنفسهن وإعادة زينتهن. فيتدخلن في الحديث ويسارعن بتقديم العروض. بما في ذلك العروض المالية». على إن ظلال باب العزيزية ليست وحدها ما كان يخيم على الجامعة. بل إن الجامعة بكاملها كانت تسبح في جو من الابتزاز الجنسي.

فكم من فتاة رسبت في الامتحان لرفضها محاولات الأساتذ للتقرب منها ؟ وكم منهن. بعد أن تحصلن على درجات رديئة ظلن. تجد الأستاذ يقترح عليها دروسا خصوصية ؟ بل إن بعض الشباب قد يدفع بخطيبته لأحضان أستاذة حتى يحصل الخطيب على شهادته. وهو الشرط الذي يجعله أمامها ليتم زواجه منها. وأحيانا بعد أن يورط الخطيب خطيبته في هذا الفخ. لا يتردد في التخلي عنها بعد حصوله على شهادة التخرج. لقد أصبح الجنس هنا عملة رابحة لشراء كل ما يحتاجه الشخص، أو للحصول على الترفيات. أنه أداة لتأكيد السلطة. فقد بات واضحا إن سلوك العقيد كان معديا. «ففعصابته كانت تعمل بالطريقة نفسها. والنظام كان فاسدا حتى النخاع».

هذا ما يؤكد الدكتور الكريكشي مذهولا من طبيعة تلك الشبكة المنظمة التي اكتشفها وهو يتسلم مقاليد الجامعة. والتي كانت على درجة من التنظيم والتراتبية، والموزعة إلى فروع وأقسام، وجواسيس مزروعين في جميع الكليات والإدارات، والتي ترتبط بشكل مباشر مع المسجل العام للجامعة : الذي يرتبط بدوره مباشرة بباب العزبة. أما مهام عملها ؟ فهو اختيار أجمل الطالبات اللاتي ينبغي الإيقاع بهن. بأية ذريعة، في شبك القائد... ثم زمرة.

ويتم إغراء الفتيات وفق هذا السيناريو للحصول على درجات عالية في الامتحانات. أو شهادات التخرج. أو تعيينهن في مناصب محترمة. أو الحصول على منح دراسية. كل شيء كان متاحا لهن شرط أن يبدین لنا وانقيادا. ويمكن أن تتجاوز الهدايا بالطبع. الإطار الدراسي. بحيث يمكن أن تحصل الطالبة على جهاز آيفون أو آيباد، أو سيارة. ومجوهرات... ويمكن أن تطير قيمة الهدية عاليا للمرغوب فيهن أكثر. وهن في الغالب لسن الأقل فقرا.

«إنه قانون الصمت، فلا أحد، على الإطلاق ينهض للتبليغ عند حادثة اغتصاب»، يؤكد الدكتور الكريكشي. غير إنه تمكن رغم ذلك، من رصد مجموعة من الحوادث، تكشف عن تلك الممارسات الجارية. منها متعلقة بطالبة كانت قد وجدت نفسها، وقد قامت بإجراءات التسجيل في كلية الطب، وقد نسبت إلى سلك المهن شبه الطبية. «كان ذلك غير مفهوم بالنظر إلى درجاتها الممتازة». وعندما طلبت توضيحات من المسجل العام للجامعة. وعدها بإصلاح الخطأ شرط أن تذهب إلى «الريقاطة».

المدينة السياحية الواقعة على شاطئ البحر. حيث كان كبار موظفي النظام، وبصورة خاصة أبناءهم ينغمسون في أجواء الخلاعة القصوى. كانت طرابلس كلها تعرف ذلك. تلك منطقة انعدام الحقوق أو بالأحرى كل الحقوق. رفضت الفتاة العرض. وبالتالي كان مصيرها : وطوال عامين، الحصول على أدنى الدرجات في كل امتحاناتها. هل تتخيلين الضغوط أنا نفسي من كتب. أخيراً، طلبا لإدماجها من جديد في دراسة الطب. وبلغت السلطة الجديدة خمس شهادات أخرى لفتيات تثبت هذا الفساد الكريه للنظام.

ستحتفظ الشفة المقامة تحت «المدرج الأخضر» بأسرارها إلى الأبد. وثمة، فيما يبدو، أماكن أخرى تردّد عليها القذافي : حيث كانت قد هيئت له المخادع. فهو يحتاج بصورة مستمرة لأكثر من شريك جنسي. من الرجال ومن النساء. وهو يفضل الفتيات العذراوات. بل يجب أن يجلب له أربع عذارى. على الأقل. في اليوم. كما تؤكد لي خديجة، طالبة المغتصبة : والتي كانت قد بقيت سنوات عديدة بباب العزيزية، مرغمة على الإيقاع برجال آخرين من رجال النظام. وهو الأمر الذي أكد بشأنه الشاب فيصل: الذي كان من بين المجموعة التي كانت تحت تصرف العقيد في باب العزيزية: بعد أن أجبره: وقد أنجذب القذافي لوسامته في أحد زيارته للجامعة. على الالتحاق بفريق الخدمات الخاصة. وترك دراسته في كلية الحقوق. حيث تطرق لحاجة القذافي لأربع عذارى للصحافة البريطانية، موضحاً: «كن يدخلن غرفته، فكان يقضي منهن وطره ويخرج»

كما لو كان ببساطة، يتمخبط». وكان الشاب. وهو الآن في الثلاثين من عمره، يشدد على غجربة القذافي، المستهلك الأكبر للضباغرا، ويؤكد على أن نساء عديدات: «كن يذهبن مباشرة من غرفته إلى المستشفى». ضحايا تمزق داخلي. وهذا ما نشهد بشأنه ثريا، وما سيؤكد له العديد ممن التقيت بهم. لم يكن القذافي شبقا فقط، ولكنه كان كذلك، ساديا وفي منتهى الوحشية.

كانت المدارس والجامعات تمثل إذن بالنسبة إليه بؤر طبيعية «لهذا اللحم البشري». والتي هي في تجدد دائم. في هذا الخصوص، كان القذافي قد لاحظ هدى بن عامر، والدة هناء، ابنته «بالتبني» والتي هي في الواقع، ابنته الشرعية، في جامعة بنغازي. هذه التي ستتحول إلى واحدة من أشهر النساء المحيطات بالقذافي، والتي ذاع صيتها على المستوى الوطني عندما خرجت محتاجة من بين الحاضرين لعملية تنفيذ حكما بالشنق على شاب معارض؛ كانت تجري في الساحة العامة، لتجذب، بكل قواها، رجلي الرجل المعلق بالمشنقة وتعجل بموته. إنه عمل وحشي كانت قد استحققت بموجبه كنية «هدى الجلاد»؛ لأن المشهد كان قد بثه التلفزيون الوطني على الهواء مباشرة. وما فتئت بعد ذلك تجاهر بتعلقها بالنظام، ووقفت في وجه مظاهرات أبريل الطلابية، ودعمت القمع ووشت بالمعارضين وتعصبتهم. وشنت حملات «التطهير» على رأس اللجان الثورية. ويشرح لي أحد زملائها الطلبة: وهو يتذكر: «لم نر فتاة بمثل تلك الفظاظلة، ولا بمثل تلك الوضولية، أو تلك الوقاحة على الإطلاق؛ لقد كانت تتكلم

في هدير مربع، وتواظب على اجتماعات زمرة النظام حتى ساعات متأخرة من الليل، وهي ما تنفك تبشر بخطاب القذافي: مهدة المنشقين بتصفيات جديدة». وبعد مشاهد الإعدام لم تكن تكف؛ مدعومة من العقيد، ومتحدثة باسمه عن توسيع نفوذها. حيث كان دورها في البداية ما يشبه الإشراف على الجامعة التي تنتهي إليها. حيث قامت بإقصاء كل الأساتذة والطلبة؛ الذين كانت تعتبرهم بعيدين عن أرثوذكسية النظام. بعدها اخففت من بنغازي فترة من الزمن، وذهبت للعيش عند العقيد. وانضمت إلى حرسه الشخصي؛ قبل أن تعود أكثر نفوذا من أي وقت مضى. ومرتبطة ارتباطا وثيقا بالقذافي الذي سيقرر تزويجها. ويكون وكيلها في عقد الزواج. وسيعينها في وظائف هامة منها: محافظ بنغازي، ورئيسة البرلمان العربي، ورئيسة ديوان المحاسبة، ووزيرة.... لقد صارت من أغنى النساء في ليبيا، ولكن دون شك أبغضهن عند سكانها. وهي اليوم سجين بطرابلس - منزلها بينغازي أحرقه الثوار منذ الأيام الأولى للثورة - وقد اعترفت لسجانها بأنها أجبرت على ترك الصغيرة هناء المولودة - وفق نسخة مصورة من جواز سفر صادر في 2007، كانت بين يدي - في 11 نوفمبر 1985، من علاقتها بالقذافي. والتي جاءت صفية - الزوجة - يوما للبحث عنها بدار الأيتام بطرابلس من أجل تبنيها.

كل الأماكن التي تتردد عليها النساء يمكن أن تكون نقاط تزويد للقائد، بما في ذلك السجون. حيث شوهدت إحدى حارساته الشخصيات وهي تلتقط صوراً لحسنات سجينات. وكانت فاعات الحلاقة والتجميل مصدرا مفضلا

تواظب جالبات «الطرائد» على زيارته. كما كانت حفلات الزفاف مصدرا آخر. حيث كان القذافي مولعا بالتردد على هذه المناسبات التي ترتدي فيها النساء أجمل حليها. وإذا لم يستطع الذهاب إلى هناك بنفسه، فهو يرسل مبعوثيه إلى المكان، ثم يقضي وقتا رائقا في مشاهدة ما النقط بالمناسبة من صور وتسجيلات.

في هذا الصدد. أكد لي مصوّر من طرابلس. إنه كان يحتاج لخلق مائة عذر كل مرة حتى لا يسلم إلى باب العزيزية نسخ تسجيلات الزواج المصورة التي كانت تطلب منه. وتؤكد لي بعض الفتيات عدولهن من تلقاء أنفسهن عن الذهاب إلى بعض تلك الحفلات المقامة في فنادق طرابلس الكبرى. خوفا من أن يتم تصويرهن. ولقت نظر العقيد أو زمرة إلبهن بعد ذلك. ويعيش أغلب أولياء الأمور في هذا القلق. ويشددون على بناتهم: المحرومات أصلا من العلاقات الاجتماعية. ضرورة العودة مبكرا من الحفلات والعروض. خاصة إذا كانت تدور في باب العزيزية. لأن مقر إقامة العقيد. مع أنها محمية كالقلعة؛ كانت محل استقبال دائم للوفود المدرسية ولصغار المناضلين. هذه اللقاءات التي تؤسس لفرصة سانحة لسيد المكان لتصيد فرائسه.

وكان القذافي لا ينفك يطلب من العاملين معه. وسائقي سيارات باب العزيزية. أو حراسه. ومن الجنود..... أن يسمحوا له بالتفرج على الأفلام التي يتم تصويرها لحفلات الزواج التي تدور في إطار عائلاتهم. في البداية. كان هذا. وقد بدأ الطلب وكأنه اهتمام من طرف القائد بأمرهم. مصدر اعتزاز للبعض. ولكن الأمر صار يقلق الجميع بعد

ذلك. فإذا ما أعجبت إحدى المدعوات «الأخ العقيد»، فسيطلب من صاحب الفيلم أن يأتي بها إليه. سواء كانت أخته، أو ابنة عمه.... وليكن ما يكون. أما إذا كانت العروس هي التي تروق للقائد : فإن صاحب الفيلم لن يعلم بذلك إلا بعد فوات الأوان. فالعقيد سيتصرف لإبعاده من منزله بتكليفه بنهمة رسمية. ويستغل الفرصة لاستدعاء الزوجة، أو زيارتها زيارة غير «ودية» في بينها. وتكون مقاومة المرأة له طريقاً إلى اغتصابها. فكم من حكاية مرعبة رويت لي، تتعلق بهؤلاء الحراس الذين جنّ جنونهم من الغضب، ومن الغم والخيرة. بعد اعتراف عرائسهم بما فعله معهن العقيد. على أن كل من حاول الانتقام لشرفه. وسعى لتصفية حسابه مع العقيد. واجه أوامر القذافي بقتله على الفور. العديد منهم سُنقوا، وبعضهم قُطعوا إرباً إرباً. واثنان منهم شذت أطرافهم إلى سيارات تسير في اتجاهات متعاكسة. وقد عرض المشهد المصور على الحراس المنتدبين حديثاً حتى يعلموا ما تكلفهم خيانة سيد باب العريضة.

هذا : وقد استهدف هذا الشبق الرئاسي ، العديد من الممرضات والمعلمات ومربيات الأطفال كذلك. وقد روت لي مديرة دار حضانة بطرابلس كيف إن إحدى أجمل الموظفات عندها، تم اختيارها من طرف ثلاثة أمازونيّات، لتقديم باقات السورود، مع مجموعة من الفتيات، ساعة استقبال وفدا من جنوب إفريقيا في المطار : وقد طلبن منها أن «تجمل بشكل جيد». وبعد ذلك بأيام جئن في طلبها على متن حافلة صغيرة، توجهت بالمجموعة فيما يفترض نحو المطار. غير أن الطريق الذي حادت نحوه

الحافلة. لم يكن ذلك المؤدي لمطار طرابلس. بل كان في اتجاه باب العزيزية. على أن المفاجأة كانت بالأحرى محط اغتباط من المجموعة. فليس كل يوم يمكن أن نقابل القائد. هذا الذي استقبلهن بسرعة. وألقى بالمناسبة كلمة ترحيبية مرتجلة. بعدها : وبينما كان الجميع يلتحق بالحافلة. وجدت مربية الأطفال نفسها محشورة في غرفة صغيرة مجهزة بحمام. حيث أخذت ممرضتان عينة من دمها في لمح البصر. إذك ظهر القذافي من جديد. ولم يعد يبتسم. كانت نواياه واضحة كل الوضوح. ففرغت الفتاة وأخذت تصرخ : «أتوصل إليك لا تلمسني. أنا من الجبل. وأنا مخطوبة». فأجابها القذافي : «أمامك الخيار إما أن أقتله. أو أنركك تتزوجينه وأمنحك منزلاً. على أن تكوني لنا معاً».

*

أحد معاونين المقربين من الدكتاتور. والذي كان يعمل إلى جانبه بشكل يومي. ولكن لم يكن له سلطة القرار. انتهى - ولكن بكثير من التحفظ - إلى قبول الحديث في هذا الموضوع. فقد كان ينفي في البداية معرفته بأي شيء يتعلق بما كان يسميه «الحياة الخاصة للأخ القائد». ويقول بأنه كان يرفض دائماً أن يتدخل في ذلك. «لم أكن أتواجد هناك في المساء. وأقسم لكم أن قدمي لم تطأ الطابق السفلي. على الإطلاق».

كان في الواقع في هذه الجملة اعتراف ضمني : بأن ذاك المكان كان موضع المخاطر جميعها. ولكن سرعان

ما أخذت الثقة تتأكد شيئاً فشيئاً فيما بيننا. مع وعدي له بأن لا أذكر اسمه. وانتهى للتطرق إلى قسم «القوادة»؛ المكلفين بـ «تلبية الحاجيات الجنسية» للدكتاتور. وهو يشدد بشأنهم : «متملقون، في منتهى الوضاعة، والدناءة؛ كانوا يزحفون أمامه، ويتقاتلون لتلبية رغباته حتى قبل أن يطلبها». ولخص الوضع في كلمات : «يمكن أن نصف معمر القذافي باليهووس جنسياً. فهو لم يكر بفكر حقاً إلا في ذلك». وهذا الإدمان «المرضى» كان يقوده إلى تحليل كل شئ من خلال مؤشر الجنس. «لقد كان يحكم ويذل ويستعبد ويعاقب عن طريق الجنس». وكان له نوعان من الطرائد : أولهما «الطرائد السهلة». ومن المستحسن أن نكون في مستقبل العمر. ومن الطبقات الشعبية. وكانت تلك من قوته اليومي. ولا بشكل الحصول عليهن في ذاته رهانا خاصا. واللاتي كان يمكن أن يفوض بشأنهن ما كان يستسى بقسم «الخدمات الخاصة». وهو ما يشبه قسم المراسم. وتشرف عليه في السنوات الأخيرة، المربعة مبروكة الشريف، التي جاء ذكرها مرات عديدة في شهادة ثريا. وكان يأخذ هؤلاء الفتيات في أكثر الأحيان بالقوة - فتلة قليلة تمت اسنمالتين بوجه خاص. وكن يتباهين بأن القائد «افتخر بكارتهن» - وكان يستطيع أن يكافئ بلا حساب من كان قد رضي عنها. ومن كانت تقبل بالعودة أو بتجنيد فتيات جديدات. ثم ثانيهما الأخريات اللاتي كان يطمح في الحصول عليهن واللاتي كان إخضاعهن والسيطرة عليهن يمثل تحدياً شخصياً بالنسبة للعقيد. لقد كانت هؤلاء يمثلن غنيمة خارقة للعادة.

وحتى يحصل على ذلك كان يتحلى بالصبر. ويلجأ للتفكير الاستراتيجي. ويوظف إمكانيات ضخمة. من ضمن هؤلاء نجومات المجتمع بالطبع : من مطربات وراقصات وممثلات وصحفيات بالتلفزيون... من الشرق الأدنى ومن الشرق الأوسط. وكان بإمكانه أن يرسل طائرات إلى أقصى العالم ليستدعيهن، ويغمرهن بالمال وبالجواهر. حتى قبل أن يصلن. هؤلاء يرضين نرجسيته : إذ يقول : «بإمكاني أن أحصل عليهن جميعاً». ولكن لم يكن ذلك أكثر ما يهتمه. بل إن ما كان يستفز غروره بحق هو أن يحصل على بنات أو زوجات الشخصيات النافذة. أو بنات وزوجات معارضيه؛ ولو لساعة أو لليلة أو لبضع أسابيع. ولم يكن الرهان في ذاته إغواء المرأة، بقدر ما كان إذلال الرجل المسؤول عنها من خلالها : «وليس ثمة أكبر من هذه الإهانة في ليبيا». أي أن يتمكن من الدوس عليه وتدميره. أو في صورة ما إذا لم يبادر بكشف السر، التأثير عليه وامتصاص قوته، وتدميره نفسياً على الأقل.

ويحلل المعاون السابق للعقيد الأمر : «هذا البدوي المولود تحت الخيمة، والذي كان طوال طفولته قد عانى الفقر والاحتقار، لم يكن بحركة إلا الظمأ إلى الانتقام. لقد كان الأغنياء يرعبونه وقد سعى إلى تفتيرهم. كما يكره الأرستقراطيين والناس المرفهين منذ صغره، الذين كانوا يمتلكون ما لا سبيل إلى أن يمتلكه هو: الثقافة والسلطة وحسن الخلق. وعاهد نفسه على أن يذلهم. وكان ذلك يمر بالضرورة عبر الجنس». كان يستطیع أن يرغب بعض الوزراء والدبلوماسيين والعسكريين رفيعي الرتب على

إقامة علاقات جنسية معه. «ولم يكن أمامهم الخيار. فرب امتناع كان ثمه حكماً بالموت. والعملية التي كان يظهر من خلالها هيمنته المطلقة؛ كانت على درجة من الخزي بحيث لا أحد يستطيع أن يشتكي منها، ولا أن يتباهى بها يوماً». وكان يطالب أحياناً بأن يسلموه زوجاتهم، أو يتدبر أمره للإيقاع بهن. فيستدعيهن في غياب أزواجهن، ويزورهن بنفسه متسبباً في خجلهن وفزعهن، وهو أمر متوقع. كان يبدع من أجل الحصول على بناتهم. وقد يكون ذلك عملاً طويل النفس؛ الوقت الذي يتطلبه جمع ما يتعلق بهن من صور ومعلومات، ومعاينة أذواقهن وعاداتهن وأوقات خروجهن. والاقتراب منهن ثم تحلويقهن والالتحام بهن بفضل حارساته الشهيرات وبفضل «كبيرة الفحاب» مبروكة. كان يُقال لهن إن القائد معجب بهن، ويتم إغراؤهن بالمال وبالسيارات الفاخرة، وبشهادة التخرج كطبيبة إن كانت طالبة طب، بل بعبادة في المدينة إن كن يحملن بالاستقرار. كل شيء يقدو ممكناً.

ثم يا له من ظفر عندما يحصل عليهن بين يديه، أخيراً!!
ويا لها من سلطة نهائية على آبائهم.

سيد الكون

وعلى رأس طرائد الدكتاتور الفاخرة : «والفرائس النفيسة» التي كان يشتريها، تأتي زوجات وبنات الملوك ورؤساء الدول. فحينما تعذر على معمر القذافي أن يصبح؛ كما كان يتمنى، «ملك ملوك إفريقيا»، اقتصر حلمه على الحصول على زوجاتهم على الأقل. والتي تضمن له التفوق عليهم جميعا. ولكن في هذا الميدان بالذات، لم يكن اللجوء إلى الضغط، أو القوة واردا على الإطلاق. بل كان لا بد من الكياسة والدبلوماسية واللباقة. وإنفاق الأموال الطائلة. وقد فهمت عدد من الزوجات بسرعة فائقة، أنهن كن يستطعن أن يحصلن على كل ما يبتغيه من القائد. بحيث أنهن لم يترددن في طلب اللقاء به، من أجل الحصول على دعمه لهذا المشروع أو ذاك، لبناء مستشفى أو مؤسسة أو غير ذلك. وكان يتفق بلا حساب، ويتدبر أمره بالطبع ليستفيد من ذلك. بعض بنات الرؤساء الأفارقة

المتحركات أكثر من الليبيات : والمتعودات على عيشة البذخ، كن يعملن على أن يستدعيهن إلى طرابلس، ولم يكن يترددن في أن يطلبن من «بابا معمر» تمويل عطلين، ودراستهن، أو مشاريع شركتهن : كإنشاء شركة لإنتاج البرامج التلفزيونية، على سبيل المثال، ومكتب القائد، ثم غرفته كانا مفتوحين أمامهن. وقد دخلت ابنة رئيس سابق للنيجر بصورة دائمة، في دائرة حياته الخاصة. وما انفكت تظهر في رفقته أثناء العديد من الزيارات الرسمية، ولكن القذافي كان يحب فكرة أن يغامر، وأن يغوي الزوجات رغم أنف الأزواج وبحضورهم. وكانت مؤتمرات القمة العالمية الكبرى، تتيح له الفرصة ليستخدم جميع مواهبه.

أحد أهم الشهادات بهذا الخصوص، كانت من موظفة مخضمة بالمراسم، عملت سنوات عديدة في مصلحة التشريفات التي تخص القائد، والتي حددت معي موعدا في قاعة شاي بحي راق بطرابلس. كانت إحدى الصديقات قد حدثتها عن البحث الذي أقوم به، وكانت موافقة على المشاركة بكل ما لديها من معلومات. كان ذلك غير منتظر للمرة بعد تنالي الرفض الذي واجهني! كانت جد رقيقة، ونشطة في حماس استثنائي. ولم تكن ترتدي الحجاب. كانت في منتهى الجرأة والودية في آن، قالت لي في نبرة صاحب قضية : «إنني أشعر بأن ضرورة الحديث إليك واجب وطني. فأنا لم أستطع المشاركة في الثورة ولا حمل السلاح ضد القذافي. وأقسم لك أنني تمنيت ذلك. على إن اللقاء بك، والمساهمة في كشف حقيقة هذا النظام هي طريقة للمشاركة في الثورة». هي أيضا تبخرت أوهامها،

حسب اعترافها. منذ تطوعها في مصلحة التشريعات. وفقدت هي أيضا كل أوهامها في القائد. وفي الدوافع التي كانت تحركه. كانت قد نصورت في البداية أن عملها في المراسم سيتيح لها الفرصة لخدمة الوطن، وأنها تجهد من أجل هدف كبير يحمله صاحب رؤية نزيه. فإذا بها تكتشف نظاما للمناصب والمداخل والإغواء الجنسي. يقضي على القناعات كلها. لقد حاولت أن تحافظ على اتزانها. وأن تتصرف بطريقة يكون فيها عملها خلواً من المآخذ. ولكنها لم تكن تحتاج إلى وقت طويل حتى تكتشف أن هوس القذافي بالجنس كان يدنس مجموع النظام. ويمكن أن ينسف كل التنظيم الدقيق لقمم رؤساء الدول، وزياراتهم الذي كانت مصلحتها مكلفة بها. وما لبثت أن ثارت : «كان يلعب بالنار. وكان يهدد الحدث الدبلوماسي بلا انقطاع». لقد استهزأ بكل الأعراف الدولية. «من ذلك قصته مع زوجة إحدى رؤساء الدول. التي رافقت زوجها في زيارة رسمية لليبيا. وباعتبارها تولى اهتماما خاصا بالمدارس والعملية التعليمية. كانت مهمتنا أن نعد لها برنامجا يستجيب لانتظاراتها. فحددنا لها جملة من المواعيد والزيارات لتقابل رموز التعليم في البلد والإطلاع على مختلف المرافق التربوية... لكنه لم يتوان في نسف البرنامج الذي أعد بعناية. فقد جاءت سيارة من باب العزيزية في طلب السيدة : من أجل محادثة خاصة مع القائد. محادثة! لم يكن لذلك بالطبع أي معنى. ولكنني سرعان ما فهمت. كان من الأفضل نسيان البرنامج التربوي. وقد تلقت المرأة في الغد حقيبة تضم 500.000 دولار نقدا. وعقدا ضخما من الذهب والألماس.

وفي نوفمبر 2010 تاريخ انعقاد قمة إفريقيا والاتحاد الأوروبي بطرابلس. وكان قسم من مصلحة التشریفات قد كلف باتخاذ ما يلزم لاستقبال عقيلات رؤساء الدول. وتنظيم مختلف الأنشطة التي من شأنها أن تروق لهن وكان ملف صغير قد أعد بشأن كل واحدة منهن. متضمنا صورتها وسيرة ذاتية لها. وعُيِّنَتْ مرافقة خاصة لخدمة كل سيدة ترافقها في جميع تنقلاتها. ويوم وصولهن تقدمت مبروكة الشريف إلى مكتب مدير المطار حيث كانت قد جمعت الملفات. وفحصت صور الضيفات. وتوقفت عند إحداها. كانت صاحبة الصورة تتميز بشعر كثيف مذهب. وقالت لي : «صوري لي نسخة من ملفها... للقائد».

مر اليوم الأول وفق ما هو مبرمج له. وقد استقر كل وفد في مقر إقامته. وفي الغد تلقيت مكالمة من مبروكة وهي تقول لي: «تعالى معي لتوزيع الهدايا». استقبلت معها السيارة التي أخذت تدور على مختلف الفنادق والإقامات الفاخرة : حيث قد استقرت مختلف الوفود. هنا اكتشفت موظفة المراسم : وهي مذهولة فخامة الهدايا. أكثر من اكتشافها لبعض الزوجات : «كنت أعتقد أنني سبق أن رأيت أشياء كثيرة و لكن هذه... لا أكاد أصدق بصري!». ما كنت أتصور وجود مثل هذا النوع من القلائد الفاخرة؟. لكن مبروكة ردت بلهجة ملغزة : «ماذا لو رأيت ما اشتريناه للمرأة صاحبة الصورة...». وبالفعل. عندما قدمت علبة الحلبي لعقيلة رئيس الدولة الإفريقية هدد : المعروفة بذوقها الرفيع وأناقيتها الصارخة حملق الجميع بأعينهم. فقد كان عقد الألباس مذهلا : «لم أكن أعرف أن هذا يمكن أن

يوجد. إنه.... مثل عقد من الخيال». همست مبروكة، «القائد يود رؤيتك». وافقت المرأة على الفور. وأقيمت مأدبة عشاء رسمية كبرى ليلا بفندق ريكسوس : وهو من أكبر فنادق طرابلس، كان القذافي يتصدر المائدة التي كانت في شكل مستطيل ناقص الضلع. وقد أحاط به رؤساء الدول. وكانت طاوولات دائرية ثلاث تضم النساء. وعلى سبيل الصدفة ! كانت مبروكة قد جلست بجانب الزوجة المتألقة. وبعد العشاء بينما كان الجميع ينهض. أمسكت بها من يدها وتصرّفت حتى تكون في طريق القائد الذي توقف بالطبع وحبها بكثير من الإطراء، وعند الساعة الثانية ليلا كانت مبروكة تتصل بموظفة التشريفات، وتسألها :

- في أية ساعة تطلع طائرة هذه المرأة ؟

- على الساعة العاشرة.

- سأرسل لك سيارة. تدبري أمرك حتى تكون على الساعة التاسعة بباب العزيزية .

- هذا ممّا لا سبيل إليه. عليّ أن أدير سفرات جميع الوفود غدا صباحا، عندي بالفعل مشاغل أخرى تنتظرني.

- لا بأس. سأتكفل أنا نفسي بالموضوع. ولكن اعلمي عليّ تأخير الطائرة.

وعلى الساعة العاشرة كان الزوج ينتظر زوجته في قاعة استقبال المطار. وعلى الساعة الحادية عشرة، كانت لم تحضر بعد. ولا حضرت عند منتصف النهار. كان إحساس موظفي التشريفات وإحساس الوفد بالحرّج ظاهرا للعيان.

وصلت الزوجة على الساعة الواحدة والنصف مرحلة مبتسمة وسحاب تنورتها ممزق من جهة الخاصرة.

في مناسبة أخرى أقامت صفية زوجة الدكتاتور مأدبة غداء كبرى لزوجات الرؤساء. في مطعم دائري فاخر يقع في الطابق الخامس والعشرين من برج طرابلس. الذي يطل على البحر بكامله. ونحو منتصف الليل، وقد انتهت الجلسة، غادر موكب السيارات المكان؛ لاصطحاب كل سيدة إلى مقر إقامتها. ولكن إحدى السيارات انفصلت فجأة عن الموكب. وقد أعطيت أوامر لساقيها بالتوجه في سرية نحو باب العزيزية.

لم يكن أحد في الفندق قد أعلم بالأمر. وكان الوفد المرافق للسيدة في حالة انفعال وتوتر. وكاد مدير المراسم التابع للوفد أن يصاب بسكتة دماغية. وكان يصيح في المنظمين الليبيين : «إنها فضيحة». وهو لا يتوقف عن السؤال : «أين السيدة الرئيسة ؟ كيف تستطيعون إضاعة زوجة رئيس دولة في الليل ؟» حاولوا طمأنته بالقول : إن الأمن مستتب بطرابلس ولا يعدو الأمر أن يكون ظرفاً طارئاً. ولكنه كان فزعاً والهاتف بيده لا بدري من يعلم بالحادثة وقد جزع جزعاً شديداً. وفضل موظفو التشريفات الليبيون التواري عن الأنظار لافتقارهم إلى الحجج. كانوا يشعرون بالخجل أمام هذه الوضعية. ولكنهم على الأقل لم يكونوا قلقين بشأن المكان الذي كانت توجد فيه الزوجة. وعلى كل حال فقد عادت على الساعة الثالثة والنصف صباحاً.

حكايات أخرى عديدة رويت لي بالتفصيل تخص
 قرينات رؤساء دول. ولكن أيضا وزيرات من بلدان أجنبية.
 وسفيرات. ورئيسات وفود. وحتى إحدى بنات ملك العربية
 السعودية: الملك عبد الله. كان القذافي مستعدا لكل شيء
 حتى يحصل على هذه الأخيرة. إنه الانتقام الأكبر بعد نزاع
 خطير مع أبيها الذي كان إذاك وليا لعهد المملكة. كل
 الإمكانيات كانت قد وضعت تحت تصرف وسيطة لبنانية
 حتى تأتيه بالفتاة. ولكن عندما تعذر عليها - اللبنانية -
 الوصول إليها. لجأت إلى إقناع فتاة مغربية : عاشت في
 العربية السعودية. بأن تنحل شخصية الأميرة. والتي تلقت
 مقابل لقاء يتيم مع القذافي، مبلغا معتبرا من المال. أي إنه
 لفروره قد غر به.

أحيانا كنت أحس في النظرة المتوهجة لمحدثتي. وكثيرين
 غيرها. الإحساس نفسه بالضيق الذي كنت أجده في البداية
 عند ثريا : ولسان حالها يقول : هل ستصدقني؟ هل تستطيع
 أن تصدقني؟ فكل هذا خارج عن نطاق العقل. أو التعقل.
 كنت أسجل المعلومات دون تعليق. أطلب من وقت لآخر
 بعض التوضيحات. أو التواريخ. وكانت تقدم لي ذلك. وهي
 تترجاني أن لا أذكر الأسماء. معظم الحكايات ستأكد على
 كل حال عندي. بعد ذلك. عن طريق شخصين آخرين.
 وهما مترجمان يعملان في المصلحة نفسها. وعناصر من
 السلطة الحالية.

وأخيرا نجد أن الطرائد الأكثر جذبا للقذافي. هي تلك
 المحرمة عليه فيما يفترض. فهو يشعر بأنه يملك الحق في
 كل شيء وكل شخص : عشيقات وزوجات أولاده وأبناء

عمومته. والإشاعات في هذا الشأن لا حصر لها. أحد زعماء الثوار أكد لي رصده شخصيًا اعتراف زوجة أحد أبنائه، وهي الآن بالخارج، والتي توضح : «إنها تشعر بالغبان» من الأخلاق «المنحطة» لهذه العائلة، وتعتزف بأنها كادت تستسلم مرارا لمطالب العقيد القذافي الضاغطة جدًا للنوم معها.

في هذا السياق أعلنت الصفحة الأولى من صحيفة ليبيا الجديدة بتاريخ 28 فبراير 2012 عن حوار لافت، مع أحد أبناء العمومة المقربين جدًا للقذافي. ففي بلد كانت الصحافة فيه مكتمة على الدوام، وحيث لا زال الحديث في مسائل الجنس من «التابوهات» الكبيرة، كان هذا المثال على درجة من الإثارة. وفيه يندد ابن عم القذافي في حوار معه بالسجن، بالاغتصاب الوحشي الذي تعرضت له زوجته من قبل العقيد. «الاغتصاب، الذي تعقده رجل لا دين له ولا ضمير..... لا شيء إلا لاستعمال المرأة من أجل «إذلال» زوجها. اغتصاب يرتكب مرارا وتكرارا. فيما يقول، بينما كان هو نفسه قد أبعد من منزله لمهمات عسكرية».

وهو الاغتصاب الذي قاد زوجته : «حبه الكبير»، إلى الإسراع في قطع كل علاقة بعشيرة القذافي، وطلب الطلاق على الفور. والقبول على عجل بمنصب في الخارج من أجل أن تنقذ نفسها، ومن أجل أن تحمي ابنتها لأنها لم تكن ترغب في أن «تلدغ العائلة من الجحر مرتين». لقد كانت المفردات عاطفية واللهجة حزينة، بصورة مدهشة، بالنسبة إلى رجل معروف بنزواته من كل نوع وبشره من

القائد. يشرح في المقال عما فعل العقيد بزوجته: «كان يأكلها مثل طعام ساخن. حتى كرهت أنها امرأة».

انطلقت. إذن. بسرعة إلى سجن الهدى بمصراته. لقد كانت التهمة على غاية من الخطورة، ولأول مرة. فيما أعلم. يجازف رجل من «العائلة». نجحت زوجته السابقة. في نحت مسيرة في الدبلوماسية الليبية بالأمم المتحدة، وظهرت بمظهر المدافع العنيد عن العقيد. بالمخاطرة بنفسه في حقل مليء بالألغام كهذا. ففي سنوات سابقة. كانت غضبة ابن عم القذافي آخر ضد العقيد. وللأسباب نفسها. قد أدى إلى إعدامه على الملا. إعداماً عسفياً مربعاً. أدخلوني إلى غرفته الموجودة في قسم التمريض بالسجن. كانت عبارة عن مستودع للحفائب. وعلب كرتون. وكتب. وأدوية. ومقعد دوار في زاوية. ابن عم القذافي كان يستقبل زوارد وهو على سرير. ملفوفاً في جلابة بنية. وممتدداً على جنبه. تسند يد ممتلئة رأسه المتزّنر بعمامة ذات شراية زرقاء. واليد الأخرى مغموسة في صحن من التمر والفواكه الجافة الأخرى. ذقنه غير مخلوقة. العين مخاتلة. كان يذكرني بياشا في لوحة شرقية. منهك ومنهار. وكان يبدو. وهو المولود سنة 1948 أكبر من عمره بكثير. ويعاني من شلل جزئي. ولكنه لا يبدو متضايقاً من وضعه. وهو يؤكد على الاحترام الذي كان يعامل به. ويسعده أن له متسعاً من الوقت. هكذا. لكتابة رواية ثالثة.

بدأت اللقاء. إذن. بالحوار الذي جرى مع الصحيفة الليبية. وأنا أبدي ابتهاجاً بأن رجلاً من السراي. مثله. يساهم في جلاء الحقيقة حول جرائم الدكتاتور الجنسية.

لكنه أحسّ بالضيق....حكّ حنجرته. وحرك رأسه ليزيح
شراية مزعجة أفلتت من العمامة. وألقى نظرة تائهة قائلاً:
«إنه سوء فهم. أنا لم أقل هذا».

فقلت : «عفوا» ؟

قال : «أنا لم أتحدث أبدا عن جريمة جنسية».

- قد لا تكون عبارتك ولكنك وصفت مناورات
القذافي لاستبعادك في الوقت الذي كان يرغب فيه زوجته
على.....

- زوجتي السابقة كانت وفية لي على الدوام. عرضي
نقي.

- ليست هي من كان موضع اتهام. إنه القذافي الذي
تتهمة به.....

- ترهات ! سأقاضي الصحيفة التي اختلقت هذه
الأشياء. لا أحب أن يذكرني التاريخ في علاقة بهذا الملف.
ولا يجوز أن ينتقد بعضنا بعضا وسط العائلة الواحدة.

ظل جامدا. يستحيل إثارة الموضوع مجددا. فظللنا
حينئذ ندور حول الموضوع. لا مجال عنده لتجريم ابن
عمه : «نحن لا نتبش قبور الموتى. الله وحده يحاسبهم».
ولكنه كان منشغلا جدا بأن ينفي عن نفسه كل تواطؤ،
كان عليه أن ينأى بنفسه. «كمثقف ليس بإمكانني أن أؤيد
بعض التصرفات». ثم بعد ذلك بقليل قال : «كبدوي أرى
أنه كان يهزأ بقيمتنا». وأخيرا : «كعسكري. ساهمت
في تشييد ثكنة الساعدي سنة 1979 حيث ضريح والدي»

كنت أشعر بالرعب من أن يفسد المكان. وهو يأتي بكل هؤلاء النساء. كان ذلك يفرقني».

في اليوم التالي لهذا اللقاء أسرعت إلى مقر الصحيفة التي نشرت حديثه عن اغتصاب القذاقي لزوجته. واكتشفت أن الرجل قد اتصل بهم بالفعل من سجنه منزعجا كل الانزعاج من ردود فعل عائلته المبالغ فيها حول المقال. ولكن رئيس التحرير تمسك بكل ما جاء فيه مؤكدا أنه لم يكن يفعل غير تثبيت ما كانت طرابلس تعرفه منذ مدة طويلة. بقية الحوار : (المتعلقة بموضوع آخر مختلف تماما). نشرت على كل حال في عدد آخر من الصحيفة مع صورة ابن عم القذاقي وسط الصفحة يتكلم في آلة تسجيل محاوره. نعم. كانت اعترافات ابن العم بكاملها مسجلة.

منصور ضو

الصور الوحيدة المتوفرة له تعود إلى يوم إلقاء القبض عليه. يوم 20 أكتوبر 2011. في نفس الوقت الذي قبض فيه على القذافي. فلمّ قصير صوّره بعض الثوار بهاتف محمول في جو من الفوضى. يظهر فيه منصور وهو صاحب مرهق. أشعث. كث شعر الرأس واللحية. وجرح نحت عينه اليمنى تسبب له فيه لا شك شخايا مفرقات. هروبه المحموم مع القذافي. وقد كان رئيس جهاز أمنه. انتهى بمجزرة عند أبواب الصحراء. كانت صور مرعبة لرجل مهزوم.

كان قد أصر على البقاء إلى جانب الدكتاتور إلى النهاية. وغادر معه باب العزيزية على عجل عندما سيطر الثوار على طرابلس. وتوجهوا في البداية إلى بني وليد. حيث ودع القذافي عائلته الكبيرة. قبل أن يعاود الانجاء غربا نحو سرت. ليختبئ في منازل عادية. مفتقدا بسرعة لكل

الوسائل. فلا كهرباء ولا أكل في المدينة. وقد ضيق الثوار عليه الحصار. لذلك قام بمحاولته الأخيرة للفرار. التي أوقفها فاذفات النانو عند السحر. وبشكل قاطع. كان منصور أحد القلائل الذين بقوا على قيد الحياة من بين أولئك الذين شكلوا مرتع الأوفياء الأخير. وهو من بين أهم الذين اعتقلتهم السلطة الجديدة. إلى جانب سيف الإسلام الفذافي. كان اسمه يحتزل كل الرعب الذي كان يرعاه النظام طيلة عقود. وهو المسؤول عن الأعمال البربرية المرتكبة في بلاده في المدة الأخيرة - من اغتصاب. وتعذيب. وإعدام - بهدف قمع الثورة. ليبيا بأسرها تترقب أن يقدم لها كشفا بالحساب. ولكن منصور ضو لا يتكلم. أو على الأقل كان هذا ما حذرني منه إبراهيم بيت المال. عضو المجلس العسكري بمصراته. ومسؤول السجناء العسكريين. الذي سمح لي بمقابلة السجين.

عندما اصططحبه الحارس. يوم السبت 10 مارس إلى قاعة الجلسات الكبرى بمبنى الجيش الوطني بمصراته. كان يبدو بالأحرى. مرتاحا. كمن كان يقصد نزهة - ستره رياضية كاكبي. وقلنسوة من الصوف تفحلي كامل رأسه - وقد هذب لحيته: التي غزاها الشيب. بينما كان يرسم ابتسامة باهتة على شفثيه. وقد قبل مبدنيا. أن أحاوره دون أن يعرف الموضوع. لعله كان يرى في ذلك تسلية ما في أيام عزله الطويلة. «لقد أقمْتُ أربعة مرات في فرنسا - بادرني بالحديث - كانت أيام ممتعة». طبيب. ولكننا لسنا هنا لتبادل الكلام المعسول. أجبته أنني أقوم بتحقيق. حول موضوع محرم حسبما يشاع. وهو الجرائم

الجنسية للعقيد القذافي. وكنت أودّ أن يخبرني بما يعرفه بهذا الصدد. «لا شيء». قال لي. أنا فرد من عائلته. وواجبي احترامه. وبالتالي لا سبيل إلى طرح هذا الموضوع. كنت أنأى بنفسني عن النظر إلى تلك الوجهة. فإن ترك مسافة كافية كان هو السبيل الأسلم للمحافظة على احترام نفسي. كنت أحمي نفسي».

- كنت تعلم على الأقل أن القذافي كان يستعمل العنف الجنسي ضد مئات من الشبان والفتيات ؟

- أنا لا أنفي ولا أؤكد. لكل امرئ حياته الخاصة.

- حياة خاصة ؟ هل يمكن الحديث عن حياة خاصة : إذا كانت العلاقات الجنسية تتم تحت الإكراه، والذي ما كان ليتم لولا تواطؤ أطراف متعددة، ومساهمة مصالح الدولة ؟

- بعض الناس كان لديهم علم بذلك. أما أنا فلا.

- هل كنت تعلم أن شابات صغيرات كن محتجزات في فيو مقر إقامته ؟

- أقسم أنني لم أنزل مرة واحدة إلى الطابق الأرضي. أنا ضابط. وأنتهي إلى أعلى الرتب العسكرية في الجيش. لقد ناقشت رسالة دكتوراه في موسكو حول القيادة العسكرية. كان الجميع يرتعد خوفاً عندما أزور الثكنات. لقد عرفت دائماً كيف أفرض احتراماً : خصوصاً من خلال ابتعادي عن كل ما تتحدثين عنه.

«كل ذلك» ؟ ما الذي كان يقصده ؟ بدا فجأة غير مرتاح. لا شك أنه كان ينتظر أن أسأله عن قضايا الحرب،

عن المرتزقة. ولكن الأكيد ليس عن النساء. بات الطريق وعرا. وأخذ ينحو أكثر للحذر.

- كيف كان ينظر قائد عسكري كبير مثلك. إلى فائده وهو يصل محاطا بحرسه النسائي لمقابلة رؤساء الدول الأجانب. وأغلبهن لسن أكثر من عشيقات. ويغتنقن لأي تجربة عسكرية ؟

- لم أكن مسؤولاً عن تنقلاته. وكنت أرفض مشاركته فيها. وخلال الفترة القصيرة التي توليت فيها قيادة كتيبة حماية القائد. أقسم لكم إن فتيات «الجهاز الخاص» ذاك. لم يكن موجودات.

- ألم تكن تشعر بالإهانة أمام تلك المهزلة ؟

- ما الذي كان بوسعي قوله ؟ لم أكن احتكر التصرف في الجيش الليبي. وحتى إن كنت منزعجا لم يكن بوسعي فعل أي شيء. وعلى أية حال. فإن النساء لم يُخلقن للخدمة العسكرية. هذا منافي للطبيعة. ولو سألوني رأيي لما كانت هناك أكاديمية عسكرية نسائية في ليبيا على الإطلاق.

- أكان القذافي يؤمن بتلك الأكاديمية حقاً عندما أنشأها عام 1979 ؟

- ربما. ولكن الأكيد أن هذه الأكاديمية هي التي أعطته فكرة استخدام النساء بشكل مختلف.

ضحك ونظر باتجاه قائد السجن. الذي انضم إلينا. لعله يظفر لديه ببعض من تواطأ ذكوري. من نوع : أنت تعلم ما المقصود بـ «استخدام بشكل مختلف». عندها

سألته عما إذا كان يعرف النساء الحارسات اللاتي حدثتني عنهن ثرياً، وخصوصاً سالمة ميلاد، ذات البنية الضخمة، والتي كانت تتمشق السدس بشكل دائم، وتسهر على أمن القائد، وترافقه مثل ظله في كل تنقلاته، تكوي ملابسه و...
تجذب الخادومات الصغيرات ؟

لم يتردد في الرد بأنه بالتأكيد يعرفها. بل إنه اعترف ببعض الخبرة التي حصلت لها في الأكاديمية العسكرية. ولكنه لم يستسغ المكانة الخاصة التي كانت لها عند القذافي: «أتعلمين أن ذلك كان يصدمني. بل إنني كنت محرجاً إزاء تلك العلاقة الحميمة. ما الذي تظنينه بي ؟ بل وصل بي الأمر إلى الصراخ رفضاً لهذه الامتيازات. ولم أكن أسمح لها عندما كانت تحت إمرتي بارتكاب أقل خطأ». ذات يوم كنا في مهمة في الكفرة جنوب البلاد، وقد وبختها على جهاز الاتصال الداخلي. رصد القذافي المكالمة وتدخل غاضباً : «لا تتحدث معها إطلاقاً بهذه الطريقة!». سترى ذات يوم ساعينها جنرالا وستكون رتبتهما أعلى منك!.. في تلك اللحظة شعرت بالدم يغلي في شراييني، وأجبتة : «حتى لو عينتها جنرالا، فستبقى في نظري مجرد سالمة ميلاد». ولكن الذي حصل أن كل أجهزة شبكة الاتصالات التي كانت في حينها مربوطة على الموجة التي كنا نتحدث عليها، سمعت هذا الحوار. لقد شعر القذافي بالإهانة، كيف يمكن التجراً على التحدث بهذه الطريقة مع قائد الجيش؟! فأرسل طائرة خاصة لإحضاري إلى طرابلس وسجنني ثلاثين يوماً. ثم التفت إلي وسألني : «ما رأيك؟ هل هذا يظهر لك أن لدي قِيماً وأخلاقاً وخطوطاً حمراء؟».

المتواطؤون، والموقعون بالطرائد

وعودة إلى طرابلس : هذه المدينة العجائبية، العصرية، والعتيقة في آن. والتي تبدو كعروس محتارة، أضاعت طريقها. وقد شُود محياها زخم من معمار منفلت، ومرور مرتبك، حتى أنها صارت تختنق بمن يخرقها، ولكن أليس لأن سحرها مخفي، تغلق عليه أهدابها؟ نعم، هذا هو الأمر دون أدنى شك !

ففي المدينة القديمة، التي تلفها أسوار محصنة كجوهرة محمية، نجد الأسواق التراثية بمخزونها الخرافي، والأبواب الخشبية الخلابة؛ الرائعة النقش لمنازل المدينة البيضاء، والتي تعود إلى العصر العثماني، والمساجد الاستثنائية الهندسة، والقصور السرية.. أما في وسط طرابلس فثمة الكثير من المعمار الإيطالي الذي واكب فترة الاحتلال الإيطالي للبلد. كما تنهض ساحة الشهداء رمزا عملاقا لمكان اللقاء

والمرح ولعب الاطفال أمام البحر. ولكن في هذا الشتاء القارص. لعام 2012. لم يكن همي سحر هذه العاصمة العسية. المتكاسلة إلى ساحل البحر المتوسط. دون أن نعبر اهتماما. حيث اكتفيت بأخذ تاكسي منهالكة. تحلر زحاجها الأمامي بعدد من الثقوب : تركتها عبارات نارية أثناء الحرب. بينما لم يعد ممكنا فتح بابها. إلا بمساعدة السائق من الداخل. هذا الذي لم يكن يكثر ليذا الحال الذي آلت إليه سيارته.

وفي اندفاع محنون غاص بنا وسط الازدحام. دون أن يلتفت لألويات المرور ولا لقواعد. ودون أن يتوقف عند الإشارات الضونية. وبينما أستمري يردد أناشيد الثورة مع الراديو : لم يقل لي ما إذا كان يعرف مكان العنوان الذي أقصده. واكتفى بأن قال لي يحفزني بيد على الصعود: «بلا بلا».

لكنه ما فتىء يتوقف ليسأل عن طريقه. ويعود أدراجه. وعندما اكتشف - بفرح كبير - أنني فرنسية. أخذ يصرخ وهو يرسم علامة النصر : «شكراً ساركوزي». كنت أبتسم وأرسم مثله إشارة النصر بإصبعي. وأخذ يشرح: أن تدخل «الناو» لدعم الثورة يلزم علينا عرفاناً بالجميل إلى الأبد.

كان الشتاء قاسياً على سكان طرابلس. ومعظم مشاريع البناء الخاصة والعامّة استمرت معطلة. حيث بقيت الرافعات منصوبة في السماء بدون حركة. وكأنها أذيع حزينة تبتهل السماء. كما تضررت العديد من القطاعات

الاقتصادية بشكل كبير، على النحو الذي خرج معه العديد من العاطلين عن العمل إلى الشوارع..... يبحثون عن أي عمل ؛ في انتظار أن تعود الأمور إلى نصابها. كما يماطل الثوار في ترك ثكناتهم، التي قاتلوا في صفوفها. فهم لا زالوا يحنون إلى تلك اللحظات القوية التي صهرتهم، ولا زالت نشوة النصر تعتمر في قلوبهم. مترددين وفق هذا المعنى بشأن أفق مستقبلهم، أو تحديد ما سيقدمون عليه في المدى القريب.

لقد بدأت الأصوات تعلو منددة بغياب شفافية السلطة الجديدة، أي المجلس الوطني الانتقالي، الذي لم يتم الكشف عن كل أعضائه، وأيضاً للتنديد بعدم فعالية الحكومة المؤقتة. وكان يرتفع من وقت لآخر الحديث عن نوايا انفصاليين في الشرق، ونزاعات يقودها أنصار القذافي في الغرب. ولكن في طرابلس، حيث تم هدم صرح باب العزيزية كلياً : تمهيدا لتحويل المكان - ذات يوم - إلى حديقة عامة كبيرة، يبدو أن الوقت قد توقف، وفقدت المدينة البوصلة، وأكثر من النقي بهم كانوا لا يعرفون ما يجب عليهم فعله.

عندما اتصلت ببعضهم، اكون قد حصلت على رقمه من بعض الأصدقاء. كانت ردة الفعل الأولى تعكس ذلك القلق: «من أعطاك اسمي، من أين حصلت على رقمي؟»، «لماذا تتصلين بي؟»، «لا علاقة لي بهذا الموضوع، لا تذكر اسمي على الإطلاق ! لا يحق لك أن تدمري حياتي!». وأحياناً، كان الرعب يأخذ شكل الغضب المرفق بالتهديدات، بطبيعة الحال كنت أتمكن في أغلب الأحيان من طمأنة الشخص،

بعد التشديد على أنني لن أذكر أسمه، وتكرار الوعود بعدم كشف الأسرار. الكثير من المواعيد، التي حصلت عليها بعد جهد جهيد. كانت تُلغى في اللحظة الأخيرة، أو تؤجل دون ذكر أي تفسير. أحد القادة المفترض أن يأخذني لمقابلة شاهد أساسي، اختفى ولم يعد يرد على مكالماتي الهاتفية، وقبل لي إنه نقل إلى مستشفى في طرابلس، ومن ثم إلى تونس، حتى أنهم قالوا مرة لي إنه مات. لكي لا أتصل ثانية. وشاهد آخر سافر فجأة. والثالث مريض. ولكن، ورغم أنني قد تأكدت من صحة كافة المعلومات التي ذكرتها ثريا والفتيات، بشأن عمليات الخطف، والحجز، والاعتصاب، ومسرحة الحارسات الشخصيات للقتافي، وذلك الدفق الدائم من الشبان والشابات : الذين يدفع بهم إلى غرفة القذافي، السادي، المهووس بالجنس. بقي علي أن أفهم كيف كانت تعمل تلك الشبكات التي كانت توفر للقذافي يومياً، حاجته من ذلك «اللحم الطري»، وعلى مدى سنوات وسنوات؟!

ما يمكن أن نجزم بشأنه في هذا الصدد، أن هؤلاء المتواطئين : كانوا منتشرين دون شك في كل مكان، ومن المؤكد أن هناك رجالاً يشاركونه في ذوقه تماماً، ويعرفون أن مدد بها يشتهي، تؤسس للطريقة التي تضمن لهم رضاه، وتسمح لهم بالتالي بالحصول على الامتيازات، وهناك بعض النساء اللاتي مررن بسريره، وأصبحن على وعي بأنهن من خلال تزويد القائد بالفتيات، سيكون بمقدورهن شق طريقهن إلى الثروة : وثمة منهن وزيرات، وشرطيات، ومدرسات، وموظفات مصارف، وكوفيرات، وموظفات

في الضادق. وفي السياحة، والأعمال. ولكن، أفضل هؤلاء المتربصين دون شك هم مجموعة من المقربين من الضادق. ممن كان لهم دور استثنائي في هذا السياق.

من هؤلاء كان هناك شخصان، ما فتىء أسميهما يتردد خلال مختلف المقابلات التي أجريتها وأنا أحضر للكتاب، هما : عبد الله منصور، الرئيس السابق لجهاز المخابرات الداخلية. وهو مقرب جداً من العقيد، وعلي الكيلاني. وهو ضابط سابق في الجيش، وقد عُرف عن كلاهما ولعهما بالشعر، وكتابة كلمات الاغاني. وقد اشتغلا كمدرّاء فنيين ومنتجي أعمال فنية، كما أدارا كلاهما تباعا الإذاعة والتلفزيون الليبي، أكبر أبواب الدعاية للنظام. وكانت علاقاتهما بالوسط الفني تتيح لهما الوصول إلى عشرات الشباب والشابات الأبرياء الذين يطمحون للعمل بعالم الفن والتلفزيون. هكذا كان كل «كاستينج» لتجربة القدرات المهنية، بشكل مناسبة لاقتناص فريسة جديدة من بين هؤلاء تقدم للدكتاتور. وسرعان ما تكشف اللقاءات التي كان يجريانها في الضادق الفاخرة، والتي يتقمصان فيها في العادة أدوار الرجال المحترمين، عن طبيعة دورهما كصائدي طراند للعقيد.

وكانت لهما الاتصالات مع مغنيات وراقصات وفنانات من المنطقة العربية. وكانا يجدان ألف حجة لتوجيه الدعوات لهؤلاء لزيارة الضادق، من بينها تنظيم السهرات والحفلات. وخلافه من التظاهرات الفنية. في إحدى المرات أعجب الضادق بمذبة صغيرة تقدم برامج خاصة بالأطفال على قناة «إم بي سي». فما كان من عبد الله منصور إلا أن

اتصل بإدارة القناة، ووجه الدعوة للمذبةعة إلى ليبيا بحجة أن الحكومة تريد تكريمها على قدراتها الهئية الكبرة. كذلك حاول منصور جذب صحافية لبنانية أيضا لفتت نظر العقيد، فأرسل لها الأموال لإقناعها بالمجيء إلى طرابلس، بعد أن أوهمها بأن شركة إنتاج تلفزيونية لمشاريع فنية (وهمية) بانتظارها.

وغني عن القول إن القذافي كان يرصد أموالا خرافية لمثل هذه الخدمات، والتي كانت توضع تحت تصرف عبد الله منصور، إلى جانب طائرة خاصة، وكان لمنصور شبكة في العديد من الدول العربية، في مصر، ولبنان، والأردن، وتونس، وكانت العمولات كبيرة للغاية، خصوصاً إذا ما أعلن القائد عن ارتياحه للخدمات التي أشبعت رغبته.

في الدول الأفريقية كان العقيد يُشغل شركات مختصة بالخدمات الدبلوماسية، وعددا من الشخصيات المحلية، بهدف تنظيم الحفلات واللقاءات الخاصة : التي كان يحرص على أن ينعم بها خلال زيارته الرسمية إلى تلك الدول، وكان يحرص أن تكون المؤسسات التي تعنى بشؤون المرأة، على رأس تلك اللقاءات، وذلك لصون سمعته كـ«بطل» مدافع عن قضايا المرأة وكان لا يتردد في تغيير بروتوكول الزيارات الرسمية، والدبئية : مثل ما حدث بمناسبة الاحتفال بالمولد النبوي الشريف في تومبوكتو عام 2006، واغاديس عام 2007، وذلك لفرض مثل هذا النوع من الاجتماعات، والتي تشكل له مناسبات للحصول على صديقات «وفيات». وكان لا يتأخر عن توزيع الهدايا والميداليات التي تحمل صورته، بالإضافة إلى القلائد

النفيسة من الذهب والألماس. وعلى هذه الصديقات الجديديات أن ينحولن بدورهن الى شبكة معنية. تنظم له اللقاءات اللاحقة. والني كان يحبها استعراضية وصاخبة. وأن يتربصن خلال المؤتمرات. والأعياد. والاحتفالات. والمهرجانات. وعروض الأزياء وحفلات الزواج بالشابات الصغيرات، ودعوتهن لزيارة ليبيا.

كان الامر بهذه البساطة. فسمعة القذافي في البلدان الأفريقية أنه «غني وكريم. ورائع». كما أن أمر الحقائق الممتلئة بالأموال. التي يحلم بها الجميع، والتي تتكدر في مقر إقامته. صار معروفا. مثل خطاباته المعادية للأميركيين، أو ملابسه الغريبة. وبالتالي كان الجميع يرى أن تكرار الدعوات لزيارة العقيد مسألة جد عادية. ألم يكن يسوق ليبيا على أنها جنة النساء ؟ قال لي شاب ليبي درس في نيجيريا. بهذا الخصوص : انه كان يلتقي أحيانا في المقاهي والملاهي؛ مجموعة فتيات من نيجيريا ومالي. وهن على جناح من الفرح والترقب : لأنهن سيسافرن في اليوم التالي الى طرابلس.

وقال : «هن لا يخفين أنهن ذاهبات لمقابلة العقيد. بل هن يحمدن الله على هذا الحظ. فإن بابا معمر : كما يسمونه. يحب إسعاد الفتيات الشابات. ويدعوهن الى قضاء العطلة في بلده. وهن يسألني : ألا ترى أنه الرجل الأكثر اهتماماً بالنساء. من بين كل رجال العالم!».

حقيقة هذه الرحلات «الاستطلاعية». استرويهما لي فيما بعد «فاطمة» الموريتانية. كان قد ربطني بها صديق تارقي.

ووافقت من طرفها على اللقاء دون أدنى شروط. وهو الأمر الذي كان له قيمة خاصة بعد سلسلة الرفض التي واجهت مواعيدي الأخرى. هكذا التقيت بها في بهو فندق كورانتيا الفخم. رشيقة، تنشي الهوينا، شامخة الرأس في اعتزاز. وهي تلقي بابتسامة عريضة ومرحبة. وقد لاحظت على الفور، من خلال تلويحها بالسلام للعاملين بالفندق، أنها تعرف المكان جيدا.

كانت عاصفة من البرد القارص قد اجتاحت طرابلس في تلك الايام، مع ذلك كانت فاطمة، مكتفية بوشاح موريتاني خفيف، وجميل، بيضاء البشرة، في السادس والثلاثين من عمرها، عرفت بنفسها، إنها موريتانية من النيجر، وإنها تعيش منذ عشرين شهرا في طرابلس بفضل معمر القذافي. وعندما سألتها كيف وصلت إليه؟ اجابني وهي تضحك: «المسألة في غاية البساطة. كانت عندي صديقة نيجيرية متزوجة من تارقي. كان على علاقة بمبروكة، والتي افترحت عليّ عام 2003 زيارة طرابلس مع أربع من صديقاتي. العرض كان مغريا: بطاقة طائرة، إقامة في فندق خمس نجوم، السياحة في ليبيا على نفقة الحكومة، ومصرف جيب.. من يرفض مثل هذا العرض؟ ماذا كنت ستفعلين لو كنت مكاني؟ بالتأكيد كنت ستقولين نعم من دون تردد، وبسعادة كبيرة؟».

أسعدني كثيرا أنها أجابت عن سؤالها بنفسها. لأن «النعم» التي توقعتها من طرفي. لم تكن بالضرورة أكيدة. وواصلت كلامها: «هذه الدعوة بالنسبة إلي كانت هدية من السماء. هكذا وصلت الى مطار طرابلس مع صديقتي. كان

جلال (الشاب المغمرم بثريا ضمن فريق الخدمات الخاصة) بانتظارنا. وقادنا الى فندق المهياري 5 - نجوم - الذي كان يديره لفترة نوري المسماري. وقد سلم كل واحدة منا ظرفا يحتوي على 500 دينار (300 يورو) لكي نذهب ونتسوق. قبل أن يبدأ برنامج الزيارة السياحي. وبعد عدة أيام طلب منا أن نرتدي ملابس أنيقة لأننا سنذهب لزيارة بابا معمر. وقد جاءت بالفعل سيارة باب العزيزية. وأقلتنا. تتبعها سيارة حراسات كما تشدد فاطمة : «وهذا كان يشير الى أننا كنا ضيفات مهمات».

قادتنا مبروكة الى صالون في منزل القذافي. الذي وصل وهو يرتدي ملابس رياضية حمراء. كان بسيطاً. اهتم بكل واحدة منا سأل عن أهلها. عن اسمها عن قبيلتها. عن لغتها وعن وسائل تسليتها ؟. «هل تحبون ليبيا. أه أتمنى لو أن العالم بأسره يعشق ليبيا». قال العقيد. كان في غاية اللطف والمرح. وفي لحظة من اللحظات التفت الى مبروكة وقال لها سيكون مفيداً لو أن فاطمة تعمل معنا. لأنني لاحظت انها تتكلم العربية. والتارقية. والسواحلية والفرنسية.... وهذه المسألة مهمة بالنسبة لنا.. لقد بدت لي مبروكة منزعجة، وغبورة. ولكنها قالت : «نعم». ثم عدنا الى الفندق ونحن نكاد نطير من الفرح : لأن بابا معمر اهتم بكل واحدة منا. وقد استمرت تلك العطلة ثلاثة أسابيع. كان جلال والسائق خلالها تحت تصرف المجموعة طوال الوقت. قبل أن يغادرن بحقائب مثقلة بالهدايا..

تؤكد فاطمة أنها لم تر القذافي ثانية خلال هذه الزيارة. ولكنها سرعان ما عادت الى طرابلس مع مجموعة أخرى

من الفتيات. بينهن فتاة من مالي وصفتها بـ «القبيلة»؛ والتي كانت على درجة من الفتنة والعجربة والدلال. كان قد لاحظها نوري المسماري من قبل : أثناء أحد رحلاته الأفريقية. وأرسل لها طائرة خاصة لتأتي بها إلى العقيد. وأضافت فاطمة : «كانت هذه الفتاة المالية ترتدي ملابس جد ضيقة» و«تي شرت» من دون كم يلتصق بجسمها. وكان ذلك يتسبب لنا في كثير من المشاكل في شوارع طرابلس. لكن القذافي كان يحب هذا : كان مجنوناً بها وكان يستدعيها باستمرار. وعندما كنت انتظر في الصالون مع مبروكة في الوقت الذي كانت معه في غرفته. خرج وقال لمبروكة «اهتمي جيداً بضيقاتي». وكان هذا يعني أعطيهن الهدايا والأموال. وهي تؤكد في هذا الصدد إن جلال كان يصدق عليهن بالهدايا : ساعات رادو. تبسو... وغيرها من الماركات. إضافة إلى الأساور والأقراط الذهبية. وعقود الذهب. مع صورة القذافي محاطة بالماس. وتضيف : «وعند مغادرتنا: كانت توزع علينا ظروف بها مكافآت مالية. تتراوح بين ألفين إلى عشرين ألف دولار. حسب الضيقات اللاتي كنت أرافقهن إلى طرابلس».

فاطمة هنا لا تقول كل شيء فيما يتعلق ومهمتها بالتحديد. وكانت تتهرب من الإجابة عن عدد من الأسئلة بإطلاق ضحكة رنانة. وكانت تقول : «نحن الموريتانيات موهوبات بالعلاقات العامة والتجارة». وبالنسبة إلى هذا التعريف يحمل أن تكون موهوبة «كمحظية». أو كصائدة فرائس ؟

ويبدو أنها قد ساقفت الى القائد مجموعات كبيرة من الفتيات من عدة دول. وآخر مرة اصطحبت 17 فتاة من نواكشوط للمشاركة في الاحتفالات بمناسبة التولد النبوي. وبانت علاقتها بباب العزيزية معروفة من الجميع. بحيث أصبحت تلعب دور الوسيط بين الوزراء والسفراء ورجال الأعمال الأفارقة. وبين باب العزيزية. وهي تقول بهذا الخصوص : «مبروكة كانت تهتم بنساء وبنات الرؤساء الأفارقة اللاتي يردن رؤية القذافي، أما أنا فكان حقل نشاطي أوسع بكثير». وتقول من ناحية أخرى: «إن كرم العقيد على درجة من الاتساع حتى إنه يطال الجميع. وهو بدون حدود. وأن القنادق الطرابلسية الكبرى من المهاري لكورنتيا دائما مليئة بالنساء. من كل مكان. ومن كل الاعراق، التي تنتظر موعدا مع العقيد». على أنه من الواضح انها أصبحت أكثر من ذلك، مقربة جدا من العقيد، فلقد رافقته الى سرت وبنغازي عبر الصحراء. وكانت تحضر الاحتفالات بالعيد الوطني. وعلى علاقة بزوجته وابنتيه عائشة وهناء: «التي كانت تقف دائما خلف شقيقتها الكبرى» : تشرح فاطمة. لقد كان لها مع ليبيا «ذكريات جميلة. وأعمال مزدهرة». حسب تعبيرها.

ويبقى سائقو باب العزيزية في طليعة من يشهد على هذه الزيارات النسائية. وأحد هؤلاء السائقين. واسمه حسين، كان يعمل في جهاز البروتوكول، أكد لي ان أساس عمله تقريبا كان أن يقود الفتيات من فندق المهاري الى... المطار. وقال : «كن يأتيين من كل البلدان والاتجاهات. من مدن ليبيا، ومن لبنان، والعراق، ودول خليجية، ومن

التحقيق

البوسنة، وصربيا، وبلجيكا، واسبانيا، وإيطاليا، وفرنسا وأوكرانيا..... كانت أعمارهن لا تزيد على العشرين عاما. وكن في غاية الجمال حتى من دون ماكياج. وكان بينهن قاسم مشترك، وهو : الشعر الطويل».

ويُخصص لكل الضيفات شخصا من البروتوكول : يكون مكلفا باستقبالهن وقيادتهن الى الفندق. حيث يقضين عدة ساعات أو أيام قبل أن يأتي حسين لينقلهن الى باب العزيزية. وغالبا حوالي الساعة الواحدة صباحا وكان يبقى في السيارة في المرآب حتى الخامسة صباحا. ليعيد الفتاة الى الفندق. بينما سيارة تابعة للحرس تسير خلف سيارته.

يشرح في هذا الخصوص : «بعضهن كانت تخرج من باب العزيزية سعيدات، البعض الآخر منهن يخرجن حزينات. بعضهن كن يغادرن في اليوم التالي. وبعضهن يعدن إليه عدة ليال على التوالي».

جميعهن يصلن الى طرابلس مع حقائب صغيرة، وغالبيتهم يغادرن مع عدة حقائب كبيرة. وكان حسين عبر مرآة السيارة الداخلية يكتشف رزم الدولارات. «أقسم لك على رأس ابني أن إحداهن أخرجت من حقيبة سامسونيات مملئة بأوراق مائة الدولار. ورقة مائة دولار لفتها كخرطوم وتنشفت الكوكابين، مائة دولار أكثر من راتبي الشهري». ويقول : «رافقت مرة مطربة لبنانية مشهورة، أمضت الليلة لدى الفذافي، في اليوم التالي تسلمت الأمر بأن أسحب لها مليون يورو من المصرف، في أوراق نقدية من فئة الخمسمائة

يورو. في هذا اليوم في الواقع قررت ترك وظيفتي، وقد أصابني الغثيان من ذلك الدور الذي جعلوني أعبه. وكنت قبل ذلك أعتقد انها وظيفة محترمة».

سائق آخر زميل لحسين : كان مكلفا بالاهتمام بالبنات اللاتي يتزلن في فندق كورانتيا. أكد لي أن الممرضة الأوكرانية كانت تأخذ عينة من دمه في الفندق أمام الجميع. لكي توهم الفتيات اللاتي تم اختيارهن لزيارة باب العزيزية : أن هذا التدبير الغريب ينطبق على الجميع من دون استثناء.

هوس القذافي بالجنس كان بشير في بعض الأحيان غضب رجال الأمن الأجانب. فقد روى أحد وزراء خارجية السنغال كيف أنه رفض بشدة بقاء المرأة الوحيدة التي كانت ضمن وفد رسمي زار ليبيا. في طرابلس : تلبية لطلب القائد بعد سفر بقية أعضاء الوفد. وزير آخر طلب تفسيراً حول الأسباب التي تدفع بالسلطات الليبية لإخضاع الفتيات الماليات المدعوات الى ليبيا لفحوص طبية ضد الإيدز. وزير آخر قال إنه رصد مجموعة من الصور كان مبعوثو القذافي يعرضونها على الناس بحثاً عن فتيات لفتن نظر العقيد خلال زيارته للنيجر. ووزير آخر فتح تحقيقاً، سرعان ما أغلقه. بعد أن عرف أن فتيات مدعوات من قبل القذافي قد صودرت جوازات سفرهن واحتجزن في فندق المهاري.

على إن تفاني المسماري في توفير أجمل الفتيات للقائد أدى ذات يوم الى فضيحة، وإلى أزمة دبلوماسية كبيرة بين ليبيا والسنغال. حيث كانت المئات من عارضات الأزياء الأفريقيات مدعوات للمشاركة في الاحتفال بالذكرى الثانية

والثلاثين لوصول العقيد القذافي الى السلطة، في الفاتح من سبتمبر عام 2001.

وكان مطلوب من السفارات الليبية في الخارج أن تساهم في التحضير لهذه التظاهرة، والتي خصصت لها إمكانات طائلة. وأن تنشط في وسط بنات الموضة أو فتيات المرافقة أي (عاهرات) اللوكس. لاختيار أجمل الجميلات.

في السنغال فضلت السفارة تكليف شقيقتين توأمين هما نانسي ولبلى كومباك : ابنتا ممثل سنغالي. سبق وإن اشتغلن مع أجهزة القذافي لهذه المهمة. هكذا انتهى بهما الجهد إلى تحديد يوم 28 أغسطس لقراءة مائة فتاة سنغالية للقاء في المطار، وذلك لتمضية أسبوع في طرابلس. في اليوم المحدد عند الساعة السابعة صباحاً كن جميعهن في المطار. طويلات نحيفات رائعات الجمال ملوّهن الأمل. كان القائم بالأعمال في السفارة الليبية في استقباليهن ورهن خدمتهن، وحتى صعودهن على متن طائرة بوينغ 727 استأجرتها الدولة الليبية من مالطا لهذه الرحلة. ولكن، وقبل أن يتم السماح للطائرة بالإقلاع، فضلت شرطة المطار ورجال الأمن إبلاغ الحكومة السنغالية بالأمر. وقد ارتابوا في طبيعة الرحلة. حيث لم يكن هناك بطاقات صعود ولا تأشيرات سفر. ولا حتى جوازات سفر للبعض من الركبات، بل إن بعضهم كان دون سن الرشد. وقد أصدرت الحكومة السنغالية على الفور أمراً بحجز الطائرة على الأرض، وقامت بالتنديد بمحاولات تهريب الفتيات. ووصف وزير خارجية السنغال هذه القضية المتورط فيها دبلوماسيون ليبيون، بأنها غير مقبولة وغير ودية. وقال إن السنغال

ليست «دولة تهريب». وأعلن وزير الداخلية الجنرال مامادو نيانغ أن محاولات تهريب الفتيات من السنغال كانت على علاقة بشبكة دولية للدعارة، وأنه سيطلب من الانتربول (الشرطة الدولية) التحقيق في الموضوع. وبطبيعة الحال أثارت القضية ضجة إعلامية كبيرة في البلد، وخرجت الصحف السنغالية في اليوم التالي بعناوين رنانة تتهم ليبيا بتهريب السنغاليات. والاتجار بالرقيق وسوق النخاسة.

كما استدعت السنغال سفيرها في طرابلس للتشاور. الأمر الذي سارعت تجاهه طرابلس بإرسال وفد رسمي إلى دكاك للقاء وزير الخارجية والثقافة لشرح الموقف الليبي. غير إن الرئيس عبد الله واد، لم يتأن في أن يعلن رسمياً إنه «مجروح» من هذه الفعلة. واتصل بالقذافي، وهو في حالة غضب شديد ليندد بالأمر. وقد اقتضى الأمر جهوداً دبلوماسية جبارة. قام بها أحد مستشاريه، هو الذي يروي لي الحادثة، لتجنب قطع العلاقات الدبلوماسية مع ليبيا.

في واقع الأمر، تشكل عارضات الأزياء بكل تأكيد، ركناً هاماً من «فنتازيا» العقيد. حيث ما أنفك، في بلد ترتدي فيه أكثر من 95 في المائة من النساء الحجاب، ينظم مهرجانات خرافية لعروض الأزياء. مصمم الأزياء النيجيري القادي، والملقب بساحر الصحراء، والذي فرض نفسه كحامل راية الموضة الأفريقية، لا ينسى أن الفضل لنجاحاته العالمية إنما يعود للعقيد القذافي، وهو يشرح:

«آه نعم، أستطيع أن أقول إن القذافي دعمني. وأعطاني الكثير من المال، وكان يرسل لي بطائرات خاصة، لقد كان

يمول كافة عروض الأزياء التي كنت أنظمها». ويواصل: «كان يؤمن بأفريقيا. وكان يناضل من أجل الرفع من شأن الثقافة الأفريقية، وخاصة الموضة الأفريقية». وعندما سألته في عجب، إن كان جادا فيما يقول ؟ أجابني :

«نعم، أقول هذا من كل قلبي. يجب أن تري كم كانت مساعدته لي لبعث «الفيفا FIMA» : أول مهرجان عالمي للموضة الأفريقية. والذي صار الآن أشهر من نار على علم في العالم كله. حيث كان يبعث إلي بالوزراء وبعارضات الأزياء من بلاده.....كنت استطيع ان أطلب منه أي شيء».

أي شيء ؟.. أتصور هذا، فإن المتعة التي كان يحصدها القذافي من معايشة عارضات الأزياء : تساوي مال العالم كله بالنسبة له. وبالتالي فقد كان من الممكن أن يصرف بلا حدود. ويعطي الامتيازات لهذا المصمم النيجيري بلا حدود أيضا. وذلك من أجل أن يأتيه بالعارضات القاتنات. وسألته: «ولكن يا سيد القادي، ألم تكن تعلم أن القذافي كان يتصيد العارضات؟»، هنا صمت لبرهة. ولاحظت شيئا من التردد يجتاحه. قبل أن يقول : «كانت هناك بعض الشائعات حول هذا الموضوع. سواء فيما يتعلق به أو بمحيطه.

في الواقع إن الليبيين من أكثر الرجال تغزلا في النساء. وكنت على وعي بأن ثمة بعض الخطر في هذا الخصوص. ولكن ذلك ما لا أَرْضِي أن يحدث خلال عروضي... في سرت مثلا. وقبل أي عرض كنت أجمع العارضات، وأقول لهن: عليكم توخي الحذر. يجب أن تتحركن بشكل جماعي،

وكل مرة يجب أن تعدن بعضكن حتى لا تغفلن لو اختفت واحدة. ولا تخرجن بشكل منفرد.... والحيد لله كنت أعود بهن دائما دون نقصان».

ولكن لا شيء. لا الأصول ولا الأعراف ولا القوانين كانت من الممكن أن تحجم شيق الديكتاتور الجامح. في نوفمبر عام 2009. خطرت فكرة في ذهن نوري المسماري. رئيس برتكول العقيد. والذي كان يملك في جعبته دائما ألف خطة جديدة. تتيح للقائد فرصة اللقاء بأجمل جميلات إيطاليا. حيث اتصل. عن طريق شقيقته. بأحد وكالات توظيف العارضات. وموظفات الاستقبال. وأسمها «هوستسوب» من أجل أن يضمن لقائده جمهور على حسب ذوقه وهواه. في إطار لقاء «فكري»: على هامش مؤتمر الفاو FAO المنعقد بروما. والذي دار محوره ذاك العام حول «المجاعة في العالم».

و كانت رغبة القذا في مرة أخرى هنا أن يلتقي بجمهور نسائي. وباعتبار أن هذا الطلب قد وصل متأخرا للوكالة. قامت بتمرير الإعلان عن طريق رسالة نصية أرسلت عن طريق الهواتف الجواله. مفادها : «نبحث عن شابات بطول متر وسبعين صم على الأقل. جميلة الوجه، وأنيقة، وترتدي كعبا عاليا...». هكذا استجابت للإعلان حوالي 200 شابة. أعطي لهن موعد بأحد فنادق العاصمة الإيطالية الفاخرة. كان نصورهن عن المهمة. هي حضور أحد اللقاءات الدولية ثم المشاركة في الكوكتيل الذي يليه. لأن الراتب كان 60 يورو لا غير عن السهرة. ولم تتوقع أي منهن أن حافلة كبيرة ستكون في انتظارهن لنقلهن إلى مقر

السفارة الليبية في روما. حيث سيلحق بهن القذافي. أمام مفاجأتهن الكبيرة. على متن سيارة ليموزين بيضاء فاخرة. ويلقي عليهن محاضرة طويلة. عن الإسلام..... هذا الدين الذي ليس على الإطلاق «ضد المرأة». كان خطابا مجنوناً. حاول فيه إقناع الفتيات بالدخول إلى الإسلام. وقال لهن: «هل تعتقدن أن المسيح قد صلب؟ على الإطلاق بل هو رفع للسماء...». وقد خرجت الفتيات من المحاضرة محتضنات القرآن الكريم. والكتاب الأخضر.

لقد كانت تلك المرة الألف التي يجتهد فيها القذافي لإثارة الغرب. أو لفت أنظار الإعلام. وعلى كل حال لقد أقلق هذه المرة بالفعل فضول رجال الإعلام ورجال السياسة في البلد : الذين أخذوا يتساءلون عن الأسباب التي كانت وراء هذا اللقاء ؟

ولكن مدير الوكالة الكسندرو الونديرو. أصر على إن الباعث الجنسي لم يكن واردا في هذا المسعى. وقال : «يمكن أن أؤكد لكم إن ولا واحدة من البنات. قد فضت الليل في مقر إقامة العقيد بالسفارة الليبية في روما». وواصل : «لقد قمت بنفسي بعدهن أكثر من مرة. لقد كانت مجرد سهرة ثقافية رائعة. تبادلت فيها الفتيات النقاش مع القذافي حول الثقافة الإسلامية والثقافة الليبية».

نقاش ؟

«طبعاً». أصر الكسندروا في حديثنا التليفوني. عندما اتصلت به من باريس. وقال : «لقد كان العقيد يشعر بضرورة توضيح بعض النقاط للغرب. لأنه كان يرى أن

هناك الكثير من سوء الفهم قد شاع عن بلاده، وعن ثقافة بلاده. بينما كان من طرفه لا يريد شيئا آخر غير تقارب الثقافات، ومد جسور الحوار بين الشباب الليبي والشباب الأوروبي. وكان يسمع أسئلة الجمهور، ويجاوبهم بكثير من الصبر والمنهجية. أما بالنسبة لهذه الفتيات : فأستطيع أن أؤكد لكم أنهن عشن عبر هذا اللقاء : تجربة فريدة من نوعها».

الحديث عن الإسلام. كان خبارا لثيما من طرف القذافي، لأنه كان يعرف أن ما سيقوله لتلك الفئات الإبطاليات لن يؤدي إلى تسارعهن لدخول الإسلام، ولم يكن هذا غرضه. بل الإعلام هو قصده بكل ذلك، لأنه كان يعرف أنه وظف موضوع الإسلام للحديث مع جميلات البلد، ولبلورة مادة مثيرة للصحافة. لذلك نجده قد كرر التجربة لأربع سهرات متتالية؛ بحيث أن القذافي قد التقى وفق هذه الوثيرة بأكثر من ألف فتاة إيطالية فاتنة الجمال. مدير الوكالة حرص على أن يشير إلى أن بعض الشباب قد حضروا بدورهم هذه اللقاءات، وبعض الفتيات العاديات، بحسب تعبيره. البعض القلة منهن قلن بأنهن على استعداد لاعتناق الإسلام، وتركوا أرقام هواتفهم.

على أن العقيد القذافي لم يقف عند هذا الحد، بل هو وظف العلاقة مع هذه الوكالة لتنظيم العديد من الرحلات «الاستطلاعية» : تحملت ليبيا كافة مصاريفها لعدد من الجميلات. «من أجل التعرف على الثقافة الليبية، وطبيعة الحياة في البلد».

«كانت رحلة رائعة»، تحكي أحد الفتيات، وهي ممثلة إيطالية -إنجليزية، والتي كانت جد فخورة بأنها قد تناولت الإفطار مع القذافي ؛ «ثمر. وحليب النوق». وكانت جد مقتنعة «بأن المعاملة التي تحظي بها النساء في ليبيا؛ هي أفضل منها في أي مكان من العالم». بعض من هؤلاء وصلت بهن قناعتهم بخطابات العقيد. إلى الخروج في روما؛ للتظاهر ضد ضربات النيتو على ليبيا. بل إن مجموعة منهم قد رافقت مدير الوكالة لزيارة ليبيا في أغسطس 2011. لكي يؤكدوا تضامنهم مع العقيد في تلك اللحظات العصبية. متحدين القنابل، والضربات. وهي الرحلة التي سيعود منها الكسندرو مكسور خاطر، حاملا في حقائبه رسالة أعطاه إياها عبد الله منصور. تضم نداء استغاثة كتبها القذافي يوم 5 أغسطس لبرلسكوني. أي قبل أن يغادر باب العزيزية بأيام. وهو ما يجعل من مدير «وكالة لعارضات أزياء» ؛ آخر مبعوث للدكتاتور قبل فراره... لا شك في ذلك ؛ إنها سخرية القدر.

مبروكة

منذ لقائي الأول مع ثريا. في خريف 2011. ظل اسم مبروكة يورقني. لم تكن رنة اسمها مألوفة لدي رغم علمي أنه مشتق في اللغة العربية من البركة. وإن كلمة «مبروك» تستخدم كثيرا عند الاحتفال بحدث ما أو لتقديم «التهاني الحارة» أو «أجمل الأمنيات». لكن لم يكن في «مبروكة» ثريا أي شيء من الفرح. كان صوتها الرصين ينطق هذا الاسم بقسوة. وكانت عيناها لا تزال مهووسة بذكريات استحال البوح بها ؛ لدرجة أنني استحضرت فيها الألوان الأكثر قتامة، بل وحتى الشر المتجسد أيضا.

تري من تكون هذه المرأة المستعدة لارتكاب كل الجرائم لنيل رضى سيدها المجنون ؟ أي نوع من الطاعة هذا؟ أم هو إعجاب ؟ أو انبهار ؟ هل كان الطموح والجشع حافزها الأساسي أو وجب تلمح جوانب أكثر تعقيدا وسوادا في موهبتها على استباق رغبات الديكتاتور وشهوانه؟

هل كانت تخفي رواسب مذلة شخصية أو جرما سرىا؟
هل كانت تفكر في الانتقام ؟ كيف كانت حياتها في باب
العززية؟

لم تكن ثريا تعلم شيئا، أو أنها كانت لا تعلم إلا القليل
لتوجيهي إلى أول الطريق. كانت مبروكة خاطفتها، سجانها
وجلادها. حطمت عمدا ولأبد حياتها. وطوال سنوات خمس
لم تبد قط أي شكل من الإنسانية أو الرحمة. لبس بإمكانها
إنكار الاغتصابات، إذ كانت هي من يسهل لها. كانت على
علم بالشئائم، والجرائم، والوحشية: كانت شاهدة على
ذلك وشريكة فيه أيضا. أخبرني أحد معاوني القذا في أنها
كانت «الأم المحبة في عز فظاعتها». ولم يكن أحد يشك
أنها كانت أحيانا نضاجع العقيد. كان يجب العيش قريبا
من القذا في للجزم بذلك، لأن خارج أسوار باب العززية.
كانت مبروكة تبدو في مظهر السيدة المتكبرة، وتقدم نفسها
على أنها من بين المستشارين المقربين جدا للأخ القائد.
كانت كثيرا ما تستغل الدبلوماسيين أيضا.

استغرقني العثور على بعض صورها مدة من الزمن.
كانت تسير في ظل العقيد حين كان يدوس البساط الأحمر
عند نزوله من الطائرة في الأراضي الأجنبية. كانت تترك
الأماكن الشرفية للعسكريات الفاتنات، لتتنحى جانبا
تراقب المشهد بعين كاسرة، تحت حجاب أسود رهيب.
كان شعرها بنيا وممشطا إلى الخلف، وكانت قسما
وجوها عادية، لا أثر لمساحيق التجميل، فمها قاس، وكانت
تبدو لي باهتة بدون أي طعم، لكن أحد السفراء الأوروبيين
أخبرني أنها لم تكن كذلك. صحيح أنها كانت سيئة اللباس

و«رثة الهندام»، وبلا ميزة ظاهرة لفتنة أو فخامة، وأنها «لم تكن تدخل في علاقات إغراء». لكن على الأرجح أنها كانت جميلة؛ وبقيت تحتفظ ببعض من ذلك الجمال، وهو يقدر أنها تبلغ الخمسين من العمر.

الكثير من رؤساء الدول والوزراء والدبلوماسيين قابلوها يوما ما أثناء تنقل رسمي أو قمة إفريقية، أو خلال بعض المنتديات الدولية. أوروبيون وفرنسيون، وعلى رأسهم سيسيليا ساركوزي. كانوا قد احتكوا بها أثناء المفاوضات الطويلة بخصوص إطلاق سراح الممرضات البلغاريات المتهمات زورا من الطرف الليبي بفتح فيروس السيدا إلى الأطفال.

كانت مبروكة تقدم على أنها مسؤولة البروتوكول، ولكن الكل كان يعلم قربها من القذافي، وأنها بكل تأكيد موطن ثقته؛ فكانت تستخدم لتمرير الرسائل، وكانت من طرفها تبذل قصارى جهدها حتى تثبت أن نفوذها يتجاوز حدود المراسم؛ وأنها بالأحرى هي «السيدة الأمينة للعقيد» التي بإمكانها أن تتدخل في تسهيلات السفراء أو غيرهم، والتي ما انفك دورها يصبح سياسيا يوما بعد يوم. وقد سبق لها أن اتصلت بقصر الإليزيه لتطلب توضيحا حول السياسة الفرنسية في مالي أو النيجر. وينسب لها أيضا تأثيرها في ملف التوارق، من خلال معرفتها بقيادتهم في ليبيا، وفي بعض دول الجوار مثل الجزائر، ومالي، والنيجر، وموريتانيا، وليس من الضروري إذا التأكيد على أنها كانت تعامل بكل احترام، حتى وإن كانت مذكورة من المخابرات الفرنسية، التي كانت تتبعها في تنقلاتها الباريسية، تقدمها على أنها

«صيّادة». ورغم إن السفير أخبرني ذات مرة بكل برود: «كانت تأتي للتسوق».

للتسوق ؟ «لقد كانت تختار الفتيات لإرسالهن للعقيد». أجل. هو كذلك. فقد كانت تنزل في فنادق فخمة بمنطقة «الشانزيليزيه» - في جناح بالفوكاتس. وتقوم بتفعيل علاقاتها بثقة جنونية في النفس. هل التفت يوما كارولين ساركوزي. الأخت غير الشقيقة للرئيس. أثناء إحدى الحفلات ؟ ومن المؤكد أنها أسرعت إلى الالتقاء بها إحدى المرات. دون موعد سابق. رفقة المترجم وسائق السفارة الليبية. لتطلب منها أن توقع نسخة من كتابها حول الديكور. مع إهداء إلى سيدها : «إلى الأخ القائد. أتمنى أن نستمتع بهذا الكتاب حول المنازل الجميلة بباريس». سيجد الثوار هذا الكتاب في أغسطس 2011. عند افتتاحهم لطرابلس. في الفيلا الفخمة لعائشة. البنت الكبرى للقذافي. طبعاً كان لدى مبروكة نية جلب هذه السيدة الجميلة : كارولين ساركوزي. للعاصمة الليبية.

وهي ما إن تعلم بوجود أميرة عربية في باريس - من العربية السعودية. أو من الكويت..... - حتى تسارع بزيارتها حيث تقيم : في فندق ريتز أو فور سيزن. أو.... هل قابلت مرة وزيرة العدل. رشيدة داني. ذات الأصول المغربية؟ ولم كانت تطلب مقابلتها ثانية في الفوكاتس. لقد جهزت قائمة بأسماء وزيرات ونساء ذوات نفوذ. وفي مقدمتهن ذوات الأصول العربية أو الإسلامية. فكانت تنتقل من موعد إلى آخر. كانت تتصل بسالمة ميلاد. الجندية التي بقيت إلى جانب القذافي بطرابلس : «اطلبي من الأخ القائد

أن يصرف الأموال للأميرة فلانة». أو «أرسلني فلاند إلى زوجات السفراء».

كانت تقوم بجولة صغيرة في متاجر سيفورا لاقتناء العطور النسائية. وتعيد الاتصال بسالمة لتسأل إن كان ينقص العقيد أي شيء : بودرة. مساحيق للوجه...؟ وكانت تنحدث إلى البائع بتدقيق : «هذه المساحيق لرجل متقدم نوعا ما في السن. رجل له نفس لون بشرتك تقريبا». كان الشاب بعيدا جدا على أن يتخيل أن المنتفع بهذه المساحيق هو القذافي بعينه. وكان ذلك يضحك المترجمة.

كانت مبروكة تتجول أيضا بين المتاجر الفخمة. والمطاعم أو المقاهي الفاخرة للبحث عن فتيات جميلات ومحادثتهن. كانت تفضل المغاربيات، أو الخليجيات لتحادثهم بالعربية. أما بالنسبة لبقية الفتيات. فكانت تستعين بمترجم متعود على طريقة عملها. حيث تبدأ بالسؤال : «هل تعرفين ليبيا؟ أوه ! هو بلد يتطلب جدا أن يُكتشف ! هل ترغبين في زيارته ؟ أستطيع استضافتك إلى هناك ! بل أستطيع أيضا أن أجعلك تقابلين قائدنا !».

وكانت تلتقط لنفسها صورا مع فريساتها المحتملات، وتدقّ عناوينهن. كانت تصطاد باستمرار. وبإمكانيات غير محدودة. في هذا الإطار. أخبروني عن حكاية شابة مغربية حادثتها بأحد الفنادق. ونوسلت إليها أن تقبل دعوتها إلى ليبيا. فاشترطت أن يصطحبها ابن عمها، وعادت إلى فرنسا ومعها 50 ألف دولار.

ذات مساء في طرابلس، وافق رجل من التوارق ممن عرفها في صغرها أن يشرح لي ببعض المؤشرات الأساسية حول شخصية مبروكة. كنا في مطعم في محيط المدينة العتيقة، وكنت أتأهب للاستمتاع بطبق كسكسي مع لحم الجمل. ولكن قبل حتى أن أخرج دفتر ملاحظاتي، بادرني بالقول، في صوت هادئ ورصين : «إنها الشيطان بعينه.» ثم صمت للحظات قبل أن يتابع : «بسكنها شر مطلق. ولديها مهارة جهنمية. إنها لا تتوانى عن فعل أي شيء من أجل بلوغ هدفها : من كذب، واحتيال، وخيانة، ورشوة، وسحر وشعوذة. إنها تمتلك كل الجراءة، وتناور مثل الأفعى. تستطيع بيع الريح لمن لا يريد أن يشتري شيئا».

كان والدها - وهو من سلالة الشرفاء - من نبلاء التوارق. قام بزواج غير موفق حين وقع في حب امرأة ذات مستوى اجتماعي أقل، تقطن مدينة غات، بالجنوب الليبي. على الحدود الجزائرية، غير بعيد عن النيجر، أنجب الزوجان بنتين، مبروكة وأختها البكر. قدماها إلى بعض العبيد للعناية بهن. وقد فسر لي أن تلك عادة قديمة لمنع الأذى و«مكافحة الأرواح الشريرة»، عندما يكون الوالدان قد فقدا من قبل بعض الأبناء. وقد تمت خطوبة مبروكة في سن مبكرة لأحد التوارق النبلاء. قبل أن يتزوجها فجأة مسعود عبد الحفيظ. رجل من قبيلة القذافي، ومتزوج من ابنة عم العفيد. كان قائدا للوحدة العسكرية بسبها، وتمكنت مبروكة، لفترة قصيرة، من الاستفادة من الامتيازات الممنوحة إلى أقارب القذافي، واستمتعت بالسفر في ظروف الرفاهية. لكن هذا العسكري الكبير سرعان

ما طلقها، فعادت لتعيش في مسقط رأسها بغات. وعلى خلاف العديد من نساء التوارق، لم تكن مبروكة تلبس الزي التقليدي، بل كانت ترتدي ثيابا على الطريقة الغربية، «دون أدنى ذوق». ويبدو أنها عاشت في غات بعد طلاقها قصة حب غير موفقة مع رئيس بنك، واختفت بعدها من المدينة «وذهبت إلى طرابلس». لقد كان مخاطبي يجهل حيثيات هذا الهروب الكبير.

ستقدم لي تلك التفاصيل مسؤولة بالمراسم، حيث انتدبت مبروكة سنة 1999. بمناسبة قمة رؤساء الدول الإفريقية الذي أراد القذافي أن يعطيه مدى وإشعاعا تاريخيا. يومها، في 9 سبتمبر 1999 (9.9.99)، حيث تم التوقيع على «اتفاقية سرت» الشهيرة، والمحددة لأهداف الاتحاد الإفريقي. فقد شارك في هذا اللقاء ثلاثون رئيس دولة، مما كان يعني تقريبا ثلاثون زوجة توجب استقبالهن في المطار. ومرافقتهن في تنقلاتهن (تجميل، تسوق، محاضرات)، ووجب خاصة تسخير مترجمات من أجلهن.

أمام حجم المهمة، وجدت إدارة المراسم نفسها مجبرة على انتداب نساء يتكلمن كل أنواع اللغات واللهجات الإفريقية. من هذا الباب الصغير، دلفت مبروكة إلى دائرة السلطة، إذ كانت تتقن لغة التوارق والهوسا (لغة النيجر ونيجيريا خاصة). حدثتني السيدة التي انتدبتها : «لم تكن تبعث على الثقة. كانت تبدو كالريضة المتخلفة، دون أي أدنى أناقة أو جمالية في هندامها. كانت تبدو فقيرة جدا، ذلك ما ظننته على أي حال. ولكن نظرتها كانت تعكس إرادة قوية!». وفي اليوم الأول من أعمال القمة، دخلت مبروكة

إلى باب العزيزية مرافقة البعثة الغينية لتحية القذافي. كان ذلك كافيا. ففي نفس المساء، أُخبرَتْ المراسم بأن عليهم أن يجدوا مرافقة أخرى بدلها، إلى جانب سيدة غينيا الأولى، «فمنذ اليوم، سأعمل مباشرة مع الأخ القائد». لقد نجحت في الوصول لما تريد.

تحدثت العائلة التي استقبلتها حين قدومها إلى طرابلس عن شدة غضبها حين كانت بصدد البحث عن عمل، وخاصة عن تعنتها في السعي لمقابلة القذافي. «مرة واحدة تكفي، فقط مرة واحدة ! وسينتدبني لخدمته!» : كان الكل يفسر نجاحها بممارستها المكثفة للسحر والشعوذة وليس بفضل جمالها. وكانت طوال هذه السنوات في خدمة القذافي، قد قابلت أكبر سحرة أفريقيا، سواء في بلدانهم أو حتى في طرابلس.

وندريجيا، أصبحت هي المنحكمة في الحريم المتواجد بالطابق السفلي لإقامة العقيد، حيث تأتي الفتيات الشابات كسجيات، وتبقى هناك لسنوات، عالقات وغير قادرات على الاندماج من جديد في المجتمع الليبي.

كانت أيضا المزودة الرسمية للفرائس الجنسية (رؤيت لي طريقتها في التعبير عن إعجابها بعضلات الشبان الأفارقة، قبل أن تسوقهم إلى القذافي). أخيرا، كانت المديرة لما يسمى «بالخدمات الخاصة»، أولئك الفتيات والشبان الذين نراهم أحيانا بالزى العسكري مع الحرس الشخصي للدكتاتور. والويل لمن يلفت نظرها أو يذكر عرضا ابنة أخت، أو ابنة عم، أو جارة. الويل لمن يأتي إلى باب العزيزية

يطلب خدمة (سكن. شغل. عناية صحية). حيث لم تكن تنتظر إلا فرصا كهذه لتلقي بشباكيها.

«هذه المرأة عار على التوارق. كنا نعلم جميعا معنى «خدمات خاصة». هل استغلت وضعها لتستهدف نساء من شعبنا ؟ كانت قادرة على فعل كل شيء. ولكن المرأة التارقية تفضل الانتحار على الاعتراف بأنه وقع غضبها على شيء من ذاك القبيل».

حاولت طبعاً أن أعرف مكان مبروكة. في مستهل سنة 2011. قيل إنها فرت. مثل معظم المقربين من القذافي. وأنها متواجدة حينها في الجزائر. أحدهم ادعى أنه رآها في تونس. ثم أبرقت لي وكالة الأنباء أنها جتدت العديد من الشخصيات. خاصة من بين التوارق. في محاولة لإفناع السلطات الجزائرية لمنحها اللجوء السياسي. ولكن الجزائر قابلت طلبها بالرفض. في مستهل مارس 2012. علمت أنها «تفاوضت» بشأن عودتها إلى التراب الليبي. وأنها صارت تحت الإقامة الجبرية في غات، رفقة والدتها.

ورغم إصراري الشديد. باتت مقابلتها مستحيلة. ولكن لدهشتي الشديدة. بدأ عثمان مليقطة. من ثوار الزنتان. الذي قام بالتحقيق معها طوال أيام ثلاثة. مائلا إلى الرأفة بها : «لقد عبرت عن أسف شديد. بل وطلبت العفو. لقد أكدت أنها لم تكن تتصرف بملء إرادتها. وإن أحدا لم يكن في تلك الفترة حرا!». قال أيضا : «لاحظت تمسكها الشديد بوالدتها؛ وشعرت كأنها مثل الشخص الطيب الذي تحاول تحميله ذنبا أكبر مما اقترفه».

شخص طيب...! لم أصدق أذني. ترى هل كان بإمكانها
تطويع سجانيها؟ هل يجب أن أطلعهم على شهادة
ثريا.

.....

سلاح حرب

في كثير من الأحيان، قد نكتب مقالات لا يقرأها أحد. فإن دور الصحفي، بالنهاية، هو الاهتمام بالمواضيع التي تخرج، ونشر المعلومات التي تزعج، والكشف عن الحقائق التي تغضب. يقول ألبير لوندرو، عميد كبار المراسلين الناطقين بالفرنسية : «لا يطمح الصحفي إلى إمتاع القارئ ولا إلى إيداعه، دوره أن يضع قلمه على الداء». رغم ذلك، لم أكن أفكر في أن أكتب كتابا لا يريده الليبيون.

خلال تحقيقتي، تلقى كل أصدقائي الليبيين الذين ساندوا المشروع، وهم قلة، الكثير من الضغوطات، والتهديدات للتخلي عن المشروع. وفي أعلى هرم السلطة، تحدث البعض عن ما قد يسببه الخوض في هذه التفاصيل من «إساءة» للمجتمع الليبي. إن اغتصاب فتاة يجلب العار للعائلة برمتها. وخصوصا للرجال، أما اغتصاب الآلاف من النساء من قبل الزعيم السابق للبلاد فيجلب العار

للأمة بأكملها. فكرة مؤلمة جدا. وفرضية لا يمكن تحملها. هل سبق لبلد أن أهين رجاله لأنهم لم يقدرُوا على حماية نسائهم وبناتهم وأخواتهم من مستبد مفترس ؟ أليس من الأفضل إخفاء كل شيء تحت السجادة. وتحت ضمادة «المحرّم» باسم المحافظة على الحياة الخاصة للضحايا. ولما لا نذهب حتى للإنكار ؟ الكلام عن «لا - موضوع». الاهتمام بمواضيع أخرى. ذاك أسهل الحلول. فالأغلبية الساحقة من ضحايا «القائد» لن تفصح عن نفسها. يا له من سبب وجيه ! أما «بنات القذافي»، وحرسه الشخصي من الفتيات، و«فريق الخدمات الخاصة»، والحرملك الذي هربت أغلب جميلاتِه، فيكفي نعتهن بنساء الحياة البائسة، «قحاب» تملّفن الترف. والسفر، والرفاهية التي منحهن الديكتاتور، واللاتي تبرات منهن عائلاتهن. وهل يمكن أن نجعل منهن شركاء القائد لا ضحايا. بل ربما يكن متواطئات، متجردات من كل قيمة... بلى. يبدو أن الإنكار هو ما يغري أسياذ ليبيا اليوم. إضافة إلى فائدة حماية الأسرار الصغيرة المؤذية، والتي تسبب في خوف حفنة من الرجال. كانوا خدما للديكتاتور منافقين له، وأصبحوا اليوم ثوريين متحمسين يساندون النظام الجديد. هؤلاء يحلمون بالصمت عن تلك الجرائم، الصمت عن الاغتصاب. ونسيان النساء : ثريا وليبيا وخديجة وليلى وهدى والأخريات... اللاتي يعرفن الكثير عن تلك الجرائم. كثير من ضحايا الحروب «البواسل»، «الأبطال». «المثاليات» ينتظرن من الدولة الليبية الجديدة إعادة الاعتبار والسلوان. إنهن ضحايا حقيقيات. وغني عن القول أنهن «أرجل من الرجال».

ولكن لنكن منصفين. هناك بعض الاستثناءات مثل محمد العلاقي. والذي منحني اللقاء معه شحنة من الحفاقة دفعتني إلى الأمام. كان اللقاء مساء يوم الأحد من شهر مارس في مقهى وسط مدينة طرابلس. أوصلتني سيارة أجرة بعد جولة رائعة صحبة سائق يعلق ساخرا على لوحات كاريكاتورية للقذافي رسمت هنا وهناك على جدران المدينة. ظهر فيها القذافي مثيرا للسخرية. تارة خليعا وتارة أخرى دمويا. غزير الشعر. وفي أغلب الأحيان في صورة امرأة. «هل تدرين لماذا؟» سألني الشاب. وكان من الثوار الذين شاركوا في تحرير البلد من قبضة القذافي. بينما كنت أبتسم أمام صورة للديكتاتور في ثياب داخلية نسائية خضراء، وقد تزين بعقد من اللؤلؤ في عنقه، ورموش طويلة، وشفاه قرمزية. «كان لوطيا. كان يطلب من الحراس الشبان الرقص أمامه في ثياب نسائية». هذه الجرأة في التعبير أذهلتني أكثر من المعلومة نفسها التي كنت استقيتها من ثريا وحارس سابق في باب العزيزة أخبرني أن له زميلا شابا كان يحس بالعار حين يدعى للقيام بهذا الدور.

كان محمد العلاقي ينتظرني أمام كأس من الشاي بالنعناع صحبة صديق محام. وزير عدل سابق بالنيابة. ويشغل حاليا منصب رئيس المجلس الأعلى للحريات العامة وحقوق الإنسان في ليبيا. ترأس طويلا عمادة المحامين في طرابلس. وكان محل احترام زملائه، ومراقبي المنظمات غير الحكومية الأجنبية التي حافظ على التواصل معها. كان قصير القامة. يرتدي قبعة النبلاء، وله

وجه مدور وناعم، وشارب صغير، وعيون حادة مشرقة هو على الأقل لا يستعمل لغة فارغة، خلافا لشخصيات أخرى. قال لي : «نعم لقد مارس القذا في الاغتصاب بنفسه، وعلى نطاق واسع. وأمر باغتصاب رجال ونساء. لقد كان وحشا جنسيا ومنحرفا وساديا جدا. استمعت مبكرا إلى شهادات لمحاميات تم اغتصابن، كشفن لي عن سرهن كصديق وكرجل قانون. شاركتهن آلامهن ومعاناتهن لكن لم أكن أقدر على فعل شيء. لم يكن بتجرأ أن على الاتصال بالوكيل العام. كان تقديم شكوى يعرضهن للموت. هل شاهدت عبر الأنترنت الفيديوهات التي تصور إعدام الضباط الذين تجرؤوا وثاروا عندما قام القائد باغتصاب نسائهم ؟ كان هذا الرجل متوحشا!». كان بهز رأسه ورقبته غارقة بين كتفيه، يحيط بيديه كأس الشاي الساخن. «في آخر أيام حياته، كان مطاردا، بائسا، أعزل. لم يعد قادرا على أن يتمالك نفسه. لكنه استمر في الاعتداء جنسيا على فتيان في السابعة عشرة من العمر أمام حراسه الوفيين. في كل مكان. بعنف مثل الثعلب. لدينا شهادات متوافقة ومتناسقة. وأنا أرفض ما يقوله البعض بأن كل هذا يدخل في إطار حياته الشخصية. لم يكن يمارس الجنس، كان يرتكب جريمة. والاغتصاب بالنسبة إلي هو أخطر الجرائم».

حدثته عن ثريا، عن الدهليز، عن معاناتها السابقة، عن توترها الحالي. وقد أسعدني أن يلقى كلامي أذنا صاغية ومتفهمة. كنت أفكر فيها طيلة البحث. كان محمد العلاقي ينصت إلي وهو يومي برأسه. لم يشك لحظة واحدة في صحة ما كنت أرويه. كان يُثَمِّن قدرتها على

الإدلاء، بهذه الشهادة القيمة. كان يقول لي : «أمل أن ننصف كل ضحايا القذافي. هذا أبسط ما يمكننا فعله. يجب أن يكون هذا من أهداف النظام الجديد. أريد أبحاثا، تحقيقات، جلسات استماع عمومية، إدانات وتعويضات. لكي نتقدم. لنتمكن من لم شمل مجتمعنا، ومن بناء الدولة. لا بد للشعب الليبي من أن يعرف كل ما كان يحدث طيلة اثنتين وأربعين سنة. من مشائق، وتعذيب، واحتجاز. وتصفية جماعية، وجرائم جنسية شتى. لا يمكن لأحد أن يتصور ما عانىناه. ليست مسألة انتقام أو حتى عقاب، هي مسألة تطهير للنفس». سيكون هذا معقدا طبعاً، نحن لا ننكر هذا. تنقصنا الإمكانيات والهيكل والتنسيق. الحكومة كانت تجهل عدد أماكن التوقيف. وأكثر السجون كانت بين أيدي الميليشيات المسلحة، والجهاز العدلي أو القضائي لم يكن مستقرا بالمرّة. لكن يجب فرض الشفافية، لا يجب أن تنأى أي جريمة عن دائرة الضوء.

أصبح الوقت متأخرا جدا. وكان عليه الذهاب.

نطقت بكلمة «جارية» عند الحديث عن ثريا، فاستشاط غضبا. لكن القذافي كان يعتبرنا كلنا عبيدا له. لقد تقياً على شعبه كل معاناته السابقة. محطما ثقافتنا. مهملنا تاريخنا. فارضا على طرابلس عَدَم الصحراء ! كان بعض الغربيين ينتشون أمام ثقافته المزعومة في حين أنه كان يمقت العلم والمعرفة. كان يجب أن يكون هو وحده محور العالم ! أجل، لقد أفسد المجتمع الليبي، جاعلا من شعبه في الوقت ذاته ضحية وشريكا، ومحوّلا وزراءه إلى دمي وأشباح. أجل، لقد كان الجنس في ليبيا أداة للسلطة : «إما أن تنسحق أمامي.

وتطليعي أو اغتصبك أنت، زوجتك، أو أطفالك». كان يقوم بذلك ويحكم على الجميع بالصمت. كان الاغتصاب سلاحا سياسيا قبل أن يصبح سلاحا حربيا.

كم كان صريحا مقارنة برجال السياسة الذين أتيت لي مقابلتهم! هو على الأقل، لم يكن يخشى أن أكتب اسمه: وأذكر أنه مصدر هذه التصريحات، على عكس الكثير من الذين صرحوا لي ببعض المعلومات المهمة، تطرقنا إذا إلى الموضوع الشائك المتعلق بالاغتصاب الذي مارسه كتائب القذافي أثناء الثورة، كانت حوادث الاغتصاب تقع بالآلاف، في كل المدن المحتلة من قبل ميليشيات الدكتاتور ومرتزقته، وكذا في السجون، اغتصاب جماعي، ارتكبه رجال مخمورون، عادة ما يكونون تحت تأثير مواد مخدرة، تصورهم هواتف جواله، كانت محكمة الجنايات الدولية، التي أصدرت في يونيو 2011 أمر إيقاف ضد الطاغية، قد نددت بوجود سياسة الاغتصاب الممنهجة تلك، لكنه كان من الصعب الحصول على قرائن وأدلة، أما الضحايا، فقد تواروا عن الأنظار.

كانت النساء ترفض الخوض في الموضوع، وكل من أراد مساعدتهن من أطباء، وأخصائيين نفسانيين، ومحامين ومنظمات نسائية، كانوا يجدون صعوبة بالغة في الوصول إليهن، كن يختفين، ينزوين، على عارهن وألمهن، بعضهن اخترن الهرب من تلقاء أنفسهن، فيما أخريات طردتهن عائلتهن، هناك من تزوجن من الثوار الذين تطوعوا لصون شرفهن، شرف «ضحايا الحرب»، وفي بعض الحالات النادرة، قُتلت بعض هذه النساء على يد إخوة ذكور غسلا للعار..

مؤخرا. خلال فصل الشتاء، هناك من وضعن حملهن في كنف السرية التامة، إنها محنة كبرى.

لقد تمكنت شخصا من ملاقات بعض أولئك النسوة المصدومات بشكل عميق. بفضل شبكة فعالة من المناضلات المخلصات المتكتمات. كما تسنى لي حضور عمليات تبني لرضع وُلدوا نتيجة عمليات الاغتصاب. أوقات لا تنسى. بضع ثوان. يمر فيها الطفل من يد لأخرى، من قدر لآخر. وتمضي الأم - وهي غالبا من المراهقات - منخفضة من وزرها. ولكنها تبقى معذبة إلى الأبد.

حاورت أيضا بعض من قاموا بعمليات الاغتصاب: في سجن بمصراته : رجلين بانسين، عمر أحدهما اثنان وعشرون سنة، والثاني تسعة وعشرون، كانا منخرطين في كتائب القذافي. كانا يرتعشان. نظرائهما مراوغة، متهربة، كانا برويان جرائمهما بالتفاصيل : تلك هي الأوامر. هكذا يرددان. كانوا يقدمون لهم «حبوب الهلوسة». ومعها خمر وبعض الحشيش المخدر. كان قادتهم يهددونهم باستعمال الأسلحة.

«أحيانا كنا نغتصب كل أفراد العائلة. بنات ذوات ثماني أو تسع سنوات. فتيات في العشرين. أمهاتهن. وعلى مرأى من الجد في بعض الأحيان. كن يصرخن، وكنا نزيد من العنف. لازلت أسمع صراخهن. لا يمكنني أن أحدثك عن معاناتهن ! لكن رئيس الفرقة كان يصر : اغتصبوا، اضربوا وصوّروا ! سوف نرسل كل هذا إلى رجالهن. نحن نعرف كيف نهين هؤلاء الأوغادا».

كان الأول يلعن القذافي ويتوسل كي لا نخبر والدته
بالتهم الموجهة إليه. بينما قال الثاني. وهو داسع. إنه نادم
وإنه لا يجد إلى الراحة سبيلا. كان يقرأ القرآن ويصلي ليلا
نهارا. لقد كشف هوية رؤسائه مؤكدا استعدادهم لتلقي أي
عقاب بما في ذلك الموت.

أكد لي محمد العلاقي : كانت الأوامر تأتي من قمة
الهرم. ونحن نملك في هذا الصدد شهادات من المقربين
من القذافي. لقد سمعت بنفسني وزيره السابق للشؤون
الخارجية موسى كوسة يجزم أنه رآه يأمر قادة الكتائب:
«أولا الاغتصاب، ثم القتل»، كان ذلك منسجما مع عاداته
«في الحكم والقهر عبر الجنس».

هل من حاجة إلى أدلة أخرى على وجود إستراتيجية؟
على سبق الإصرار والترصد؟ إنها موجودة. لقد عُثر على
المئات من علب الفياغرا في بنغازي، ومصراتة، وزوارة،
وحتى في الجبل. «يوجد منها في كل مكان توقفت فيه
كتائب القذافي. كما اكتشفنا عقود طلب مسددة الثمن
وممضاة من الدولة الليبية... قلت لك أنه سلاح حرب!».

كان يخيّل لمعمر القذافي أنه كاتب. وقام خلال 1993
و1994 بنشر ست عشرة قصة. مليئة بالمقاطع العاطفية،
وبالصور الأدبية التافهة. والكلبشيات الغائلة. والأفكار
المحمومة : «كانت تعكس معاناته». ردّد محمد العلاقي
متذكّرا خوف الكاتب من الحشود في مجموعته القصصية
فرار إلى جهنم. والنذير الشديد الذي تفرّع إليه
صفحاته.

وكأنه هنا قد تنبأ بما سيحصل له مع الجموع وهو يكتب :

«هذه الجموع التي لا ترحم حتى منقذيتها. أحس أنها تلاحقني...»

كم هي عطوفة في لحظة السرور. فتحمل أبناءها على أعناقها!! فقد حملت (هانيبال) و(باركليز).. و(سافونارولا) و(داونتون).. و(روبسبير).. و(موسيليني) و(نيكسون). وكم هي قاسية في لحظة الغضب!! فتآمرت على (هانيبال) وجرعته السم. وأحرقته (سافونارولا) على السفود.. وقدمت بطلها (داونتون) للمقصلة.. وحطمت فكى (روبسبير) خطيبها المحبوب.. وجرجرت جثة (موسيليني) في الشوارع.. وبصقت على وجه (نيكسون) وهو يغادر البيت الأبيض بعد أن أدخلته فيه وهي تصفق!!

كم أحب حرية الجموع. وانطلاقها بلا سيد وقد كسرت أصغادها. وزغردت وغنت بعد التأوه والعناء. ولكنى كم أخشأها وأتوجس منها !! أنا أحب الجموع كما أحب أبى. وأخشأها كما أخشأه. من يستطيع في مجتمع بدوي بلا حكومة أن يمنع انتقام أب من أحد أبنائه؟.. نعم كم يحبونه...!! وكم يخشونه في ذات الوقت...!! هكذا أحب الجموع وأخشأها كما أحب أبى وأخشأه...

لقد انتفمت الحشود بالفعل. عديد المرات. عند إقامتي بطرابلس. فاجأت ليبين بصدد مشاهدة الصور المريفة لاحتضار القذافي وسط صرخات النصر التي أطلقها المحاربون. كانوا يشاهدون هذه الصور بهزيع

من الرعب والانهيار، وعند تركيب المشاهد المصورة بالهواتف المحمولة، أضيفت أغان ثورية لتمجيد الملحمة، لكن، كان هناك فيلم لم يتجرأ الثوار على تسريبه ضمن هذه الأفلام. أرثني إياه امرأتان، والأصبع على الفم كمن يريد أن لا يخرج السر لمسافة أبعد، على هاتف نقال بعد مرور بضعة أيام على موت العقيد. حدثت مليا وجمعت عينايا. كانت الشاشة ضيقة والصورة غير واضحة تماما. ولم أستطع تصديق ما أرى. لقد فرغت لدرجة أنني ظننت نفسي مخطئة. ولكن لا، هذا ما وقع بالفعل. قبل مقتله، وقبل الضرب، وزخات الرصاص، والتدافع، قام أحد الثوار بإدخال قضيب خشبي أو معدني في مؤخرة الدكاناتور الراحل. وسالت دماؤه فوراً. قالت إحدى النساء دون أي شعور بالأسف: «لقد اغتصب!».

بهذا الصدد قال لي محام من مصراتة: «الكثير من الليبيين شعروا بأنهم تأروا لأنفسهم منه بهذه الحركة الرمزية! قبل لقائه الموت، اغتصب المفتصب».

الخاتمة

سرعان ما عاد الصيف إلى طرابلس البيضاء، في حين أن الشتاء في باريس، امتد إلى ربيع مثلج. كان هذا على الأقل ما بدا لي. كانت السماء رمادية ومنخفضة، وكان المطر حزينا، والأفق مظلمًا. كان يعتريني الندم للحظات قليلة لعدم اختياري كتابة قصة ثريا وسر القذافي - اللذين لم يتكلم عنهما أحد بعد - في المكان نفسه، في الضوء الساطع، وأمام المتوسط. في الحقيقة لقد هربت من كثرة الضغط والتوتر. من الصمت الخانق والأسرار المسمومة. كان علي حتما أن أضع مسافة وأعيد قراءة دفائري بعيدا عن ليبيا، وعن هذا الأرق الذي لا يزال يعذب محاوراتي. ولكن المسافة كانت جد نسبية. كنت أكتب في باريس، ولكن فكري في طرابلس. وكنت أترصد مشغولة البال أخبارا من ثريا. كانت مترددة، متعشرة، مكتئبة. ثم يعاودها الأمل، صبيانية، مجردة من أي انضباط. لا تدري ماذا

تفعل بماضي جد مؤرق وسر جد مكبل. لم يكن لكلنة مستقبل أي معنى لديها، وكان هاجسها اليومي سجاثرها وعلب «السليمس» الثلاثة التي لا يمكنها العيش بدونهما. كنت أستحضر بغضب مشهد الدكتاتور حين أجبرها على تدخين أول سيجارة : «استنشقي. ابتلعي الدخان. ابتلعي».

كنت ألاحظ يوميا على الانترنت نفاذ صبر الليبيين المتصاعد من المجلس الانتقالي. كان البترول يُضح بنسق طبيعي وبلغ إنتاجه تقريبا المستوى الذي كان عليه قبل الثورة. لكن الشعب لم يستفد منه حتى الآن. لقد استمر البلد معلقا : لا وجود لحكومة شرعية، ولا نواب، ولا ولاية، ولا جيش وطني، ولا شرطة، ولا نقابات : لا وجود لدولة. الإدارات العامة كانت متروكة، والمستشفيات غير مزودة، والشكوك حول الفساد قائمة. وبعيدا عن مسألة التفرق أو الوحدة الوطنية، كانت المليشيات المتكونة من ثوار سابقين تعزز سلطاتها. فارضة قانونها الخاص، وحارسة بيقظة سجنائها في أماكن متعددة ومنتشرة من البلاد. كانت اشتباكات بين أعضاء تلك المليشيات تندلع من حين لآخر، إضافة إلى ظهور نوع جديد من النزاعات حول الملكية. أه ! تركة جميلة من القذافي الذي أمم في أواخر السبعينات العديد من الأراضي، والمباني، والمصانع، والفيلات. وهاهم المالكون القدامى يظهرون مصحوبين بحججهم التي تعود إلى زمن الاحتلال الإيطالي. أو العهد العثماني : راغبين في استرجاع أملاكهم فورا حتى ولو أدى ذلك إلى استعمال السلاح.

النساء؟ ربما كنّ بريق الأمل الوحيد. فقد رفعن رؤوسهن، وصعدن لهجتهن، مطالبات باستحقاقهن لضمان مكانة تليق بهنّ. كنّ يحسسن بالحرية ويتمتعن بجرأة كبيرة. لقد ساعدت مشاركتهن المكثفة في الثورة في إعطائهن شرعية وأساساً جيداً لقطف الثمار حريّة، وتعبيراً، وتمثيلية. كان يتبادر لأذهانهن أنه لم يعد بالإمكان إقصاءهن. «تماماً مثلما حدث بعد الحروب العالمية». كما غبرت طالبة لامعة في الطب نشأت في كندا مع والدين منشقين عن القذافي. وعادت إلى ليبيا منذ سبع سنوات. واجه النساء الخوف والمخاطر والمسؤوليات. في غياب الرجال، كن مجبرات على ترك منازلهن التي كنّ في كثير من الأحيان منعزلات فيها. وعشن حلاوة الشعور بأنهن عضوات فاعلات في المجتمع. انتهت إذا معاملتنا على أننا مواطنات من الدرجة الثانية. لدينا حقوق وسيكون صوتنا مسموعاً.

فتح لهن عهد القذافي بالتأكيد أبواب الجامعة، والتدريب العسكري المنظم في المعاهد الثانوية من قبل مدربين ذكور كسروا حاجز المحرم، وأقنعوا أهاليهم بأنهن قادرات على الاختلاط مع الرجال دون مخاطر مفرطة. اجتاحت الفتيات إذا بنجاح ميادين الطب والحقوق وتحصلن على أحسن الأعداد. كان الإحباط من عدم التمكن من بناء مسيرة مهنية متميزة كبيراً. الويل لأولئك اللاتي كن يردن البروز والتطلع إلى مكانة مرموقة أياً كانت الطريقة: كان القذافي وفريقه (قادة، وحكام، ووزراء...) بالمرصاد. كانوا إذا لفتت امرأة أنظارهم يستغلونها بكل وقاحة، اغتصاب، اختطاف، وزواج تحت الإكراه... أخبرتني القاضية هناك

القلال من بنغازي : «لا يمكن تخيل الخوف الذي يعتري الفتيات من أن يظهرن مشرفات، أو ذكيات، أو موهوبات، أو جميلات، كن بمنعن أنفسهن من أخذ الكلمة علنا، يتنازلن عن المناصب المرموقة ويحددن من طموحهن. لقد تنازلن حتى عن الأناقة، وعن الجماليات، كما تخلين عن «التنانير» القصيرة والبلوزات التي كن يرتدينها في الستينات، ووضعن الحجاب واللباس الفضفاض لتغطية أجسامهن. كانت سياسة الابتعاد عن الأضواء هي القاعدة الذهبية. تماما مثل طاقية الإخفاء، حتى صارت النساء في ليبيا مثل الأشباح».

هذه المرحلة قد ولت بكل تأكيد، بلا رجعة، أو بالأحرى كانت هاته النساء يتمنينها قد ولت، فقد تصالحت النساء في ليبيا ما بعد الفدافي، مع الطموح -المهي، والاقتصادي، والسياسي- وهن واعبات رغم كل شيء بأن العقليات لن تتغير بين عشية وضحاها. والدليل ؟ الخطاب الشهير الذي ألقاه رئيس المجلس الوطني الانتقالي، مصطفى عبد الجليل : يوم 23 أكتوبر 2011، يوم الإعلان الرسمي عن تحرير : وقد تقاطر عشرات الملايين من المواطنين لحضور هذه الاحتفالية، وتسمرت الملايين من العائلات الليبية المفعمة بالمشاعر أمام شاشات التلفزيون عبر مختلف المدن الليبية لمتابعة هذا الحدث التاريخي. لقد كان قلب ليبيا بكاملها يخفق في تلك اللحظة في مدينة بنغازي، وقد حبس الكل أنفاسه. النساء من طرفهن كانت تنتظر في هذه اللحظة، دون أن تعلن صراحة عن ذلك، إشارة بذاتها عن جرائم الماضي، أو لفئة تجاد دورها. بل

أبعد من ذلك أن يتم تكريمها لخصوصية هذا الدور. ولكن خاب ظنّين!

حيث لم تتم أي إشارة لمساهمتهم في الثورة. ولم يتم حتى مجرد تلميح للدور الذي من شأنهم أن يلعبه في ليبيا الحديثة. آه : نعم. تمت الإشارة إلى أمهات وأخوات، وبنات «الشهداء الرائعين». هؤلاء الذين لن ننسى لهم ليبيا ما قدموه للوطن. بعد ذلك تم الانتقال، للإعلان عن إن تعدد الزوجات لن يكون مشروطا بموافقة الزوجة الأولى كما كانت تنص عليه القوانين في عهد القذافي، وأنه يجوز للرجل منذ الآن : ووفق أحكام الشريعة الإسلامية؛ التي ستكون مصدرا للتشريع في ليبيا، أن يتزوج بواحدة أو أربع... إذا ما شاء ذلك.

لقد وقع الأمر كالصفعة على وجوه نساء ليبيا اللاتي كن يصغين بكل حواسهن لهذا الخطاب. واللّاتي فشلن. ومنذ بداية الاحتفالية، في رؤية ولو طيف امرأة واحدة تجلس بين الحضور في منصة الاحتفال التي اكتظت بالرجال. يصلون ويجولون في بدلاتهم الرسمية، وكلهم فخر بكونهم من يجسد هذه المرحلة الجديدة.

وتشرح لي نعيمة جبريل القاضية بالمحكمة العليا بينغازي، التي التفت بها فيما بعد : «لقد ضُعت... واشتعلت غضبا... وانتابني ثورة عارمة ضد هذا الخطاب الكارثي». وتضيف : «أؤكد لكم بأنني بكيت...»

كل هذا الكفاح من أجل هذه النتيجة ؟. يقول حال القاضية نعيمة وحال غيرها من نساء ليبيا.

«كل ذلك النضال الذي خاضته أمهاتنا وجدائنا للفوز بالحق في التعليم، وفي العمل، والاحترام، كل الجهود التي بذلناها في الدراسة حتى لا يكون هناك من مجال للتمييز بين الإناث والذكور، وأن يكون لنا مطلق الحرية في اختيار المهنة التي نريد. كذلك كل ذلك الانخراط «الثائر» في الثورة، ومنذ البداية.... بل منذ اليوم الأول، حينما كان أغلب الرجال لا يملكون الجرأة على الخروج.... كل ذلك يتم اليوم مسحه بجرة قلم... ويحدث هذا يوم التحرير... باللعار!!».

باللعار : نعم. كان هذا هو الشعور الذي اعتري نساء ليبيا بشأن هذا الحدث.

وتشدد هذه السيدة : التي كانت قد عيّنت كأول قاضية. على رأس هذا السلك عام 1975 بمدينة بنغازي : «هل تتذكرين ذلك السيل الجارف من صور أعضاء المجلس الوطني الانتقالي، لمختلف زياراتهم للعواصم الأوروبية، والتي لا تظهر في أفقها امرأة واحدة ؟ أو كيف أنه أثناء زيارة كاترين أشتون : رئيسة المفوضية الأوروبية إلى بنغازي في مايو الماضي، لم تكن هناك امرأة واحدة لاستقبالها. أو أثناء زيارة وزيرة الخارجية الأمريكية هيلاري كلينتون لمدينة طرابلس عشية القبض على العقيد القذافي. لم تكن هناك ليبية واحدة في استقبالها؟».

من جهتها شرحت لي الأكاديمية أمل الجراري بشأن ما جاء في خطاب المستشار عبد الجليل : «كم كان الأمر مهينا». وواصلت : «وما أبشع هذه الصورة التي تم رسمها

عن بلادنا. رغم كل ما تملكه المرأة هنا من عنفوان، وعلم وثقافة. وتاريخ من النضال. ولكن للنظم للأمور بلا موارد، من المؤكد أننا لن نجد رجلاً واحداً سيعمل على وضعنا في الصورة. أو أن يتقهر ليسمح لنا بأخذ ولو مساحة صغيرة على المنصة. وأنه علينا بأنفسنا أن نعرض وجودنا بالقوة. وأن ننهي للتذكير بكل التضحيات التي قدمناها من أجل هذه الثورة».

في هذا السياق نشأت العديد من التنظيمات النسائية في كل مكان. في شكل نوادي، وجمعيات أو مؤسسات غير حكومية، والتي نظمت في شكل شبكات مهنية، أو تعاونية، أو شبكات جهوية، أما الخلايا السرية الصغيرة التي تكونت أثناء الثورة، فقد تحولت إلى منظمات في خدمة النساء، والأطفال، والجرحى، والمصالحة. وقد عوّضت هذه المنظمات دور العديد من المصالح المتقاعسة، والنقص الفادح في المبادرات من طرف الحكومة. كما نظمت الكثير من الدورات التدريبية واللقاءات المهنية لإعداد كوادر حراك المجتمع المدني، وتوضيح حقوق كل واحدة ومسؤولياتها في نظام ديموقراطي. «فالانتخاب امتياز، يجب اغتنامه! إنه فرصة المرأة الليبية». هذه التي تتقد طموحاً لتحويل هذا الحضور الميداني إلى قوة سياسية ضاغطة لأنّ الليبية قد أدركت اليوم أنّ تحررها يبدأ من هنا.

ويكفي في هذا الصدد القيام بجولة سريعة على صفحات الفيسبوك لنلاحظ كثرة المجموعات النسائية، وحيوية نقاشاتهن حول مستقبل اللبيات، ورغبتهم في تتبع الأخبار عن وضعيّة النساء في بلدان الثورات العربية

الأخرى. وسعيهن للتنسيق معيّن بأسرع ما يمكن. أجل، إنهن ملينات بالأمل. فهذهن يعلّقن على القانون الانتخابي، ويناقشن نسب الحصص، ويطالبن بنساء وزيرات، وسفيرات، ومديرات بنوك أو مؤسسات عمومية وإدارية. وهن يؤكّدن أنّ «النساء لم يكنّ متورّطات في نظام القذافي»... وإن قراءة ما يكتبن أمر محفّز، ومنعش إلى حدّ بعيد. كنت أضحك لرؤيتهنّ ينشرن صورهنّ وهنّ يلوّحن بفخر ببطافة النّائب الجديدة! آه، هنّ ينوين استعمالها إذا!!

وهنّ يظهرن استبشارهن. ولكنّهنّ يحكين أيضا آلامهنّ. يوم 18 مايو، نشرت امرأة شابة، أعرفها بكثرة نشاطها، رسالة على الفايس بوك، تقول فيها : «إنّهُ يوم الجمعة، الحطّيس رائع ولكن بما أنّي امرأة في ليبيا، فإنّني أجد نفسي مسجونة في المنزل ومكتنبة لأنّه لا بحقّ لي الذهاب إلى الشاطئ. لماذا لا توجد شواطئ للنساء ؟ ألا توجد لدينا سواحل كافية ؟ كم منكنّ يا فتيات تشعرن بنفس الشّيء؟» كم ؟ لنر إذن ! «آلاف؟»، أجابت إحداهنّ في الحال. «إنّه لظلم!» وكتبت أخرى :

-- «كنت أسكن في شارع يطلّ مباشرة على الشاطئ ولم يكن لديّ الحقّ في أن أطأه.

- أجابت مستعملات الانترنت : إنّه أمر مرفوض تماما!
- إنّه حتى ليس أمرا متعلّقا بالقانون، إنّها إحدى مآسي هذه البلاد !

- ثريّا لا تذهب إلى الشاطئ، ولا تتصفّح الانترنت، وليس لديها حتى حساب بالفايس بوك. ليس لديها حتى

صديقات تشاطرنها غضبها أو تصحبنها للتسجيل على قائمة الانتخابات. لكنها تأمل دائما ألا تنسى جرائم القذا في الجنسية ، «لم أكن أحلم يا أنيك. أنت تصدقيني أليس كذلك ؟ الأسماء. التواريخ. الأماكن. رويت لك كل شيء. لكنني كنت أريد أن أشهد أمام المحكمة. لماذا علي أن أخجل ؟ لماذا يجب أن أدفع ثمن الجرائم التي ارتكبتها بحقي؟».

«ثورتها هي ثورتي. كنت أود أن أتناقشها مع لبيبات أخريات ، قاضيات، محاميات، قريبات من المجلس الوطني الانتقالي. مدافعات عن الحقوق الشخصية. للأسف، لا توجد أي منهن لتجعل من هذه القضية قضيتها. أمر غاية في الحساسية. محرّم. لا جدوى منه، قد يخسرنا كل شيء. في بلد كل شيء فيه بيد الرجال، لا يمكن مناقشة ولا مقاضاة الجرائم الجنسية. المعنويات بهذه القضية سينغتن بالكاذبات أوغير اللانقات. أما الضحايا، فلكي يعشن، يجب أن يبقين مختبئات».

قالت لي الحقوقيّة سلوى الدغيلي المرأة الوحيدة بالمجلس الوطني الانتقالي، وقد أنصت لي مطولا وأنا أحدثها عن ثريا. وهي تومئ برأسها: «كم هي شجاعة هذه الصغيرة ! يجب أن يعرف التاريخ، أن هذا الأمر مصيري. هذا هو الوجه الحقيقي لهذا الذي حكم ليبيا لمدة اثنتين وأربعين سنة. هكذا حكم ومقت وأخضع شعبه. يجب أن تكون هناك نساء رائدات يجرؤن على الحديث عن مأساة النساء، وما عاشه البلد بالفعل. لكنها إن تكلمت ستعرض نفسها لمخاطر كبرى».

كانت تدون بعض الملاحظات. ووجهها متألم تحت المتديل الوردى. وجهاز الآي فون يرتعش في حضبتها الباريسية. ..أظن أنهم أخبروك أن الموضوع محرم. كل رجائي وأملى أن تتم حماية الضحايا. فليست ثريا وحدها الضحية. هناك مثلها الكثيرات. لكن لا يمكنني التعهد بإخراج ملف كهذا!...؟.

لن يفعل ذلك أحد. وفي العالم بأسره. ستواصل النساء اختبار الصمت. ضحايا يخشين من جريمة جعلت من بطونهن أمرا من أمور السلطة. أو غنيمة حرب. لقد وقع استهدافهن من قبل هؤلاء المتوحشين. لكن مجتمعاتنا. البربرية مثل المتطورة منها. تواصل تعاملها معهم بتساهل مقرف.

*

قبل أن أغادر طرابلس في نهاية شهر مارس. أردت أن أقوم بجولة أخيرة في موقع باب العزيزية. لم يبق شيء يذكر مما كان يرمز طيلة عقود إلى جبروت سيد ليبيا. فتقد قامت عربات البلدوزر بتفتيت الحيطان. وسحق أغلب المباني. محولة الموقع السابق للقيادة إلى ركام بائس من حجارة. وإسمنت. وصفائح معدنية.

بعد المعركة الأخيرة. قامت حشود من الناس بنهب المكان. لم يبق شيء. لا شيء على الإطلاق يُذكر بوجود إنساني. كان الدخان يتصاعد من أكداس القمامة التي أضحى الشعب يلقي بها هناك لغياب خدمات رفع الفضلات المنظمة. وكان هناك مسبح مملوء بالماء العكر.

حذوه بعض النخيل المتيبس. بينما كانت السماء متجهمة والغربان الرابضة على بقايا الحيطان تحرس المكان. كنت أمشي بلا هدف في مكان الكارثة. لقد هُدمت المعالم التي حدثني عنها أحد حراس القذافي. كنت نائمة. ليس هذا مهما. كنت أتقدم وأنا أحاول العثور في هذا الديكور المعدني. عن إشارة ما تذكرني بشريا.

اعترضني أحد الثوار. كان يتمشى في المكان نفسه. ربما كانت بحوزته هذه الإشارة. قادني إلى مدخل الدهليز حيث كانت ثريا. حيث قابلتنا. بضع درجات من الإسمنت، وباب ضخم مصفح كأبواب الخزائن، ونفق بلا نهاية قادني فيه الرجل أكثر من مائة متر على ضوء مصباح كان بحمله. عند تسلقي لإحدى أكداس الإسمنت المسلح. في مخرج النفق. لاحظت وجود شريط أغاني محتجز بين حجارتين. أسفل كلاشنيكوف محترق. كان ذلك غريبا وسخيفا. كان العنوان المكتوب بالعربية غير مكتمل. وحين مددت الشريط لمرافقي. أخبرني بكل بساطة : «أغاني ليبية!». ترى هل كانت إحدى الأغنيات القمينة التي كان القذافي يجبر ثريا لترقص عليها ؟ وضعت الشريط في جيبتي وواصلت التسلق. والتقدم. بعد بضعة أمتار. جذب انتباهي تصدع صغير في الأرض. لماذا توقفت عنده ؟ لا أدري؟ وقد اعترضت أمثاله الكثير. التصدعات التي كانت تذكر بكل المعارك التي دارت في شهر أغسطس. أو التي تدل على وجود دهليز. انحنيت فوق الشق. فلاح لي في القاع شيء أحمر اللون شد انتباهي. لم أنبئه. فأمسكت بفصن شجرة. وتمددت على الأرض لأتمكن من جذبه. كان الأمر

سهلا. إنه مصنوع من القماش. ومن أحشاء باب العريزية
برزت صدرية نسائية صغيرة (من الدانتيل الأحمر) كتلك
التي كانت ثريا مجبرة على ارتدائها.

لأول مرة منذ بداية هذه الرحلة، اجتاحتني رغبة
حارقة في البكاء.

شكر وتقدير

يدين تحقيق هذا البحث بالفضل إلى جهود ثائرة ليبية؛ شجاعة، مستقلة ومعنية حتى النخاع بهذا الموضوع. والتي انخرطت بكل قواها في الثورة : روحا وجسد. ومنذ اليوم الأول من انطلاقتها. وجهدت في هذا السياق، رغم حجم المخاطر والصعوبات، لأن تمد يد العون، في كامل السرية، وفي الغاء تام للذات، للمعنفات من النساء، اللاتي كن قد انسحقن تحت وجع المصيبة وعصف المعاناة. ضحايا ذلك العدوان الغاشم الذي شنه القذافي وكتائبه ضد الشعب الليبي، والذي وظف فيه الجنس سلاحا في معاركه القذرة. هذه الجرائم التي بصعب على ليبيا تصديق وقوعها حتى الآن.

مناضلة، لا زالت تكافح في هذه الجبهة رغم الضغوطات والتهديدات. وقد اختارت الانحياز لقضية المرأة باطلاق..... إليها ارفع كل آيات الشكر والاكبار.

كما ارفع الي زملائي المسؤولين في جريدة اللوموند، هذه الصحيفة التي كان لي الحظ أن اشتغل بين صفوفها منذ ثلاثين عاما، والتي تربطني بها عرى وثيقة من التكامل، اسمى آيات الامتنان لما منحوه لي من وقت، ومن ثقة لإنجاز هذا المشروع.

الفهرس

التقديم

المقدمة

الفصل الأول : قصة تريا

الفصل الثاني : التحقيق

الخاتمة

شكرو تقدير

الطرائد

جرائم القذافي الجنسية

نحن هنا أمام نموذج استثنائي من البحوث الميدانية؛ الذي جهدت خلاله الكاتبة الفرنسية الكبيرة انيك كوجان لرفع الستار عن ابشع الجرائم الجنسية التي ارتكبتها طاغية عبر القرون، استغرق منها عدة أشهر من التنقيب في ليبيا ما بعد الحرب؛ حول الجرائم الجنسية للمقبور القذافي. اليد في اليد مع ثائرة ليبية. في تحدي كبير لكافة الصعوبات التي كانت تقف أمام الخوض في موضوع يحمل في طياته أكثر من تهديد. حيث تنقل الكاتبة في هذا الكتاب، شهادات على درجة من الأهمية لعدد من الضحايا، اختارت أن ترفع إحداها كوثيقة أساسية، ترفدها بقية الشهادات.

صفحات من «حياة متجبر مهووس بالجنس» تعرضها دون مواربة؛ رغم ارتعاد قرائض الحروف؛ لنقدم للعالم كشفا بجرائم الطغاة، وليعرفوا أن التاريخ يترصدهم، وأن كل من يحاول أن يتمادى سيكون التاريخ له بالمرصاد...

وحتى لا يتكرر ذلك أبدا!

ISBN : 978 - 9938 - 864 - 02 - 1



9789938 864021

الموقع الإلكتروني: www.mediterraneanpub.com

